الجزء الرابع

سورة الانفال

فضل السورة

قال رسول الله (ص):

"من قرأ سورة الأنفال و براءة فانا شفيع له و شاهد يوم القيامة انه بريء من النفاق و اعطي من الاجر بعدد كل منافق و منافقة في دار الدنيا عشر حسنات و محي عنه عشر سيئات و رفع له عشر درجات و كان العرش و حملته يصلون عليه ايام حياته في الدنيا " مجمع البيان ص (٥١٦)

عن أبي عبد الله الحسين (ع) قال:

"من قرأ سورة الأنفال و براءة في كل شهر لم يدخله نفاق و كان من شيعة أمير المؤمنين (ع) حقا و يأكل يوم القيامة من موائد الجنة معهم حتى يفرغ الناس من الحساب " البيان ص (٥١٦) ج ٤و عن الامام الباقر (ع) قال:

"في سورة الأنفال جدع الأنوف "مجمع البيان ص (٥١٦) ج٤

الاطار العام

سميت السورة الثامنة من القرآن بالأنفال لأن الحديث الاول فيها عن الغنائم الاضافية التي تسمى بـ (النفل) وهو كل زيادة تعطى ، و في الحديث الصحيح " .ان الانفـال : كل ما اخـذ مـن دار الحرب بغير قتال ، و كل ارض انجلى أهلها عنها بغير قتال ، و يسميها الفقهاء فيئا ، و قطائع الملوك اذا كانت في ايديهم من غير غصب ، و الاجام ، و بطون الاودية ، و الارضون الموات. "

و يمكننا ان نوجز الانفال فـي عبـــارة : هي كل شيء يتحرر من الملكية الخاصة ، فيعود الى الملكية العامة بيد امام الامة ، و في عهد رسول الله)ًص) يكون بالطبع في يده (ص. (

الموضوع:

بعد ان جاءت الآية الاولى في الانفال ، و الآية (٤١) في خمس الغنائم بينماكانت الآية (٦٦) في حلية اكل الغنائم ، وهذه الآيات الثلاث تشكل حكما واحدا حيث يجب تقسيم الغنائم التي يحصل عليه الجيش المجاهد بين المقاتلين ، بعد اخراج خمسها لبيت المال ، اما ما وراء الغنائم من الانفال ، فهي لبيت المال - الدولة. -

اما الآيات الاخرى في السورة فهي تدور حول صفات المؤمنين الصادقين و التي منها تصديقهم بالغيب . إذ يستجيبون للرسـالة حتى ولو كانـت مخالفـة لأهوائهم أو نظراتهم الضيقة ، حيث اخرج الله نبيه بالحق بالرغم من كراهة طائفة من المؤمنين ، و الهدف كان كسب القتال فقد امد الله جيش الاسلام بالملائكة ليكونوا بشرى للقلوب ، و تستمر الآيات تتحدث عن الجهاد و عوامل هزيمة الكفار و اسباب انتصار المسلمين التي يامرنا ربنا بها ، في الآيات (١٥ /٣٩) ومنها الثبات و ارادة مرضاة الله تعالى ، و طاعة

القيادة ، و الاستجابة لدعوة الرسول (ص) ، و تجنب الفتنة ، و التحرر من جاذبية الاهل و الاموال و التقوى و البصيرة.

أما مكر الكفار و دعاياتهم التي تتحدث عنها الآيات (٣٠ / ٣٥) فانها زائلة مثل قولهم : انهم قادرون على ان ياتوا بمثل القرآن ، أو التحدي باستعجال العذاب ، أو الصلاة عند البيت مكاء و تصدية او انفاق اموالهم التي من نتائجها تعبئة الكفار ، لكي يكون القضاءعليهم مرة واحدة.

ويبين القرآن ضرورة القتال الشديد ضد الكفار بهدف اقتلاع جذور الفتنة ، و عدم الخوف لان نصر الله قريب . اذ ان الله سبحانه يقضي بالحرب برغم تهاون فريق من المسلمين عنها خوفا ، لكي يقضي امرا كان مفعولا ، ولكن للنصر شروطا منها الثبات و الطاعة و عدم النزاع ، و الصبر و عدم البطر ، وتجنب الرياء ، وان يكون الهدف هو مرضاة الله ، اما اولئك الذين استهدفوا الصد عن سبيل الله فان الشيطان غرهم ثم تركهم ، اما المؤمنون فان الدين يشجعهم على الجهاد و ليس هذا غرورا واذالم تقتلع الحرب جذر الفساد فان سنة الله في الحياة هي التي تقضي بنهاية المفسدين كما فعل ربنا بآل فرعون الظالمين.

ويعرج القرآن الى ذكر استراتيجية القتال كما جاء في الآيات (٥٧ / ٦٩) فيأمر بألقاء الرعب ليس فقط فيمن هو بالجبهة ، بل بكل الاعداء ، وضرورة الاستعداد للقتال سلفا ، و ضرورة قبول السلم و التوكل على الله فيها ، و الاعتماد على الله في الا يكون سلمهمخداعا ، و ضرورة الوحدة و التحريض على القتال ، و الاستعداد النفسي لقبول التضحيات ، وفي مقابل التضحيات يحصل المسلمون على الغنائم الحلال.

اما الاسرى فلو كانت نياتهم صافية فان جزاءهم على الله ، ويجب ان يحسن معاملتهم دون خوف من خيانتهم (٧٠ / ٧١)وفي نهاية السورة (٧٢ / ٧٧) يلخص القرآن موضوع السورة و يامر بالهجرة و الجهاد بالمال و النفس ، و يبين ان من يفعل ذلك اولياء لمن يأوي المهاجرين و ينصر الرسالة بينما الكفار هم فئة واحدة ، و المؤمنون المجاهدون مهاجرين و انصار هم صفوة المؤمنين و اولوا الارحام بعضهم اولياء بعض.

وهكذا تدور آيات سورة الانفال في مسائل القتال من اجل الله.

حق التصرف في الاملاك العامة

هدى من الآيات

لمن هي الاملاك العامة ؟ ومن يملك حق التصرف فيها ؟

انها لله و لرسوله (ص) ، وعلى ابناء الامة التزام الوحدة و الانضباط لان الايمان هو الذي يوقر في القلب و ينعكس على العمل، فالمؤمنون هم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، و اهتزت خوفا و طمعا و محبة ، و ازداد ايمانهم كلما ذكرت لهم آيات الله الناطقة و غيرها ، ولم يشعروا بضعة أمام شيء أو شخص لانهم يتوكلون على الله ربهم و مدبر أمورهم ، و ينعكس هذا الايمان القلبي الراسخ على سلوكهم ، فاذا هم يقيمون الصلاة ، و ينفقون من كل ما رزقهم الله . اما جزاء هؤلاء المؤمنين الصادقين فهو درجات عالية عند ربهم كل حسب اعماله ، و مغفرة عما سبق من ذنوبهم ، و رزق كريم في الحياة الدنيا و الاخرة.

بينات من الآيات

ماهي الانفال ؟ ولمن ؟

[1]بعد حرب بدر طرح هذا السؤال:

لمن هي صفوة الغنائم و البقية الباقية من غنائم الحرب بعد تقسيمها على المجاهدين ؟ و يطرح هذا السؤال ابدا كلما بقيت ممتلكات مطلقة غير مختصة بهذا أو ذاك و لذلك جاء التعبير القرآني عاما ، وجاء الجواب شاملا لكل الأملاك العامة ، أو لكل شيء لا يمتلك من قبلشخص معين ، ذلك لأن كلمة الانفال تدل على كل زيادة ، لذلك وسع الفقهاء مفهومها حتى اصبحت مقارنة لكلمة الملكية العامة في تعابيرنا الدراجة و الذي يتصرف فيها هو الرسول الذي يمثل القيادة الشرعية و من بعده خلفاؤه ، أما موارد التصرف فلابد ان تتخذ حسب قيم التوحيد ، و بالتالي في سبيل الله وهو كل عمل يحقق أهداف الرسالة

ابتداء من الضمان الاجتماعي للفقراء و المساكين و مرورا بتكفل موظفي الدولة ، وخدمة الأمة ، وانتهاء بنشر الرسالة في الآفاق.

و لذلك ذكر القرآن أن الانفال هي لله أولا ، ثم لرسوله (ص) باعتبار ان رضوان الله هو هدف التصرف في هذه الاملاك ، و الرسول أو القيادة الرسالية هي القائمة عمليا بتحقيق هذا الهدف.

]يسألونك عن الانفال قل الانفال لله و الرسول فاتقوا الله]التقوى في القضايا المالية:

و تقوى الله هنا تتحقق باداء الواجبات المالية ، وعدم الاعتداء على أموال الدولة التي هي لله و للرسول ، و ايضا بالتزام الوحدة و عدم الخلاف في القضايا ، حيث يطمعكل فريق أن يكون نصيبه الأكبر من اموال الدولة . لذلك أمر الله بأصلاح العلاقات الاجتماعية التي تربط الناس ببعضهم.

]و اصلحوا ذات بينكم[

و اصلاح ذات البين لا يتم الا برصد ما يفسد في هذه العلاقات ، و السعي وراء اصلاحها بصفة مستمرة و دون كلل.

]و أطيعوا الله و رسوله ان كنتم مؤمنين[

الصفات النفسية للمؤمنين:

[2]هناك ثلاث صفات رئيسية للمؤمنين لو لم توجد في شخص فعليه ان يشك في ايمانه.

الف :ان تبلغ معرفته بالله حدا يخافه ، كلما ذكر عنده لانه يعرف عظمته و قدرته و احاطته به علما و سمعا و بصرا ، فلماذا لا يخاف منه وقد استخدم القرآن الحكيم هنا كلمة الوجل و نسبها الى القلب فقال :

]إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم[

فماذا يعني الوجل ؟

ربما معناه التحرك حيث ان نسبة الخوف الى القلب تعطي معنى يختلف عما إذا نسب الى الفرد ذاته وهو المعنى الحقيقي لكلمة الوجل التي قد تكون الاهتزاز و التأثر و الله العالم.

باء : لان قلوب المؤمنين تتأثر بذكر الله فانها تستوعب الآيات ، فاذا ذكروابآيات الله يزدادون ايمانا ، لان استماعهم الى الآيات يتم من دون حجاب الكفر و الجحود ، او حجاب الفجور و الفسوق.

بينما يزداد المنافق باستماع الآيات كفرا و جحودا لانه يفسرها عكسيا ، و يتحصن ضدها كلما تكررت عليه باعتباره معقد تجاهها ، و مصمم سلفا على عدم قبولها.

]واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا[

و الآيات قد تكون الناطقة وهي القرآن ، وقد تكون آيات الحياة ، فكل تطور في الطبيعة يتم وفق نظام دقيق يدل على تدبير الله ، وكل نعمة تتجدد أو نعمة تذهب أو كارثة تكاد تقع فيدفعها الله . كل ذلك يزيد المؤمنين معرفة بالله و تسليما لقضائه سبحانه سبحانه.

جيم : وكلما زاد ايمان الفرد زاد اطمئنانه برحمة الله ، وبحسن تدبيره ، و بالتالي ازداد ثقة بأن ربه سبحانه لا يقطع به الحبل في منتصف الطريق ، وانه لو التزم بالمنهج السليم الذي امر به الله فان سنن

الحياة و قوانين الطبيعة و التأييد الغيبي سوف تساعده فيشؤونه.

]وعلى ربهم يتوكلون[

ان الشخص الجاهلي و المتخلف يخشى الطبيعة فلا يسخرها لنفسه ، ويخشى الناس فلا يستخدم عقله بل يتبع أهواءهم ، و يخشى العطب فلا ينشط ، بينما المؤمن العارف يخشى الله تعالى ، و يتحدى الطبيعة ، و يخاف الله فيتبع عقله و هداه ، ولا يستسلم لأهواء الناس ، و يعرف مواهب الله له ، الان و مستقبلا ، فلا يخشى العطب و التعب فيمتلىء حيوية و اندفاعا ، وهذا بعض معاني التوكل على الله التي تدل ايضاعلى ثقة الشخص بما وهب الله له من قدرات و طاقات دون انتظار او نظر لما في ايدي الاخرين.

تلك كانت الصفات النفسية للمؤمنين والتي تنعكس على السلوك العيني في صورة الصلاة التي تعبر عن الوجل من الله .. رجاءا و خشية ، وفي صورة الانفال التي تعبر عن التوكل على الله دون خوف من انتهاء نعمه عليهم و نفاد مواهبه لهم.

] [3]الذين يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون]ان ذلك مقياس اكيد للايمان الذي فيه فوائد كثيرة أهمها : تكامل شخصية الفرد حسب درجات ايمانه ، وهذا التكامل ليس بمقياس الناس بل بقيم الله سبحانه ، فلا يضر المؤمن المتكامل الشخصية الا يعرف به الناس.

] [4]اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم و مغفرة و رزق كريم]و بالايمان يطهر القلب الفرد عن الأدران و الأمراض ، عن الكبر و العجب و الغرور و الانانية ، عن الحسد و الحقد و الظن و البغضاء ، عن الجهل و الجهالة و اتباع غير الحق.

وحين يطهر القلب ، يزكى العمل ، و يحصل الفرد على المكاسب التي تأتيه بكرامة و عزة و ليست المكاسب التي يحصل عليها الفرد بأيمانه كالتي يحصل عليها المنافقون و الكفار حيث تمحق كرامتهم البشرية.

التسليم لأوامر الرب سبحانه

هدى من الآيات

حين يبلغ الايمان مستوى النضج و الكمال ، يسلم صاحبه نفسه للحق ، و يتوكل على الله ، و يترفع عن الحياة درجات ، و يضرب الله مثلا واقعيا على ذلك حيث هيء سبحانه الامور لخروج نبيه (ص) و انصاره من المدينة في غزوة بدر بينما كان فريق من المؤمنين كارهين وهم يجادلون في جدوى الخروج حتى بعد ان تبين لهم صدق الرسالة و سلامة اوامر الرسول (ص) ، و وعدهم الله ان تكون لهم احدى الطائفتين إما القافلة التجارية التي كانت لقريش وإما الجنود المسلحون . ومن الطبيعي ان يكون المسلمون يفضلون القافلة التجارية ، بينما الله كانقد قضى لهم بمواجهة الجيش المعادي لأن الله يريد تحقيق واقع الرسالة الجديدة وليس فقط حصول المسلمين على حطام الدنيا ، كما يزيد ربنا ارغام المجرمين بأحقاق الحق و إبطال الباطل حتى لا يفكروا مستقبلا بمقاومة الرسالة .. وهذا كله مثل ايمان و توكل المؤمنين و عاقبته المتمثلة في الدرجات الرفيعة.

بينات من الآيات

واذ يعدكم الله احدى الطائفتين:

[5]في الحياة انظمة يوحي بها الله عبر الرسالة ، و ينفذ الله هذه الانظمة إما بيد الناس وإما بصورة غيبية ، وهذه الانظمة حق يتبعها المسلمون و يثق بها المؤمنون ، و يتوكلون على الله اطمئنانا بها ، و يتجاوزون كل عقبة في طريقهم ، و المثال الظاهر لذلك هيقصة حرب بدر ، حيث أخبر المسلمون بتحرك عير قريش قريبا من المدينة ، و بما ان المسلمين كانوا ينتظرون فرصة للثأر من اعدائهم الذين حاصروهم اقتصاديا و نهبوا ثرواتهم آنئذ بادر المسلمون للخروج ، إما للقتال وإما للغنائم ، وهكذا أخرج الله المسلمين من بيوت الأمن ، و دفعهم الى الحرب بينما كان فريق منهم كارهين.

]كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون]وكراهتهم انما كانت بسبب عدم

ايمانهم بالله و بالحق و المسقبل.

[6]وهذا الفريق كانوا يجادلون في الحق ، في الوقت الذي تبين لهم الحق في الرسالة الجديدة التي آمنوا بها و بصدقها وانها تتحدث عن الله.

]يجادلونك في الحق بعد ما تبين[

والحق واضح ، وقد يكون شخص غير مقتنع به بسبب نقص فيه ، و ليس في دلائل الحق.

]كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون[

و حيث انهم لا يعرفون طبيعة الحق ، وان عاقبته خير و رفاه ، لذلك لا ينشطون في طريقه بل يعتبرون كل تحرك نحوه كأنه تحرك نحو الموت الظاهر.

ذات الشوكة:

[7]وكان ينتظر المسلمون العير فجاءهم النفير ، ولكن كانت في ذلك حكمة بالغة حيث اراد الله تحطيم شوكة الكفار و اشاعة الرعب في نفوسهم و تحول المسلمون الى قوة عسكرية معترف بها في الجزيرة .

]واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم[

اي انكم سوف تغلبون الاعداء بالتأكيد . فتحصلون اما على قافلتهم التجارية التي كانت تمر قريبا منكم ، او تهزمون جيشهم الذي يأتي لمحاربتكم ، ومع وعد الله لهم بالنصر فانهم كانوا يحلمون بالعير و يخافون النفير.

]و تودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم[

وذلك خوفا من مواجهة العدو عسكريا و الله يريد غير ما يريده الناس .. الناس يريدون عاجل المكاسب و الله يريد تحقيق الاهداف البعيدة للامة و ذلك بدعم جانب الرسالة الحقة ، و استئصال شأفة الكفار ، حتى لا يبقى لهم كيان يعتمدون عليه.

]ويريد الله ان يحق الحق بكلماته [

حيث ان اوامر ا لله بالخروج لا تهدف حصول المسلمين على بعض الغنائم ، بل تهدف اقامة حكم الله في الارض و تصفية الطواغيت.

]و يقطع دابر الكافرين[

[8]وهناك حكمة اخرى لربنا هي كسر شوكة المجرمين حتى لا يقدروا على مقاومة الرسالة.

]ليحق الحق و يبطل الباطل ولو كره المجرمون[

الامداد الغيبي متى وكيف ؟

هدى من الآيات:

المؤمنون يتوكلون على ربهم فيجتازون المشاكل بتأييد غيبي ، و تقدير رشيد من الله لهم ، واليك مثلا

من معركة بدر كيف استغاث المسلمون بربهم بعد ان قرروا خوض المعركة صادقين ، وعوضوا ضعفهم المادي بالتوجه الى ربهم لينصرهم فاستجاب الله لهم ، و امدهم بألف ملكشكلوا خلفية الجيش الاسلامي ودعما له ، ولم يكن الهدف من ارسالهم سوى تقوية نفسيات المسلمين ، و ليكونوا مبعثا لأطمئنان قلوبهم ، بينما لم يكن النصر النهائي الا من الله ، و ربما من غير طريق الملائكة لان الله قوي قاهر و قادر على نصر من يشاء ، ولكنه لا ينصر الا من يستحق النصر.

و بالرغم من هول المواجهة فان الايمان الذي ازداد بالمواجهة و التوكل برد افئدة المسلمين ، فاستولى عليهم النعاس ، وجاء ماء السماء يلطف الهواء ، و يطهر الاجواء و الابدان ، و يبشـــر القلـــوب بالرحمـة فيذهب عنها وســـاوس الشـــيطان ، و يعقـد المـسلـــمون

العزم على الحرب ، فثبتت اقدامهم في المواجهة ، واذا بالملائكة يثبتون بوحي من ربهم الذين آمنوا ، واذا بربنا الحكيم يبعث في قلوب الاعداء الخوف ، و يتفوق المسلمون على اعدائهم نفسيا ، فيضربون فوق الاعناق رؤوسهم و يضربون ايديهم ، ولكن لماذا تحيز ربنا ضد الكفار او ليسوا عبيده ؟ نعم و لكنهم شاقوا الله و عارضوا رسوله ، و الله شديد العقاب ليس في الدنيا فحسب بل في الاخرة يعذبهم عذابا شديدا.

بينات من الآيات

التوكل سر الانتصار:

[9]لو تذكر الانسان حالاته السابقة ، و كيف احتاج الى رحمة ربه فدعاه بحقيقة الايمان ، فاسعفه و انقذه من المشاكل ، و لو تبصر الانسان او ضاع الاخرين ، و كيف تدخلت قوة الغيب في تأييد طائفة ضد اخرى اذا لعرف ان التوكل على الله سر التغلب على الصعاب . و يذكر القرآن الامة الاسلامية بماضيها ، و ابرز المعارك الحاسمة فيه ، والتي تتكرر مثيلاتها ابدا . مثلا في معركة بدر حيث استغاث المسلمون فامدهم ربهم بالف من الملائكة..

]اذ تستغيثون ربكم[

و الاستغاثة - كأي دعاء اخر - تكشف عن ارادة النجاح التي لا تقهرها حتى المشاكل المادية الظاهرة ، كما انها تكشف عن ايمان قوي بوجود المواهب الكبيرة عــند الفرد.

]فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين]أي يؤيدونكم من ورائكم.

[10]ولكــن لا يعــني نــزول المــلائكة انهـم سـوف يحاربون بديــلا عنكــم ، كمــا لايعني وجود دعم غيبي للمؤمنين ان هذا الدعم يغنيهم عن العمل الجاد كلا .. بل يعني العكس وهو ضرورة العمل الجدي حتى تحقيق الهدف بالاعتماد على الدعم السماوي.

]وما جعله الله إلا بشرى و لتطمئن به قلوبكم[

اما النصر فهو من عند الله يقضيه لمن تتوفر فيه شرائط النصر و عوامله و منها بالطبع ارادة النصر ، و العمى من أجله ، و تذويب الانانيات من اجله . ذلك لان ربنا الى جانب قوته و قهره فهو حكيم لا يهب النصر لمن لا يستحقه.

]وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم[

[11]و الملائكة احدى وسائل النصر و هناك وسائل اخرى يوفرها ربنا اذا شاء ، مثلا في حرب بدر كانت الاعصاب متوترة ، و النفوس ملتهبة هلعا و الاجسام تثقل بالاوساخ ، فبرد الايمان و التوكل افئدة المسلمين ، حتى مالت الى الراحة و النعاس فاستراحت الاعصاب ، واستعدت لمعركة حاسمة في اليوم التالي ..

]اذ يغشيكم النعاس آمنة منه[

حين يتوكل العبد على ربه يستريح في ظلال الثقة به و بتقديره فلا يحرق اعصابه بل يعيش في كنف امان ربه.

و المؤمنون حقا هم الذين يزدادون ايمانا في ساعة العسرة لان تلك الساعات تكشف جوهر البشر و طبيعته الكامنة.

]وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به[

ذلك لان كثيرا من الجراثيم التي يتلوث بها الجو و تنتقل عبر الهواء و الماء منشخص لآخر تموت بعد المطر ، فيرتاح منها الجيش الذي تكثر فيه احتمالات الخطر.

]ويذهب عنكم رجز الشيطان[

و حين يتلطف الجو بماء السماء يسعد الناس ببركات الله ، فتطمئن قلوبهم و يذهب عنها الخوف و التردد ، كما يذهب بالمطر النجاسة المادية التي تؤثر في النفس ايضا و ذلك عن طريق الوضوء و العمل.

]و ليربط على قلوبكم و يثبت به الاقدام[

فحين يرى المسلمون السماء تمطر عليهم يعرفون ان هذا المطر من نعم الله ، فآنئذ يزدادون ايمانا برحمة الله ، وان بيده بركات السماء و الارض و بذلك تطمئن نفوسهم ، و ينعكس ذلك على ممارساتهم الحياتية بالاستقامة و الثبات.

تثبيت الله تعالى:

[12]في ساعات الشدة تكاد ارادة المسلمين تنهار امام ضغوط الحياة لولا الايمان الذي يمده الله عن طريق الملائكة المتواجدين في الافئدة بالثبات و الاستقامة.

]اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم[

ولان الله مع الملائكة ، و يؤيد الملائكة بقوته التي لا تقهر فانهم اقوى من قوى الكفر المادية.

]فثبتوا الذين ءامنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب]وبما ان الرعب يسبب في تضخيم حجم الاشياء ، و حسبما جاء في المثل المروي : للخوف عيون واسعة ، فان الكفار اخذوا يرون قوة المؤمنين اكبر من حجمها اضعافا ،بينما كان الثبات الذي اعطاه الله بملائكته للمؤمنين سببا في الاستهانة بقوة الكفار ، و الاندفاع نحو تحطيمها . كذلك تفوق المسلمون على اعدائهم في ساحة القلوب ، وكان ذلك طريقا لانتصارهم في ساحة الحرب.

]فأضربوا فوق الاعناق و اضربوا منهم كل بنان[

فجاءت الضربات مسددة في الاماكن الحساسة في الرؤوس و الايدي فلم تذهب سدى ، بينما ذهبت ضربات العدو هباء في الاطراف لان قلوبهم كانت مشتته و غير ثابتة ، وهكذا يؤثر الثبات النفسي في الانتصار.

[13]لماذا شتت الله قلوب الكفار ، فألحق بهم الهزيمة ؟ لانهم تمردوا على الله ، و انحرفوا عن خطه المستقيم في الحياة . ذلك الخط الذي سيفرض نفسه بالتالي على البشر طوعا او كرها ، وانما يملك الناس فرصة محددة من الحرية و اجلا محدودا.

[ذلك بأنهم شاقوا الله و رسوله ومن يشاقق الله و رسوله فان الله شديد العقاب]حتى المؤمنون الذين نصرهم الله اليوم لو انحرفوا عن طريق ربهم ، فان عقاب الله شديد عليهم ايضا.

[14]ولا يكتفي الله فقط بعذاب الدنيا بل في الاخرة ايضا.

[ذلكم فذوقوه وان للكافرين عذاب النار]

القتال بين الاستقامة و التوكل

هدى من الآيات

انتصار الله سبحانه للمؤمنين كما ذكر به الدرس السابق لا يعني ابدا تحللهم عن مسؤوليتهم القتالية الخطيرة التي يعددها الله في هذا الدرس وهي:

اولا :الثبات في المواجهة و عدم الفرار تحت أي ضغط كان ، اللهم الا تراجعا تكتيكيا للعودة الى الحرب في وضع أفضل ومع جماعة اكبر ، و في غير هذه الصورة فان غضب الله في الدنيا قد يتمثل في الهزيمة ، و غضبه في الاخرة سيكون جزاءا عادلا.

ثانيا : الاتكال على الله و الاعتقاد بان النصر من عنده ، وانه حتى الرمي الذي يرميه الشخص انما هو من عند الله ، وان المعركة ما هي الا ابتلاء من الله للمؤمنين ليرفع درجتهم و ينمي مواهبهم ، و الله سميع عليم ، يعلم من ينجح في الامتحان ، و لمن يعطي الدرجات الرفيعة.

ثالثا : ان الله يكشف خطط العدو ، و يوهن كيدهم ، و يبعث في استراتيجيةالعدو الثغرات ، ولا تغني كثرة العدو عنهم شيئا ، وان الله تعالى مع المؤمنين.

بينات من الآيات

الثبات في المواجهة:

[15]ايدي المؤمنين القوية هي الاداة الطيعة . هي ارادة السماء ، فالله قد يجعل المؤمنين سيفه الصارم لذلك يأمرهم بالثبات عند مواجهة العدو ، وعدم الفرار ابدا.

]يا ايها الذين ءامنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار][١٦] وهناك استثناء واحد لترك المعركة هو ان يكون للعودة اليها بقوة اكبر اما عن طريق اختيار موقع افضل مثل ترك السهل الى الجبل و ترك الساحة الى الخندق ، أو عن طريق اختيار جماعة يتعاون معهم ضد العدو.

]ومن يولهم يؤمئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة]و يبدو ان القرآن يذكرنا بأهمية أختيار الموقع المناسب و الجماعة المناسبة لمتابعةالقتال ، و عدم الاعتماد على نصر الله فقط.

]فقد باء بغضب من الله[

و غضب الله قد يتمثل في مضاعفة الخسائر ، أو حتى الهزيمة غير المنتظرة . ذلك أن الاقدام يعجل النصر و يقلل الخسائر.

]ومأواه جهنم و بئس المصير[

الاتكال على الله تعالى:

[17]الرمي من المؤمن ولكن الذي يسدد الرمية و يعطيها اثرها في القلوب هوالله ، لذلك كان علينا القيام بعملنا وهو الرمي و القتال ، و بذل كل جهد ممكن في ساحة الحرب دون ان نكتفي بذلك او نغتر به أو نعتمد عليه ، بل نكتفي بالله و نتوكل عليه.

]فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى]و يبقى السؤال : اذا كان ربنا هو الذي يرمي فلماذا يتعب عباده و يأمرهم بالجهاد ؟

انما ذلك لكي يفجر مواهب المؤمنين ، و يستخرج كنوز شخصياتهم الكامنة ، و ينمي كفاءة كل واحد منهم لان المواجهة تدفع الفرد نحو بذل قصارى جهده لتجنب الفشل و الهزيمة ، و الطاقة التي يكتشفها المؤمنون في انفسهم في ساحات المعارك ينتفعون بها ايضا في سائر حقولالحياة.

]وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ان الله سميع عليم]يسمع عن قرب ما يجري في الساحة من الحوادث ، و يعلم خلفياتها . لذلك حين يختبر المؤمنين بالحرب ثم يحكم عليهم لا يحكم غيابيا أو عبثا - سبحانه - بل بسمع و علم ، و باحاطة واسعة و مباشرة للحوادث.

الوهن و الانتصار:

[18]كما يسدد ربنا رمية المؤمنين فأنه يوهن كيد الكافرين ، و ذلك بالقاء الرعب في نفوسهم حتى لا ينفذ كل واحد كل المهام الموكلة به ، فتفشل الخطة الموضوعة عندهم لمحاربة المسلمين ، و تنهار ارادتهم و تنهزم نفوسهم.

]ذلكم[

أي ان هذه الحقيقة التي يجب ان نؤمن بها و نعترف بها.

]وان الله موهن كيد الكافرين[

من هنا كان علينا ألا نخشى خطط العدو ، ولا نستهين بقدراتنا ، نثق بها و بأن الله يسددها ، ولكن دون ان ندخر قدرة كامنة في انفسها إلا و نفجرها و نوجهها للمعركة.

[19]و يخاطب ربنا الكفار و يذكرهم بالفتح الذي اعطاه للمؤمنين عليهم و يقول : هذا الفتح كان بسبب اختيار الكفار للحرب و مبادرتهم للقتال و كأنهم هم الذين طلبوه.

[ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح]

وقيل ان بعض المشركين طلبوا من الله في يوم بدر ان ينصر من كان دينه احب اليه سبحانه فاستجاب دعاءهم و نصر المسلمين.

[وان تنتهوا فهو خير لكم]

أي ان تتركوا القتال لان الحرب التي سوف تنتهي بهزيمتكم لا خير فيها.

[وان تعودوا]

للحرب و القتال.

[نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وان الله مع المؤمنين]

الاستجابة لله : حياة
هدى من الآيات
استمرارا لحديث الايات السابقة التي بينت ضرورة العمل و التوكل . يبين لنا هذا الدرس أهم شروط الانتصار وهو الطاعة الواعية للقيادة الرشيدة ، فأمر القرآن بضرورة الطاعة لله و للرسول و عدم ترك

الرسول بوعي و صدق و سبق تصميم ، و الوعي من عمل الانسان فعلى المؤمنين ان ينتفعوا بعقولهم فيسمعوا حقيقة كلام الرسول ، ولا يكونوا كالمنافقين الذين يسمعون في الظاهر فقط ذلك لان شر الاحياء التي تمشي على الارض هم البشر الذين لا ينتفعون بأدوات العلم التي وهبها الله لهم ، ولانهم لم يكن فيهم خير لذلك تركهم الله وفي هذهالحالة لو هداهم الله لم يستجيبوا لهداه.

و الرسول يدعو الناس الى الحياة و عليهم الاستجابة له ظاهرا واقعا لان الله يحول بين المرء و قلبه ، فيعلم ما ينويه حتى قبل ان يستقر رأيه عليه ، ثم يحشر الناس جميعا اليه فيجازيهم بما عملوا.

بينات من الآيات

طاعة القيادة:

[20]مخالفة القيادة الرسالية بوعي و اصرار من كبائر الذنوب ، و من ابرز عوامل الهزيمة ، و الطاعة الواعية للرسول هي قمة الايمان و التسليم لله و للرسالة.

]يا ايها الذين ءامنوا اطيعوا الله و رسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون]أي في حالة سماع الآيات و معرفة صدق الرسالة و بلاغ واجبات الدين للانسان فان مخالفة الرسول من أشد المحرمات ، بل هو فسوق و كفر.

[21]ولكن هل يقدر احد تبرير مخالفته للرسول بعدم السماع الواعي ؟ كلا.

لان الله تعالى قد زود البشر بأدوات الوعي ، فعليه ان يستفيد منها و يستخدمها في توعية ذاته و تثقيف نفسه.

]ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون[

أي لا تكونوا مثل المنافقين تكتفون بظاهر الاستماع دون التعمق في واقع الوعي.

شر الدواب عند الله:

[22]و السماع الحقيقي هو التفكر و الانتفاع بالعقل ، وان شر الدواب التي تتحرك على الارض هم الذين زودهم الله بنور العقل فلم يستفيدوا منه ، فاصبحوا أشر من الانعام التي لا تملك عقلا.

]ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون]انهم يملكون السمع و الالسنة و لكنهم لا ينتفعون بهما في الخير ، فهم شر عملا و اضل سبيلا من الدابة التي لم ينعم عليها البارىء بالسمع و اللسان.

[23]حين تكون الفطرة البشرية سليمة تنفعها دعوة الحق ، لانها كماء المطر يهبط على أرض صالحة مباركة . أما اذا مسخت الفطرة ، و حجبت الشهوات و الاحقاد و هج البصيرة فان الدعوة ليست لا تنفع فقط ، بل تزيد الفرد كفرا و جحودا.

لذلك يقول ربنا سبحانه:

]ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم [

الخير هو ذلك الاستعداد الفطري الذي وهبه الله للبشر حين زوده بالسمع و البصر و الفؤاد ، و ألهمه فجوره و تقواه ولكن لم يبق في هؤلاء الذين غدوا أضل من الدواب ذلك الخير بسوء اعمالهم . لذلك لا يسمعهم الله ، ولا يوفر لهم فرص الهداية . اذ انه لو اسمعهم الان و في وقت افتقادهم حالة الاستعداد للآستجابة اذا لتولوا عن الرسالة ظاهرا و باطنا.

]ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون[

رسالة الله دعوة الى الحياة:

[24]ما هي الحياة التي نعشقها و نسعى وراء استمرارها أو ليست هي القدرة و النشاط و تسخير الطبيعة فلماذا - اذا - نختار الموت في بعض الاحيان على الحياة .. نختار الضلالة على الهداية ، و الجهل على العلم ، و التخلف و الكسل على التقدم و العمل .. او ليستالهداية و العلم يجعلانا نحيط بالاشياء و نسخرها .. أو ليس العمل و الحركة أبرز مظاهر الحياة و فوائدها ؟!

ان رسالة الله هي دعوة صادقة الى الحياة بما فيها من علم و عمل ، من هدى وحركة ، ومن تسخير الطبيعة لصالح البشر و القرآن يذكرنا بان الاستجابة لهذه الرسالة تتناسب و فطرة البشر و اعمق مشاعر المحبة للحياة.

]يا ايها الذين ءامنوا استجيبوا لله و للرسول اذ دعاكم لما يحييكم]ليس المهم ان تعيش سبعين عاما بل ان تعيش حيا بالعلم و الحرية و النشاط . ان المؤمن المتحرر من قيود الشهوات و الثائر ضد اغلال المجتمع و الذي يسخر الطبيعة لصالحه و صالح الناس بالعلم و القدرة انه يعيش كل يوم عاما ، اما الكافر الذي يصبح جزء من الطبيعة ومن النظام الحاكم عليها ، و يستسلم للآخرين فهو ميت ، ولو نبض قلبه بالدم.

و الله يدعونا الى الحياة الحقيقية في الدنيا التي تستمر الى الحيوان في الاخرة حيث تكون الحياة فيها للشهداء و الصديقين.

و قلب البشر يبقى يعشق الحياة و يحب الاستجابة لدعوة الحياة برغم كل الحجب و العقد النفسية . ذلك لان الله يحول بين المرء و قلبه فلا يدع شعلة الهداية تنطفىء في قلب البشر حتى يرى الحق باطلا و الباطل حقا . كلا .. انه يبقى يميز بين الحق و الباطل وعلى اساسهذا التمييز يحاسبه الله غدا حين يحشر الناس جميعا اليه.

]واعلموا ان الله يحول بين المرء و قلبه وانه اليه تحشرون]وجاء في الحديث المأثور عن الصادق)ع: (

"لا يستيقن القلب ان الحق باطل ابدا ولا يستيقن ان الباطل حق ابدا " (١)(١) بحار الانوار/ ج ٧٠ / ص ٥٨/ ح٣٤

اتقوا فتنة المال و الأولاد

هدى من الآيات

طاعة الرسول (ص) و التسليم القلبي لاوامره القيادية تعطي الامة حياة جديدة .. اما التفرق عنه و الاختلاف فانه فتنة تعم نارها كل ابناء المجتمع وان عقاب الله شديد . و علينا ان نتذكر ابدا مدى أهمية القيادة الرسالية حتى لا يدب الى قلوبنا الوهن في اتباعها.

ان كل مكاسب الامة كانت بالقيادة فحين كنا قليلا مستضعفين نخشى الناس ان ياخذونا مثل ايام مكة الم تكن طاعتنا للرسول هي التي و فرت لنا الامن و النصر و الرفاه أو ليس من الواجب الان ان نشكر النعمة بالمزيد من الطاعة ، و الطريق الوحيد للخروج من الخلافات الداخلية هو تقوى الله ، و اتباع مناهجه حيث يعطي الفرد هدى و نورا و قدرة على معرفة الحق و أهله و الباطل و أهله ، كما يسبب غفران الله و المزيد من فضله.

ان تعاليم هذا الدرس تتصل بما سبق و يأتي الحديث في الدروس الاخرى حولتكريس واقع القيادة الرسالية في الامة.

بينات من الآيات

مسؤولية الامة عند الخلافات:

[25]الخلافات الاجتماعية هي من الذنوب التي يلقي كل فريق مسؤوليتها على الاخرين ، لان كل جانب يرى ان عمله انما هو رد فعل للآخرين ، لذلك يكون على الجميع تجنب هذه الذنوب دون انتضار ترك الجانب الاخر لها . ذلك لان بليتها اذا جاءت عمت .. و عموما المعاصيلا يمكن حصر آثارها السلبية في اولئك الذين يرتكبونها ، وهي كالنار اذا اشتعلت في الهشيم تنتشر الى كل مكان و لذلك يقول تعالى:

]و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة[

أي لا تصيب الذين هم في الجهة المباشرة للظلم ، بل تعم الجميع هم و الساكتين عن الظلم ، وكذلك الذين قابلوا الظلم برد فعل غير مناسب ، فمثلا ، اذا تجاوز فريق من المجتمع على فريق آخر فان واجب الفريق المظلوم هو انتضار امر القيادة دون المبادرة بالاعتداء عليهم قصاصا لان ذلك يضعف القيادة و ينشر الفوضى ، و يعم اثرها السلبي بالنتيجة كلا الفريقين ، و ربما تدل الفتنة على الخلافات الاجتماعية اكثر من الامتحانات الفردية لذلك جاء في الحديث المروي عن الزبير بن العوام:

"لقد قرأنا هذه الاية زمانا و ما ارانا من اهلها فاذا نحن المعنيون بها نخالفهاحتى اصابتنا خاصة " (١(

(1)تفسير مجمع البيان - الشيخ الطوسي / ج ٤ / ص ٥٣٤[و اعلموا ان الله شديد العقاب[

و انه يعاقب بشدة اولئك الذين ينفذون الفتنة ، او الذين يقفون ضد انتشارها في الحياة الدنيا بالتخلف و الهزيمة و الفوضى و الاقتتال وفي الاخرة يجزى الساكت الذي لم يأمر بالمعروف و لم ينه عن المنكر و الذي تمرد على القيادة الرشيدة.

العبرة بالماضي ضمان للمستقبل:

[26]من المهم جدا ان يتذكر الانسان بعد الانتصار ايام ضعفه لكي لا ينسى عوامل النصر ، فيتعهدها و يحافظ عليها ليبقى النصر و مكاسبه ، و لينتقل من نصر الى نصر ، ولا يقف في مسيرة الزمان الصاعدة.

]واذكروا إذ انتم قليل مستضعفون في الارض تخافون ان يتخطفكم الناس]انهم كانوا قليلا من الناحية الكمية . مستضعفين من الناحية الاجتماعية و ليست هناك قوة تحميهم من الناحية الامنية حتى انهم كانوا يخشون من اخذهم بسرعة ، ولكن الله بدل كل هذه النواحي.

]فاواكم[

و منح لكم محلا آمنا .. وهو ابرز شروط الرفاه.

]و ايدكم بنصره[

فبدل الضعف قوة.

]و رزقكم من الطيبات[

فبدل الفقر و الاستضعاف الى غنى و رفاه.

]لعلكم تشكرون[

ربكم على هذه النعم ، و معنى الشكر هو المحافظة على تلك العوامل التي غيرت واقعكم الفاسد ومن ابرزها الوحدة و تجنب الفتنة عن طريق طاعة القيادة الرسالية التي تدعوكم ابدا الى ما فيه حياتكم ، كما ذكرت في الآية السابقة .

التجسس لصاح العدو خيانة:

[27]ان التهاون في طاعة الرسول)ص) يعتبر خيانة بعهدهم مع الرسول و بأمانة البيعة التي في اعناقهم.

]يا ايها الذين ءامنوا لا تخونوا الله و الرسول و تخونوا اماناتكم وانتم تعلمون]ومن ابرز مظاهر الخيانة التجسس لصالح العدو ، و نقل المعلومات الهامة الى مناهضي الرسالة كما فعل ابو لبابة في عصر الرسول حيث بعثه الرسول الى يهود بني قريضة و قد كانوا خانوا عهدهم مع رسول الله ، فأمرهم الرسول بالنزول على حكم سعد بن معاذ ، فقالوا : أرسل الينا ابا لبابة و كان مناصحا لهم لان عياله و ماله و ولده كانت عندهم ، فبعثه رسول الله فأتاهم فقالوا له : يا ابا لبابة اتنزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار ابو لبابة الى حلقه (انه الذبح فلا تفعلوا) ، فأتاه جبرئيل يعني رسول الله فأخبره بذلك . قال ابولبابة فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت اني خنت الله و رسوله ، فنزلت الآية فيه . فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد و قال و الله لا اذوق طعاما ولا شرابا حتى اموت او يتوب الله علي ، و هكذا بقي على ذلك سبعة ايام حتى تاب الله عليه فحللهرسول الله . (١(

(1)المصدر

[28]ان ابرز اسباب الخيانة بالدولة الاسلامية و بالقيادة الرشيدة هو حسب المال و الولد كما حدث لابي لبابة في القصة الانفة الذكر ، و لذلك يحذر ربنا من عاملي الفساد عند البشر المال و البنون و يقول :

]و اعلموا انما اموالكم و اولادكم فتنة وان الله عنده اجر عظيم]و الفتنة هي كل ظاهرة يمتحن بها البشر ، ولكن اذا تجاوز الفرد عقبة الفتنة ، فان الله يعوضه عما خسره في لحظات الفتنة و يزيده عليه كثيرا.

التقوى بصيرة و الكفر ضلال و عذاب

هدى من الآيات

بعد الحديث عن ضرورة الاستجابة للرسول و الاعتصام بحبله من اجل الوحدة و تجنب الفتنة ، بين لنا القرآن ان التقوى تعطي البصيرة الاجتماعية التي يفرق بها المؤمن بين الحق و الباطل ، و الصالح عن الطالح . كما يكفر الله بالتقوى السيئات ، و يزيل رواسبها ، و يزيد من نعمه على المتقين.

ومثل ظاهر لمنافع التقوى . ان الذين كفروا مكروا بالرسول ليخرجوه أو ليقتلوه و لكن الله دفع مكرهم و كان من مكرهم الاشاعات الباطلة التي اذاعوها بين الناس لكي يمنعوا الناس عن الاستجابة للرسول ، او التحريض الكاذب لكلام الرسول ، و استعجالهم العذاب لو كانالرسول محقا . بينما العذاب يأتي حين يتوغل البشر في الكفر ، ولا يشعر بالندم و التوبة ، ولا يستغفر ربه منها ، و لكن العذاب بالتالي سيصيبهم بسبب صدهم عن المسجد الحرام ، و اعتبار انفسهم اصحابه بينما اصحابه هم المتقون فقط .

بينات من الآيات

آثار التقوى:

[29]بين العقل و الهوى يعيش قلب البشر ، بين الظلمات و الجهل و الفوضى ، و بين النور و الهدى و الالتزام ، و بقدر ما يحجب الهوى العقل فان مقاومة الهوى تزيد القلب نورا و هدى . انك حين تتحكم في

علاقاتك و عواطفك و حساسياتك فهل تستطيع ان تميز الفرد الصالح عن الطالح ؟ ! و اذا كانت الشهوات و الحالات النفسية المتناقضة كالنشاط و الكسل و الامل و اليأس تحكم فيك ايضا ، فهل تتمكن من معرفة العمل الصالح ؟

بلى حين تتعهد بتطبيق برامج الله ، و مقاومة ضغوط العواطف و الشهوات و الحالات النفسية فان عقلك يكمل ، و تصبح قادرا على تمييز الحق عن الباطل ، و يحصل لديك فرقان و ميزان.

]يا أيها الذين ءامنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا]التقوى هي الالتزام برسالة الله ، و تحسس المسؤولية تجاهها و هي تعطينا الفرقان الذي يميز لنا الصواب عن الخطأ ، و الصالح عن المفسد ، و الهدى عن الشبهات ، و الجادة عن المزالق.

كما وان للتقوى اثرا رجعيا فيما مضى من عمل البشر حيث يكفر الله السيئات ، و يسترها حتى لا تظهر اثارها السلبية ، بل و يغفر الذنوب و يمحي آثارها عن النفس ، ذلك لان للذنب اثرا سلبيا على الحياة ، واثرا سلبيا على نفسية مرتكبه في شكل عادة سيئة و موقف خاطىء.

]و يكفر عنكم سيائتكم و يغفر لكم و الله ذو الفضل العظيم]و بفضله العظيم يسبغ النعم الكبيرة و الالاء العظيمة على المتقين في الحياة الدنيا وفي الاخرة.

السبيل الى تأييد الله:

[30]ان تقوى الله ، و الاستجابة للرسول ، و تجنب الفتن الاجتماعية كل ذلك شروط تمهيدية للنصر على الاعداء ، وان ربنا يتفضل على المؤمنين بالتأييد بعد ان يوجدوا في واقعهم هذه الشروط ، و دليل تأييد الله نصره المؤمنين في بدر الذي سبق الحديث عنه ، وهذا دليل آخر يبينه الله حين خطط الكفار لألقاء القبض على الرسول (ص) أو اعدامه أو لا اقل نفيه ، و لكن مكر الله و خططه الحكيمة سبقتهم و افشل خططهم الماكرة ، حيث امر الله رسوله بالهجرة الى المدينة . فلما جاء الكفار و جدوا عليا (ع) قد افتداه بنفسه و بات مكان قائده الرسول (ص. (

]واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك و يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين]اذا نفذ المؤمنون خطط ربهم الرشيدة فهم الاعلون لان أهم بنود الخطة الرشيدة في الصراعات الاجتماعية هو النشاط و التعاون و الاستعداد للتضحية ، و الذوبان في بوتقة الخطة بعيدا عن الذاتيات و المحاور الخلافية . و كل هذه البنود توفرها التربية الايمانية ، كماان الايمان يعطيك الفرقان و الرؤية الصافية الى الاحداث ، و يزكي قلبك عن الاهواء و الشهوات و ردود الفعل التي تغشي رؤية المرء و تدفعه الى اتخاذ مواقف خاطئة و هكذا ، و بفضل الله يصبح مكر المؤمنين انفذ من مكر اعدائهم.

[31]و كان من مكر الكفار الفاشل و خطتهم الغيبية ، انهم بثوا اشاعات ساذجة فقالوا : ان آيات القرآن ليست بتلك الدرجة من البلاغة و العلم ، فلقد سمعناها و وعيناها ولو شئنا لقلنا مثلها . ولكننا أناس تقدميون ، وهذه افكار رجعية يتشبثبها الأولون المعتقدون بالخرافات.

]واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين][٣٢] وكان من خطط حربهم الاعلامية تظاهرهم بالتحدي و المباهلة فقالوا : يا رب لو كان كلام الرسول حقا فعجل بالعذاب علينا كان تمطر السماء حجارة.

]واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم]موعد العذاب:

[33]ولكن هل الله يبعث العذاب حسب طلب الناس ، ام وفق الحكمة البالغة التي عنده ؟ انه لا يعذب قوما حتى يستنفذوا كل فرص الهداية عندهم ، و حتى لا يبقى فيهم اثر من الايمان . و دليل ذلك انه ما دام الفرد يشعر بالندامة بعد الذنب و يستغفر الله ، فانه لا يعذب حتى ولو طلبه من ربه . و عدم نزول العذاب عليه ليس دليلا على صحة كل اعماله او مجمل طريقته كلا بل هو دليل على وجود جوانب

ايمانية في واقعه ، هي التي تمنع العذاب عنه.

]وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم [

تدعوهم الى الهدى و ربما يستمعون اليك ، و وجود نبي الرحمة و سيد الخلق كما وجود الصالحين في الامة سوف يمنع عنها العذاب لحين خروج اولئك عنهم.

]وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون[

وفي آيات قرآنية آخرى دلالة على ان عذاب الله انما يهبط من السماء بعد فراغقلوب المجتمع تماما عن الايمان ، وبعد خروج او انعدام الصالحين فيه تماما.

لقد كان هذا جانبا من مكر الكفار الذي انتهى الى انتشار الرسالة اكثر فأكثــر و الحمد لله رب العالمين.

انفاق الكفار : حسرة و هزيمة

هدى من الآيات

في سياق الحديث القرآني حول مكر الكفار و اشاعاتهم الباطلة التي بينها الدرس السابق . يذكرنا الله ببعض اعمال الكفار التي تكشف من جهة عن زيف ادعاءاتهم ، وتبين من جهة ثانية فلسفة النضال ضدهم . ان عذاب الله قد يأتي بطريق غيبي كصاعقة عاد و ثمود او على ايدي المؤمنين ، و القرآن يبين ان الله سوف يعذب الكفار لانهم يمنعون النــاس عــن المسجد الحرام دون ان يكون لهم الحق لان المسجد الحرام انما هو مقام عباده ، ويجب ان يكون المشرف عليه اكثر الناس عبادة و عبدوية و تقوى لله ، وليس هؤلاء الجهلة الذين اتخذوا صلاتهم عند البيت هزوا . فبدل الصلاة و الضراعة اخذوا يصفرون و يصفقون كفرا بالله و برسالاته ، اما اموالهم فانهم ينفقونها ليس في سبيل الاصلاح و نصرة المظلومين و اغاثة المحرومين ، بل للصد عن سبيل الله ، وسوف يكون هذا الانفاق حسرة عليهم حين يحشرون الى جهنم ،و فلسفة هذا الصراع القائم بين الناس و الذي يجسده انفاق المشركين اموالهمللصد عن سبيل الله انها امتحان الناس ، و تمييز صفوف الطيبين عن الخبثاء . ليجعل الله جزاء الخبثاء جهنم و ساءت مستقرا.

بينات من الآيات

سنة العذاب:

[34]ربنا الحكيــم لا يعذب احدا حين يشتهي العذاب او يتحدى قدرة الله او رسالته ، بل عندما يستوجب العقاب بعمل قبيح مثل صد الناس عن المسجد الحرام .وما هو المســجد الحــرام ؟ انه بقعة خصها الله لنفسه لتكون دار سلام و أمن و حرية ، يقيم الناس فيها شعائرهم الدينية ، و يعبرون عن مشاعرهم الحقيقية ولكن حين يأتي فريق من المتجبرين و يفرضون قيادتهم على المسجد الحرام و يمنعون المؤمنين عن إقامة الشعائر فيه فسوف يستحقون العذاب لانهم ليسوا بقيادة المسجد و ولاته .. ان اولياء المسجد هم اولياء الله . لان المساجدلله ولا يجوز ان يرفع عليها الا راية الله و الحق و الذين بيدهم راية الحق هم المتقون ، و حين تطهر مساجد الله عن الدعوة لغير الله وعن الاصنام الحجدرية و عن تبليغ رسالة الشيطان و الدعاية لسلطان متجبرا او حزب ملحد او سلطة قاهرة ، فان الناس سيجدون مصابيحيهتدون بها ، و محاور قوة يلتفون حولها ، و بالتالي مراكز قدرة يلتجؤون اليها في مقاومة شياطن الجن و الانس.

]وما لهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا اولياءه ان اولياءه الا المتقون ولكن اكثرهم لا يعلمون [ولا يعرفون فلسفة المساجد و دورها الحاسم في هداية الجماهير و تأييدهم ضد الظالمين.

[35]اما هؤلاء الذين اتخذوا من المساجد مراكز لهو و استهزاء بالقيم فكانت صلاتهم عند البيت الحرام (وهو اقدس مكان على وجه الارض) التصفيرو التصفيق.

]وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء و تصدية[

اي صفيــرا و تصفيقا و عذاب الله الذي انزل عليهم بيد المؤمنين كان بهذا الســبب.

]فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون[

و جاء في الحديث عن ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون و يصفقون ، و روي ان النبي (ص) كان اذا صلى في المسجد الحرام قام رجلان من بني عبد الدار عن يمينه فيصفران ورجلان عن يساره يصفقان بأيديهم فيخلطان عليه صلاته ، فقتلهم الله جميعا ببدر . ولهم يقول و لبقية بني عبد الدار "فذوقوا العذاب. "

و كلمة اخيرة : ان هذه الاية و التي قبلها تدلان بوضوح ان على السلطات التي تصد عن المساجد ، و تعتدي على حرية الناس فيها ، و تتجاوز على حرماتها ، و تريد تحويل المساجد الى مراكز للفساد و المنكر يقام فيها الشعائر دون لبابها انها سلطات جائرة يجب مقاومتهاحتى يعذبها الله بأيدي المؤمنين.

[36]كان ذلك صورة عن الممارسة السياسية لهذه الفئة . اما الممارسة الاقتصادية فانها خاطئة ايضا ، اذ انها تخدم اهداف الطغاة و تصد عن سبيل الله ، و عن اقامة العدل و اشاعة الرفاه.

]ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله]ينفقونها من اجل طبع الكتب الضالة ، و تمويل الصحف المسبحة للطاغوت ، و اشباع ادعياء العلم و الدين من خدم السلطات المتجبرة ، او ينفقونها لتمويلالحروب و تدعيم كيان اجهزة المخابرات.

بيد ان هذا الانفاق سيكون حسرة عليهم اذ لا ينفعهم شيئا ، بل يضرهم كثيرا و سينتهون الى جهنم جميعا.

]فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون و الذين كفروا الى جهنم يحشرون [37][ولكن كيف يسبب انفاق هؤلاء للصــد عن سبيل الله غلبة المؤمنين عليهم ؟

يجيب القرآن على هذا السؤال:

اولا : لأن هذا المال يفصل الطيب عن الخبيث في واقع المجتمع ، فالطيب لا تخدعه الثروة فيزداد طيبا . بينمــا الخبــيث الذي كان يتظاهر بالايمان يظهر امره و يكتشف عند المجتمع.

ثانيا : ان العناصر الخبيثة يجد بعضها بعضا فيتكتلون ، فحين تثور الجماهير ضدهم لا ينقذون انفسهم منهم جميعا.

[ليميز الله الخبيث من الطيب و يجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم اولئك هم الخاسرون]

كيف نواجه الكفار

هدى من الآيات

لقد ابلغنا الدرس السابق عن ممارسات الكفار السياسية الاقتصادية الخاطئة ، و التي تدل على كذب اقوالهم التبريرية التي تشبثوا بها لكفرهم ، ثم ياتي هذا الدرس ليبين لنا الموقف منهم المتمثل في تهديدهم اولا : بان سنة الله مضت في الاولين ، على ان الكفر لا يدوم ، وعليهم المبادرة الى التوبة ، و وضع حد لممارساتهم الخاطئة حتى يغفر الله ماقد سلف منهم ، و بعد هذا التهديد يأتي التهديد بالقتال تجنبا للفتنة و الفساد في الارض و لأقامة حكم الله فقط ، فاذا استسلموا بالقتال فسوف يعلم الله هل هم يحسنون صنعا ام ينافقون ، اما اذا استمروا فان المسلمين يستمرون بدورهم في الحرب اعتمادا على مولاهم الله نعم المولى و نعم النصير.

بينات من الآيات

سنة الانتصار:

[38]ليس من العقل ان يختم على القديم بطابع الرجعية و الاسطورة و الخرافة ،

كما قال الجاهليون آنفا ، ففي القديم دروس و عبر و قوانين اجتماعية ، علينا الانتفاع بها لحاضرنا و منها سنة الله في الانتصار للحق و سحق الكفر والضلال ، و على الكفار ان يراجعوا التأريخ ليفهموا هذه السنة .

]قل للذيــن كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنت الاولين]و ســنة اللــه لا تتحــول " فلــن تجــد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا " (٤٣/ فاطر. (

الحكمة من القتال:

[39]و الحرب الاسلامية لا تهدف تسلط فريق مكان فريق آخر ، بل اقامة حكم الله و منع الفتنة .. فما هي الفتنة ؟ هل هي الشرك بالله ، ام هي الفساد في الارض و ظلم الناس بعضهم لبعض ؟ ام هي تسلط فريق من الناس باسم او بآخر على رقاب الناس ، و استعبادهم و استثمارهم و فرض ثقافة معينة عليهم ؟

يبدو ان الفتنة في لغة القرآن هي التسلط اللامشروع ، كما ان الدين هو السلطة الشرعية المستمدة من الايمان بالله و بالحق ، و بحرية الانسان ، وابرز معاني الشرك هذا التسلط اللامشروع او الخضوع لمثل هذا التسلط.

]وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير]يعلم هل هم صادقون ام منافقون ، ولا يجوز الاستمرار في قتالهم بحجة انهم لا يزالون كفارا في الواقع برغم ايمانهم او استسلامهم الظاهر.

[40]اما اذا تولوا ، و استمروا في القتال و اشاعة الفساد ، فعليكم بالاستمرار ايضا من دون حزن او وهن . لانكم بالتالي منتصرون عليهم ، ولان الله مولاكم و قائدكم ، و أوامره و مناهجه و تعاليــمه خير لكم ، كما انه ينصركم بقوته التي لا تقهر.

[وان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى و نعم النصير]

الخمس و قضاء المواجهة

هدى من الآيات

الاعداد للحرب اهم من القتال في الساحة ، و المال يقوم بدور فعال في الاعداد ، و تعرض احد الدروس السابقة الى دور المال السلبي حين ينفقه الذين كفروا للصد عن سبيل الله ، اما في هذا الدرس فيفرض علينا القرآن قدرا مقدورا من المال من اجل القضية و ذلك هو خمسما يغنمه و يستفيده المرء ، ولأهمية الانفاق و للصعوبات التي انزلت يوم التقى الجمعان ، حين نصر الله المؤمنين بفضل تلك الرسالة ، بالرغم من بعض المفارقات مثل : انكم كنتم في اسفل الوادي وهم في اعلاه .. وانكم مختلفون في مواعيدكم ، ولكن الله قدر ان يتم حجتهعلى خلقه ، يبعث برسالاته اليهم بينه و حجة ، ولولا تقدير الله ذلك الذي اراد ان يحطم السد الذي صنعه الكفار امام انتشار الرسالة ، اذا لما وقعت الحرب اذ ان ربنا قلل كل فريق في عين الفريق الثاني حتى استهان كل بصاحبه فتحاربا فانتصرت الرسالة.

بينات من الآيات

الكيان المالي للاسلام:

[41]من دون وجود كيان مالي للمجتمع الاسلامي يفقد المجتمع توازنه و قدرته على الاستقامة و التصدي للأعداء ، و الخمس واحد من المصادر المالية ، وحين نقول المجتمع المسلم نقصد بذلك الكيان الذي يقوم في حالة غياب الدولة ، او ذلك الكيان الذي يفرض نفسه على الدولة فيحدد شكلها و مسيرتها ، كما تفرض الاحزاب السياسية و جماعات الضغط في الديمقراطيات الغربية شكلا معينا على الدول ، وكما تفرض التيارات على الدول ، بالرغم من عدم الاعتراف بها رسميا .

وهكذا فالمجتمع المسلم يمتلك كيانا مستقلا قائما بذاته اقوى من الدولة . حتى وإن كانت اسلامية ، هذا الكيان المستقل يعتمد على الشعائر الدينية كالجماعة و الجمعة و الحج في تقوية صلات افرادها مع بعضهم ، و يعتمد على الامر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و الدعوة و ارشاد الجاهل في تحصنه امام التيارات الدخيلة ، و يعتمد فريضة العلم و ضرورة نشره ، و انفصال علماء الدين عن تبعية السلطات في الحقل الثقافي ، و يعتمد على الخمس و الزكاة و الصدقات في الجانب الاقتصادي.

و بالرغم من ان الخمس يدفـع للامام الذي ينوب مناب الرسول (ص) في قيادة الامة ، ولكن لا يعني ذلك ابدا انه يدفع للدولة الا اذا كان رئيس الدولة هو الامام ذاته . هنالك يدفع اليه بدافع الايمان به ، و انه يمثل الكيان الاجتماعي لا بصفته رئيس الدولة كالذي يحدث الان - مثلا - في الدولة الاسلامية القائمة في ايران حيث يعتبر القائد الاعلى لها هو امام الامة السيد الخميني (دام ظله (بيد انه لا يستلم الحقوق الشرعية كالخمس و الزكاة و الصدقات و النذور بصفته رئيسا للدولة ، بل بصفته قائدا للأمة .. وانما يدفع الخمس من يشعر بايمان واقعي بضرورته و وجوبه.

موارد الخمس:

في اي شيء يفرض الخمس ؟

ظاهر الآية ان الخمس مفروض على الغنائم ، و بالرغم من ان الكلمة تطلق اليوم على غنائم دار الحرب بيد ان المعنى اللغوي لكلمة الغنيمة لا يختص ما يحصل عليه المحاربون في ساحة القتال . وفي عصر نزول القرآن لم تكن هذه الكلمة قد اصبحت خاصة بهذا المعنى بالذات لذلك قال الراغب : الغنم (بفتحتين) معروف قال : " ومن البقر و الغنم ما حرمنا عليهم شحومها " و الغنم (بالضم فالسكون) إصابته و الظفر به ، ثم استعمل في كل مظفور به من جهة الاعداء و غيرهم ، قال : " و اعلموا انما غنمتم من شيء " "فكلوا مما غنمتم طيبا " المغنم ما يغنم ، و جمعه مغانم قال : " فعند الله مغانم كثيرة " (١. (

من هنا وجب الخمس على كل ما يكتسبه و يغنمه الفرد ، وهو ضرورة دفاعية ، و بهذه المناسبة ذكر القرآن هذه الفريضة ضمن آيات القتال ، كما ذكر ربنا الانفاق في سبيل الله و الجهاد بالمال ضمن الحديث عن الحرب و الجهاد بالنفس .

]واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه و للرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل]وجوه صرف الخمس:

حينما ينسب شيء الى الله فان معناه تحرره عن امتلاك الناس . اما امتلاك الرسول وذوي قرباه فلا يعني امتلاكهم للمال بصفتهم اشخاصا . بل لانهم يمثلون(١ (تفسير الميزان - العلامة الطباطبائي / ج ١٠ / ٨٩قيادة المجتمع ، اما اليتيم فهو الذي مات ابوه ولم يبلغ الحلم ، و المسكين المحتاج الذي اسكنه الفقر عن ضرورات حياته ، اما ابن السبيل فهو عابر السبيل الذي انقطعت به الطريق فلابد من توفير ما يبلغه محله.

و جاء في الحديث الماثور عن العبد الصالح (ع) انه قال:

الخمس في خمسة اشياء : من الغنائم (يعني غنائم دار الحرب حسب المصطلح في ذلك العصر المتأخر) و الغوص ومن الكنوز ومن المعادن و الملاحة يؤخذ من كل هذه الصنوف الخمسة فيجعل لمن جعل الله له ، ويقسم اربعة اخماس بين من قاتل عليه و ولي ذلك.

و يقسم بينهم الخمس الخامس على ستة اسهم . سهم لله تعالى ، وسهم لرسوله (ص) و سهم لذي القربى ، و سهم لليتامى ، و سهم للمساكين ، و سهم لابناء السبل ، فسهم الله تعالى و رسوله لاولي الامر من بعد رسول الله وراثة فله ثلاثة اسهم . سهمان وراثة ، وسهم مقسوم له من الله ، فله نصف الخمس كلا ، و نصف الخمس الثاني يقسم بينهم على الكتاب و السنة ما يستغنون به في سنتهم . فان فضل منه شيء فهو للوالي ، وان عجز او نقص عن استغنائهم كان على الوالي ان ينفق عنهم ما عنده ما يستغنون به ، وانما صار عليه ان يمونهم لان له ما فضل عنهم ، وانما جعل الله هذا الخمس خاصة لهم دون مساكين الناس و ابناء السبيل عوضا لهم عن صدقات الناس تنزيها من الله لقرابتهم من رسول الله ، و كرامة من الله لهم عن اوساخ الناس ، فجعل لهم خاصة من عنده و ما ينقيهم به ان يعيدهم في موضع الذل و المسكنة ، ولا بأس بصدقة بعضهم على بعض.

جاء في كتاب الدر المنثور عن ابن المنذر عن عبد الرحمن بن ابي ليلى قال سألت عليا (ع) فقلت يا امير المؤمنين اخبرني كيف صنع ابو بكر و عمر (رض) في الخمس نصيبكم ؟ فقال (ع: (

اما ابو بكر (رض) فلم يكن في ولايته اخماس واما عمر (رض) فلم يزل يدفعه الي في كل خمس السوس و جند نيسابور ، فقال وانا عنده : هذا نصيبكم اهل البيت من الخمس ، وقد اهل ببعض المسلمين واشتدت حاجتهم فقلت : نعم ، فوثب العباس بن عبد المطلب فقال : لا تعرض فيالذي لنا ، فقلت : ألسنا من ارفق المسلمين و شفع امير المؤمنين ، فقبضه ، فوالله ما قبضناه ولا قدرت عليه في ولاية عثمان (رض) (١. (

]ان كنتم امنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان]أي ادفعوا الخمس ان كنتم آمنتم بالله و برسالاته التي انزلت على عبده و رسوله محمد (ص) يوم تميز الطيب عن الخبيث بالحرب.

]يوم التقى الجمعان[

جمع الايمان و جمع الكفر.

]و الله على كل شيء قدير[

قادر لنصرة المؤمنين برسالته على اعدائهم . و حين تنتصر الرسالة فذلك يكون دليلا واضحا على صدق برامجها و صوابها ، وكل فكرة يجب ان تقاس بالعقل و بالمكاسب الواقعية التي تحققها.

القضاء و القدر:

[42]بالرغم من ان المؤمنين كانوا في مواقع أسوأ من موقع اعدائهم اذا كانوا(١) تفسير الميزان / ج ١٠ / ص 105 - 103

أسفل الوادي بينما أعداؤهم في اعلاه.

]اذ انتم بالعدوة الدنيا و هم بالعدوة القصوى و الركب اسفل منكم]العدوة شفير الوادي - و للوادي شفيران ادنى و اقصى . بينما العير الذي كان يحمل تجارة قريش كان اسفل من الجمعين ، حيث كان على بعد ثلاثة ايام من ارض المعركة اي على شاطىء البحر الاحمر.

لقد كانت الحرب مفاجئة بالنسبة الى المسلمين في بدر ، حيث كان الهدف الاصلي للحملة فك الحصار الذي فرضه الكفار على المسلمين ، ولو ان المسلمين كانوا يعلمون انه بدل القافلة المحملة بانواع السلع الضرورية لمجتمع محاصر سوف يلقون الف محارب مجهز وهم زهاء ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا لم يكتمل تجهيزهم للمعركة . لو كانوا يعلمون ذلك اذا تخلفوا عن المعركة.

]ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد [

ولكن الله هو الذي قدر الحرب لحكمة بالغة.

]ولكن ليقضي الله امرا كان مفعولا [

بين القضاء و القدر فرق هو ان القدر : هو ما يسنه الله للكون من انظمة ، بينما القضاء هو تنفيذ تلك السنن او تدخل مباشر للغيب لتغيير مجرى الاقدار . وكانت هزيمة الكفار من قضاء الله في تلك الفترة ، بينما قدر الله كان يقضي بهذه الهزيمة بالتالي.

]ليهلك من هلك عن بينه و يحيى من حيى عن بينة[

بعد الانتصار الساحق للامة على اعدائها في حرب بدر ، تحقق انتشار الرسالةبسببين :

الاول : ان الرسالة قد حققت صدق نبوءتها.

الثاني :ان عقبة الخوف و الدعايات الباطلة و التسلط الجاهلي قد ارتفعت عن طريق الرسالة ، فالان بامكان الجميع ان يستجيب للرسالة من دون عقبة . فاذا آمن فانما آمن بعقله ، واذا كفر فسوف يلقى حقه بعد وضوح الحجة عليه.

]وان الله لسميع عليم[

تدبير الله:

[43]وكان من تدبير ربنا الحكيم انه ارى رسوله (ص) العدو قليلا تشجيعا على محاربته ، بينما قلل المسلمين في أعين العدو حتى استهانوا بقوة الايمان و سلامة البرامج العسكرية و حكمة القيادة الرشيدة التي يملكونها.

]اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو اراكهم كثيرا لفشلتم]اي اذا ذهب ما عندكم من عزيمة و همة عندئذ يشتد الخلاف بينكم شأنه شأن كل مجتمع يفقد اندفاعه نحو هدف مشترك و مقدس.

]و لتنازعتم في الامر ولكن الله سلم[

و اعطى للمؤمنين السلامة و الأمن.

]انه عليم بذات الصدور[

انه محيط بما لا يزال في قلوب المؤمنين من عوامل الخوف و الهلع.

[44]وحتى في بداية المعركة ارى الله المسلمين جمع الكفار قليلا بالرغم منكثرتهم الظاهرية ، فاستعد المسلمون للنزال بقلوب شجاعة . اما العدو فقد اراه الله المسلمين قلة ، ولم يستعد للمواجهة الحاسمة او لم يستعد خوفا بل استهانوا بهم ، كل ذلك لكي تتم المعركة بهزيمة العدو . فانتشار الرسالة.

]واذ يريكموهم اذ التقيتم في اعينكم قليلا[

بالرغم من انهم زهاء الف.

]و يقللكم في اعينهم ليقضي الله امرا كان مفعولا والى الله ترجع الامور [فهو الذي يقضي فيها بحكمة الرشيد بالرغم من السنن و الاقدار الظاهرة إلا ان هناك عوامل خفية بعضها نفسية و بعضها طبيعية تلعب دورا حاسما في اللحظات الهامة . مثلا في الحملة الامريكية على ايران بعد انتصار المؤمنين كانت هناك زوبعة رملية غير محتسبة في منطقةالحادث افشلت الحملة التي اعدت لها اكبر قوة عسكرية في العالم عدة اشهر ، و زعمت انها غالبة ارادة الله - حاشا لله - انه عامل طبيعي يتدخل بطريقة غير منتظرة فيغير مجرى تاريخ كامل .لان نهايات الامور بيد الله مصير الامور و مرجعها هي الارادة الاسمى لربنا الحكيم.

عوامل الانتصار

هدى من الآيات

الله ينصر المؤمنين ولكن الله حكيم لا ينصر الا من وفر في نفسه عوامل الانتصار الظاهرية و الخفية .. وفي هذا الدرس يوصينا الله ببعض تلك العوامل.

اولا : الثبات وعقد العزم على الاستقامة.

ثانيا : ذكر الله كثيرا.

ثالثا : الطاعة التامة لله و للقيادة الرسالية.

رابعا : تجنب الخلافات الجانبية ، لانها تسبب فشل القلب و توانيه و ذهاب الهمة و التطلع عنه.

خامسا : الصبر و تحمل الصعاب لان الله مع الصابرين.

اما عوامل الهزيمة التي يذكرنا الله بها فهي:

اولا : الخروج الى المعركة بطرا مغرورين بالنعم ، غير مفكرين بعواقب الامور . و كذلك الخروج رياء.

ثانيا : ان يكون هدف المعركة خبيثا مثل الصد عن سبيل الله ، و التسلط على رقاب الناس ، غفلة عن ان الله محيط بهم.

ثالثا : الخداع الذاتي ، و الزعم بان كل عمل يصدر منهم فهو صحيح.

رابعا : الغرور بالقوة التي لديهم .

خامسا : الاعتماد على الشيطان و اهوائه.

وهكذا اعتمد الكفار على خداع الشيطان فانهزموا ، اذ ان الشيطان خدعهم و تركهم في ساحة الحرب يواجهون السيوف و الحراب و حدهم و تبرأ منهم و قال : أني اخاف الله رب العالمين.

و فرق بين الغرور و بين التوكل على الله . و المنافقون لا يعرفون هذا الفرق فيزعمون ان الاعتماد على الدين الصحيح و على الله ، كالاعتماد على الخرافات و اقوال الشيطان . كلا .. ان الله عزيز حكيم ، بعزته يكسر شوكة الكفار ، و بحكمته ينصر المؤمنين عليهم.

بينات من الآيات

شروط الانتصار:

[45]اول شروط الانتصار ، هو عقد العزم على الاستقامة و الثبات مهما كلــف الامر . . كما قال الامام علي (ع) لابنه محمد إبن الحنفيه لما اعطاه الراية يوم الجمل : " تزول الجبال ولا تزل . عض على ناجذك . اعر الله جمجمتك . تد في الارضقدمك . ارم ببصرك اقصى القوم و غض بصرك ، واعلم ان النصر من عند

اللهسبحانه " (١(

ولكن العزم على الثبات بحاجة الى تنمية الارادة و شحذ العزم و ذلك عن طريق تحقيق الشرط الثاني للانتصار .. وهو ذكر الله ذكرا كثيرا . لان ذكر الله يوجه المرء الى اوامره الرشيده ، والى وعده و وعيده بالثواب او بالعقاب ، والى الائه التي تشكر ، و رضوانه الذي يرجى و حبه الذي يتطلع المؤمن الى الشهادة من اجله.

]يا ايها الذين ءامنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا و اذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون]الفلاح يأتي بالنتيجة بعد شرطي الثبات عند اللقاء ، و ذكر الله كثيرا.

[46]اما ثالث شروط النصر . فهو الطاعة لله بتنفيذ برامجه و الطاعة للرسول و للقيادة الرسالية التي تحكم بأسم الله من اجل تنفيذ اوامره اليومية.

]و اطيعوا الله و رسوله[

ومن ابرز فوائد الطاعة الوحدة ، ونبذ الخلافات ، ورد كل الخلافات الى حكم الله و رسوله.

]ولا تنازعوا[

ولكن لماذا يجب تجنب النزاع ؟

اولا : لانه يضعف الارادة و يبعث الوهن في النفس.

(1)نهج البلاغة / ص ٥٥ خطبة 11

ثانيا :لانه يذهب بالكرامة و العزة و التطلع ، و بالتالي يدمر كل فريق شخصية الفريق الثاني ، ومن تحطمت شخصيته و هانت نفسه عليه فانه لا يحارب عدوه ، ولا يرى نفسه كفوءا للصراع مع منافسيه.

]فتفشلوا و تذهب ريحكم[

من هنا نعرف ان القيادة التي يعيش المجتمع تحت ضلالها الصراعات ليست بقيادة حقيقية كما عرفنا ان من عوامل النصر غير المنظورة هي اعطاء الثقة و الكرامة للمحاربين ، و عدم الاستهانة بهم ابدا.

اما الشرط الاخر للنصر بعد الطاعة فهو الصبر ، و تحمل الصعاب بانتظار المستقبل المشرق.

]و اصبروا ان الله مع الصابرين[

يؤيد و يسدد خطاهم . و حيث يكون الصبر تكون الاستراتيجية الطويلة الامد ، و الاستمرار في تنفيذ الخطة ، و تحمل الجراح و الجد و النشاط في العمل ، املا في المستقبل ، و ربما هذه المنافع و غيرها بعض ما يعنيه ان يكون الله مع الصابرين.

[47]حين يكون هدف القتال مقدسا ، تخدم الطبيعة و الصدفة المحاربين و يسدد الله خطاهم اما اذا فسدت نية المحارب فقاتل من اجل الفخر و الرغبة في ذكر اسمه في الاندية ، او حارب لاجل اعتقاده بانه اسمى من غيره لما رزقه الله من نعم الحياة.

]ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس]حين يشعر الفرد بالاستغناء و اكتمال حياته المادية ، يأخذه الغرور فيخرج منبيته لاستغلال الاخرين و التسلط عليهم و اثبات قوته و سطوته.

"وجاء في التفاسير عن ابن عباس : لما رأى ابو سفيان انه أحرز عيره ارسل الى قريش ان ارجعوا فقال ابو جهل : و الله لا نرجع حتى نرد بدرا (و كانت بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام) فنقيم بها ثلاثا وتفرق علينا القيان و تسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ابدا ، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا وناحت عليهم النوائح.

ان هذه الواقعة التاريخية واحدة من مصاديق الحرب التي تشعلها نزوة شخص واحد يريد ان يصبح من ورائها بطلا معروفا كما اراد هتلر ذلك ، وكما سعى وراءها صدام في العراق فمن اجل ان يصبح بطل القادسية الجديدة ، اشعل نار الحرب فكان هو و نظامه اول المحترقين فيها.

وهناك حرب قذرة اخرى تشعلها مجموعة منظمة تهدف ايقاف توسع الرسالة كالحرب الامبريالية ضد الثورات التحررية . وكما الحروب المنظمة التي قادتها الجاهلية ضد رسالة الاسلام.

]و يصدون عن سبيل الله و الله بما يعملون محيط[

دوافع القتال عند الكفار:

[48]ثلاثة عوامل نفسية تدفع الكفار الى خوض غمار الحرب الطاحنة لهم:

الاول :بسبب سلبيات اعمالهم . فمع كل عمل سيء تنمو شاذه في النفس ، فالظلم البسيط يبسط ضبابا قاتما على القلب وكلما يكبر الظلم يتكثف الضباب فيصبح سحابا ، فسحابا داكنا فمتراكما فحجابا من الظلمات ، يرين على القلب ، و هكذا تتكرس عادة الظلم عند مرتكبه حتيرى الظلم اصلا ثابتا من الحياة بينما

العدالة شذوذا و جريمة . ان العنصريين و الرأسماليين و الشوفينيين يرون المتمردين و الثوار عليهم ، يرونهم خارجين عن العرف و العقل و الصواب ، ذلك لان تراكم سلبيات العمل السيء على قلبهم جعلت الاعمال حسنة في اعينهم.

]واذ زين لهم الشيطان اعمالهم[

الثاني :الغرور ، و الاعتقاد بان قوتهم اكبر من القوى الاخرى ، وربما تنشأ هذه الحالة النفسية من الاعتقاد المضخم بالذات .. لذلك حكي ربنا سبحانه عنهم وقال:

]وقال لا غالب لكم اليوم من الناس [

الثالث : يخيل الى قلب الكفار ان هناك بعض الناس يؤيدونهم و ذلك بسبب بعض المواعيد الفارغة لذلك قال الشيطان:

]واني جار لكم[

ساعة المواجهة!

اما هذه الدوافع النفسية ما هي الا سراب سرعان ما تتكشف حقيقته.

]فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه و قال اني بريء منكم انى ارى ما لا ترون اني اخاف الله و الله شديد العقاب]في ساعة المواجهة الحقيقية يعرف الكفار ان اعمالهم خبيثة و باطلة ، وان كيدهم ضعيف ، وان انصارهم المزعومين قد تبخروا و تلاشوا.

الشيطان تولى يوم المواجهة ، وتبرأ حتى من اقواله و مزاعمه السابقة ، وخشي من الله ، و خاف العاقبة السوء التي تنتظر فريقه.

واذا حدث هذا في بدر بصورة مجسدة كما جاء في حديث مأثور ، فان ذلك انما هو مثل ظاهر لواقع الكفار مع من يخدعهم من شياطين الجن و الانس ، والنكوس على العقب هو العودة قهقري.

وقد يكون الشيطان الغاوي اولئك الضعفاء المنهزمون نفسيا ، الذين يتزلفون الى قادة العدو للحصول على المكاسب ، وعادة ما يكون هؤلاء اشد تطرفا من غيرهم في طرح الشعارات و التهديدات ، ولكنهم اول المنهزمين الذين يبررون هزيمتهم بمعرفتهم بامور لا يراها الاخرون.

[49] في الجانب الاسلامي توجد ايضا عناصر ضعيفة مثل المنافقين الذين يرون مبادرة المؤمنين بالقتال نوعا من الغرور الذي يدفعهم اليه دينهم الجديد ، و ايمانهم بفكرة الرسالة.

[اذ يقول المنافقون و الذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم]و المرض قد يكون النفاق و قد يكون الخوف و الرهبة من العدو.

ونسي هؤلاء ان الكفار يفقدون قدرة التوكل على الله ومدى ما في التوكل من بعث الروح الرسالية المندفعة.

[ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم]

الكفار يصنعون جزاءهم بأيديهم

هدى من الآيات

بعد ان اوضحت آيات الدرس السابق عوامل النصر و الهزيمة ، تشجعنا آيات هذا الدرس على الحرب ضد الكفار .. دون لين او هوادة ، لانهم منبوذون عند الله بكفرهم ، و تعاملهم ملائكة العذاب بقوة ، يضربون و جوههم و ادبارهم ، و يقولون لهم بشماتة ذوقوا عذاب الحريق.
.فهل غضب الله عليهم عبثا ؟ أم بسبب استحقاقهم للعذاب لما قدمت ايديهم و صنعته افعالهم لان الله ليس بظلام للعبيد سبحانه ؟ مثلا قوم فرعون و الذين كفروا بآيات الله انما اخذهم الله بذنوبهم لكفرهم ، لانه لا يمر الكفر بدون عقاب لان الله قوي شديد العقاب . وعموما ارادة البشر تصنع حياته ومستقبله ولا يغير الله نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من طيب في القلب و صلاح في العمل ، فتفسد نياتهم وتسوء افعالهم . هذا قوم فرعون انما اخذهم الله بذنوبهم و اغرقهم حين كذبوا بآيات الله وكانوا ظالمين . ان الله لايحب الكفار ، و يعتبرهم شر الاحياء التي تدب و تتحرك فوق الارض ، فالكفار هم الذين ينقضونعهدهم ، ولا يتقون ربهم لذلك يمقتهم الله و يأمر بقتالهم كما يأتي في الدرس القادم.

بينات من الآيات

القيم فوق كل شيء:

[50]المهم عند الله القيم التي يستهدفها المرء بعمله ، فهي دون لون البشر و اسلوب التحدث و الطول و العرض . و الغنى و الفقر ، فهي المقياس لذلك فان الله لا يعبأ بالبشر الذين كفروا بآياته ، وانها ظاهرة غريبة ! ان الله الذي اسبغ نعمه ظاهرة و باطنة علىالانسان ولكنه يعامل الكفار بهذه الطريقة .

]ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون و جوههم و ادبارهم]وخلفهم وهم يقولون ازدراء بهم.

]و ذوقوا عذاب الحريق[

[51]فلماذا يأخذ الله الكفار بهذه الشدة ؟ يجيب ربنا و يقول:

]ذلك بما قدمت ايديكم[

اليد ابرز عضو في جسد البشر . وحين يقول ربنا قدمت ايديكم يتبين ان ارادة البشر و اقرب اعضائه اليه يده التي صنعت هذا الواقع مقدما.

ولو لم يكن ذلك لكان ينسب الى ربنا انه ظلام للعبيد ، كثير الظلم لهم بينما الصفة المعروفة لنا عن ربنا انه رحيم ودود بسبب مزيد نعمه التي لا تحصى . اذا فعملنا وليس شيء اخر هو سبب العذاب.

]وان الله ليس بظلام للعبيد[

فهم عبيده فلماذا يظلمهم ؟ هل يتلذذ بظلمهم (حاشاه) وهو الغني الحميد ، أم يخشى منهم سبحانه وهو القوي العزيز .

[52]و كمثل ظاهر من واقع التأريخ هذا ، قوم فرعون هل ظلمهم الله ام اخذهم الواقع الفاسد الذي صنعته ايديهم ؟

ان ذنوبهم التي احاطت بهم فاخذهم الله بها اي جعلها تلتف حول اعناقهم.

]كدأب آلأ فرعون[

أي كالعادة التي جرت في آل فرعون.

]والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم اله بذنوبهم ان الله قوي شديد العقاب]فلا يتهاون في معاقبة من يستحق العقاب ضعفا ماديا او معنويا سبحانه.

[53]ذلك فيما يتصل بسنة الله في الاخرة ، اما سنته الاظهر لنا فيما نراها من تطور المجتمعات فمادام الناس مستقيمين على القيم السماوية و العمل الصالح ، فان نعم الله تشملهم و بركاته تترى عليهم ، واذا غيروا قيمهم و سلوكهم غير الله عادة الاحسان الى النكبة و الدمار.

]ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم[

حتى يغيروا تلك العوامل التي انعم الله الحكيم بسببها تلك النعمة عليهم ، لقد انعم الله عل مجتمع ما نعمة الحرية بسبب توحيدهم و رفضهم للاستسلام امام ضغوطالجبت و الطاغوت ، وانعم عليهم الصحة بسبب استقامتهم على الفطرة الاولية التي خلقهم بها ، وانعم عليهم بنعمة الراحة النفسية بسبب مكارم الاخلاق و سلامة السلوك و التربية.

]حتى يغيروا ما بأنفسهم[

أي يبدلوا صفات الخير المتعلقة بانفسهم الى صفات السوء.

]وان الله سميع عليم[

يسمع ما في ظاهر المجتمعات ، و يعلم ما في صدورهم.

[54]مثلا : سنة الله في آل فرعون كيف ان ربنا انعم عليهم بالأمن و الرفاه و جنات تجري من تحتها الانهار ، حتى طغوا و بدلوا صفة و علاقة التعاون بينهم الى علاقة الاستغلال ، و صفة النشاط في عمل الصالح الى صفة التواني او المبادرة في عمل الفساد و هكذا فبدلالله نعمه و ارسل عليهم الطوفان فدمر مدنيتهم ، وارسل عليهم القمل و الدم و الضفادع ، بدل الثمرات و الارزاق و ارسل عليهم رياح الثورة فاقتلعت جذورهم و رماهم ربهم في البحر.

]كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم]اي بحجج الله و بيناته و رسالاته البليغة التي

وضحت لهم برنامج الحياة السعيدة.

]فأهلكناهم بذنوبهم و اغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين]ومن دون الظلم الذاتي و قيامهم بما يستوجب العقاب اذا لم يكن ربنا الودود يأخذهم بهذه العقوبة الشديدة ، يبدو من كلمة (كل) ان جميع المغرقين كانوا ظالمينلانفسهم.

[55]و يستخلص السياق القرآني الفكرة الاصيلة لهذا الدرس وهي : ان مقياس الصلاح و الفساد عند الله في البشر هو الايمان و الكفر ، و ليس أي شيء آخر ، وانه اسوأ الناس بل شر الاحياء الكفار.

]ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون]فالكافر الذي تاب الى ربه وآمن ليس شر ما يدب و يتحرك على الارض ، بل الذي بقي مستمرا على كفره و ضلاله برغم وجود نور في قلبه يهديه الى الحق .

[56] ولكن يبقى سؤال : لماذا يهبط الكافر الى هذا الحضيض الاسفل عند الله ؟

الجواب:

اولا :لان الكافر لا عهد له ، فهو لا يحترم نفسه ولا الاخرين ، و يلغي بذلك دوره في الحياة و يصبح كأنه لا وجود له و لاحضور في المجتمع ، فتراه يعاهدك ثم ينقض عهده معك ، ثم يعود يعاهدك فيخالف عهده مرة اخرى.

ثانيا : انه لا يلتزم ببرنامج الرسالة ، بل لا يتعهد بمسؤولية.

[الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون]

استراتيجيات القتال : الردع . السلام الشريف . الاعداد
هدى من الآيات
بعد ان بين الدرس السابق طبيعة الكفار و ضرورة قتالهم ، امر الله في هذا الدرس بالحرب الرادعة التي تلقي الرعب في افئدة الاعداء خلف المعركة عن طريق انزال الضربات القوية بمن هم في الجبهة ، واذا خشي المسلمون خيانة من العدو فعليهم ان ينذروهم و يهددوهم بالغاء المعاهدة.

وليعلم المسلمون ان الكفار ليسوا بسابقين ، وانهم لا يستطيعون تعجيز المسلمين ولكن على المسلمين ان يعدو كل قوة ممكنة لردعهم و ردع القوى الحليفة لهم من المنافقين الذين لا يعلم بهم سوى الله . وفي سبيل دعم القوى المسلحة لابد من بذل المال الذي لا يذهب هدرا ولا يؤخذ زيادة.

واذا مال العدو الى الصلح فعلى المسلمين الا يخشوا من الصلح بل يتوكلوا على الله ، ويقبلوا بالصلح ، و الله سميع عليم . ذلك لان العدو لا يستطيع تحقيق احلامه ، وعلينا ان نعتمد على نصر الله الذي ايد رسوله و المؤمنين بنصره ، ومن آيات نصره انه سبحانه الف بين قلوبهم وان الله عزيز حكيم.

بينات من الآيات
الاجراءات الهجومية في العسكرية الاسلامية:

[57]ما هو الهدف القريب للعسكرية الاسلامية ؟

الهدف هو الهجوم الصاعق و الماحق على العدو بغية تحطيمه عسكريا و الحاق الهزيمة بمعنويات حلفائه من اجل ان يتركوا طغيانهم و يعودوا الى العقل.

]فاما تثقفنهم في الحرب[

اي اذا ادركتهم في ساحة الحرب.

]فشرد بهم من خلفهم[

أي العدو الذي يدعمهم من خلف.

]لعلهم يذكرون[

اي يعودوا الى رشدهم.

الخيانة و نقض العهد:

[58]و حين تخاف من قوم خيانة بالعهود و المواثيق ، فلابد ان تعلمهم بخيانتهم و تهددهم بالحرب ، وان الله لا يحب الخائنين.

]واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين [اي عاملهم في قضية العهد كما هم يعاملونك دون ان تتجاوز ذلك و يدعوكنقضهم للعهد الى الاعتداء عليهم لان الله تعالى لا يحب الخائنين . واما هم فان خيانتهم سوف تسبب لهم ضررا او لان الله لا يحب الخائنين.

[59]والذين كفروا يزعمون انهم اقوى و احق بالحكم ، لانهم السابقون و ان بامكانهم - بسبب هذا السبق و التقدم الزمني - ان يقضوا على قوة المسلمين و يعجزوهم ولكن كلا.

]ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون[

ان السبق الزمني مع الكفر لا يعني شيئا فالكفر يعمي البصر و يغلق القلب و يشوش الرؤية.

[60]ولكن متى لا ينفع السبق ؟

حين يكون هناك سعي دائب من اجل الحصول على القوة الذاتية . وهذا السعي يعني عدة امور:

الاول : الاستعداد للمستقبل ، والا يكون العمل في لحظة الحاجة فقط.

الثاني :ان يكون هذا الاستعداد بالنشاط المكثف الذي لا يدع امكانية ولا مقدرة ولا جهدا ولا فرصة الا وتستغل من اجل بناء القوة الذاتية.

الثالث : ان يكون الهدف هو التغلب على كل نقاط الضعف و كل الثغرات الامنية و الاجتماعية.

]و اعدوا لهم ما استطعتم من قوة[

وهكذا يأمرنا ربنا بتقوية انفسنا بما نملك من استطاعة اي تحويل طاقاتناالكامنة في انفسنا الى كيان واقعي .. يجب ان يتحول الفكر و العقل العلم و خبرة ، و الخبرة الى ابنية و عمارات و فنادق ، وكذلك المقدرة الجسدية يجب ان تتحول الى اسلحة و ادوات و صناعات مختلفة.

كما ان البرامج الفكرية اسلامية يجب ان تتحول الى قوة اجتماعية متماسكة ، اما المعادن و الذخائر فيجب ان تتحول الى قوة اقتصادية و ثروة مالية.

ولكن القوة يجب الا تكون فقط في تعبئة القوى البشرية و الماديــة في صناعة الاسلحة ، بل يجب ان يبلغ حد الاستعداد لخوض القتال مباشرة لذلك اكد ربنا سبحانه على هذه الجهة قائلا:

]ومن رباط الخيل[

اما الهدف الابعد للاستعداد فليس مجرد القدرة على الدفاع ، بل القدرة على الهجوم فيما لو اختار العدو الاعتداء على المسلمين حتى يلقي في افئدته الرعب.

]ترهبون به عدو الله و عدوكم[

كما ان بناء القوة الذاتية الرادعة تمتن الجبهة الداخلية ولا تدع ضعاف النفوس يرتبطون بالاجنبي ابتغاء العزة و القوة .

]و اخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم[

وبناء القوة الذاتية بحاجة الى العطاء ، وهذا العطاء سوف لا تذهب عبثا بل يعود الى المجتمع و زيادة.

]وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم[

اي يعود اليكم وافيا غير منقوص.

]وانتم لا تظلمون[

[61]و الاستعداد للقتال لا يعنهي انبعاث روح البطش و الاعتداء في الامة ، بل من الضروري ان يكون انضباط الامة بمستوى قوتها ، وان يهتموا بالسلام أكثر من اهتمامهم بالحرب.

]وان جنحوا للسلم فاجنح لها[

و قرار السلم يجب ان تتخذه القيادة ، و يجب الا يدفع الخوف من اعتداء العدو علينا ، لا يدفعنا نحو المبادرة بالهجوم بل لمقاومة هذا الضعف النفسي وهذا الخوف يجب ان نتوكل على الله تعالى.

]وتوكل على الله انه هو السميع العليم[

اسباب الحروب:

[62]ان الدافع الاساسي لكثير من الحروب الدامية ، هو الخوف المتبادل من هجوم الطرف الاخر . واذا كان عند احد الطرفين اطمئنان كاف بالقدرة ، فانه لا يهاجم خوفا من الطرف الاخر ولا يستجيب لاستفزازاته .. لذلك يؤكد ربنا سبحانه على ضرورة التوكل على الله تعالى و الثقة بنصره ، وعدم الاستجابة لهاجس الخوف من العدو للقيام بحرب و قائية.

]وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله هو الذي ايدك بنصره و بالمؤمنين][٦٣] وكان من ابرز آيات نصره لك هو توحيد جبهتك الداخلية ، حيث ان الله هو الذي الف بين قلوب المؤمنين.

]وألف بين قلوبهم[

وتأليف القلوب يبدو في الظاهر عملية بسيطة بينما هو مستحيل من دون تأييد الله.

]لو انفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم]حين هداهم الى توحيده و زكاهم عن الذاتيات ، و بعث اليهم كتابا و رسولا يعتصمون بحبله عن طريق تطبيق برامج كتاب الوحدة و تنفيذ اوامر الرسول القائد (ص. (

]انه عزيز حكيم[

بين القيادة و الأمة : الثقة ، التحريض ، اقتحام الصعاب
هدى من الآيات
ولا يزال السياق يحرض على القتال ، و يبين بعض الجوانب الاساسية من الحرب و ابرزها : الاعتماد على الجيش الاسلامي المسلح بالايمان ، ذلك لانه مع عشرين مؤمنا صابرا ينتصر الجيش الاسلامي على مائتين ، أي عشرة اضعافهم ، ومع مائة ينتصرون على الف جندي كافر ، ذلك لانهم لا يفقهون.

و الرأي السديد يكسب الحرب قبل اليد الشجاعة ، واذا ضعف المسلمون - كما حدث بعدئذ - فان جيشهم يغلب ضعف عدوه فالمأة الصابرة تغلب مائتين و الالف الصابرة تغلب الفين لأهمية الصبر ، وان الله مع الصابرين.

ومرة اخرى يذكرنا القرآن بأمرين:

الاول : ان تأييد الله لا يعني ان يتوقف المسلمون عن التضحية ، فمن دون وجود مقاومة مسلحة لا يكون للرسول اسرى.

الثاني :يجب الا يكون هدف الحرب الحصول على مغانم مادية ، ولولا ان تقدير الله كان انتصاركم على العدو بالرغم من وجود ثغرات في انفسكم ، مثل الرغبة في عرض الدنيا اذا مسكم عذاب عظيم بسبب اخذكم المغانم.

ثم جاء الامر القرآني بحلية المغانم ، ولكنه امر بالتقوى و عدم تجاوز الحد في اخذ او صرف المغانم.

بينات من الآيات
دور القائد في الحرب:

[64]ان يثق القائد بجيشه ولا يستضعفه : انه شرط اساسي للنصر ، لذلك امر الله نبيه الاكتفاء بما يملكه من الجيش .

]يا ايها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين][٦٥] ولكن على القائد ان يرفع ابدا معنويات جيشه . فان النقص المادي في الجيش الرسالي سوف يعوض بالمعنويات المرتفعة.

]يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال[

اي ادفعهم نحو القتال.

مظاهر قوة المؤمنين:

]ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين[

اي عشرة اضعاف العدو ، و القرآن لم يقل ان يكن واحد يغلب عشرة ، او كل فرد يساوي عشرة افراد ، ربما لان العشرين بما لديهم من انسجام و تعاون و تلاحميقابل المائتين بما فيهم من اختلاف و تناقض.

]وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون]لا يعرفون اهمية الايمان و الصبر ، و التضحية ابتغاء الجنة و رضوان الله و سائر القوى المعنوية.

ان المعرفة تشبه كيانا متكاملا ، فاذا انهار ركن اساسي منه فتحت ثغرات واسعة في كيان المعرفة .. و

الايمان بالله و بالقيم ركن شديد في بناء العلم او ليست القيم و المعنويات جزء هام من العالم ، والذي يكفر بها لا يعرف العلم على حقيقته . أرأيت الاطفال الذين لا يحسنون التلفظ ببعض الاحرف كالدال واللام والراء و السين انهم يشتبهون في اكثر الكلمات ، لان كثيرا من الكلمات تحتوي على هذه الاحرف فالذي يكفر بالله لا يفقه حقيقة العلم لان جزء من حقيقة العلم لا اقل هو العبودية و الخضوع لله .

[66]حين تكون الامة في بداية انطلاقها يكون ابناؤها صفوة المجتمع الذين بادروا الى الرسالة الجديدة بوعي كاف ، و بارادة حديدية تتحدى الضغوط المحتملة ،بل الواقعية من قبل الاباء و الاقارب و المجتمع و السلطة . لذلك فقدرتهم على الدفاع كبيرة ، بالاضافة الى ان التوجيه مركز بالنسبة اليهم و الارادة منضبطة . لذلك فان العشرين منهم يعادلون مائتين ، اما بعدئذ فالوضع مختلف اذ يكون الواحد يعادل اثنين فقط وذلك بسبب الضعف.

]الان خفف الله عنكم[

ولم يكلفكم بالهجوم ما دام عددكم اقل من نصف العدو.

]وعلم ان فيكم ضعفا[

من الناحية المعنوية.

]فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله]فان انتصاركم انئذ ليس حتميا ، بل انما هو باذن الله ، ومع تطبيق واجبات الشريعة.

]و الله مع الصابرين[

[67]ولا يمكن ان ننتظر الغنائم و المكاسب من دون تقديم تضحيات ، فلا نبي يحصل على اسرى حتى يثقل الارض بالقتلى و المجروحين.

]ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض]و الثخن و الغلظ و الكثافة بمعنى واحد.

]تريدون عرض الدنيا و الله يريد الاخرة و الله عزيز حكيم]اي انكم تريدون المكاسب السريعة بينما الله يريد الاخرة.

[68]ولولا كتاب ربنا سبق بنصر المؤمنين ، اذا لكانوا يستوجبون عذابا شديدا بسبب تهافتهم على المغانم ، بينما المفروض عليهم وهم امة رسالية ان يفكروا في تبليغ الرسالة ، لا في المكاسب المادية ، وربما المراد من العذاب العظيم هو الهزيمة.

]لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم][٦٩] ولكن حرمة التفكير في المكاسب المادية من وراء الحرب لا تتعارض مع عدالة التشريع الاسلامي فيما يخص غنائم الحرب اذ يجوز الاكل مما غنمه المسلمونحلالا طيبا.

]فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا[

و الاكل غير الامتلاك.

]و اتقوا الله[

فلا تتجاوزوا حدود العرف.

]ان الله غفور رحيم[

المسلمون امة واحدة
هدى من الآيات
بمناسبة الحديث عن الحرب ، يوجه القرآن الكريم خطابه الى الاسرى و يسليهم بشرط ان تكون نيتهم حسنة ، و يحذرهم اذا كانوا خونة ، و يأمر الرسول بالا يخشاهم.

و يعود القرآن الى المقاتلين في سبيل الله و يقول : ان الذين ءامنوا و هاجروا و جاهدوا هم و الذين أووا هؤلاء و نصروهم يشكلون امة واحدة ، بعضهم اولياء بعض ، اما الذين لم يهاجروا و لم يلتحقوا بدار الاسلام فانهم لا ولاية لهم .. اللهم الا في حالة واحدة وهي حالة استنصاركم ففي تلك الحالة يجب عليكم نصرتهم الا اذا كان حربهم مع جماعة تربطكم بهم معاهدة.

وكما ا ن المؤمنين امة واحدة ، فالكفار ايضا امة واحدة ، بعضهم اولياء بعض ، ومن دون القبول بهذه الفكرة فان الارض تعمها فتنة و فساد كبيرة.

المؤمنون حقا هم الذين هاجروا و الذين نصروا ، اما الذين هاجروا من بعد قوةالاسلام فانهم يحسبون ايضا منكم ، وكل هذه العلاقات و الروابط الجهادية و الرسالية لا تمنع من وجود علاقات اخرى هي علاقات الرحم التي يجب ان تلاحظ هي الاخرى لان الله بكل شيء عليم.

بينات من الآيات
سورة التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة
قال رسول الله محمد (ص: (

"ما نزل علي القرآن إلا آية و حرفا حرفا خلا سورة البراءة و قل هو الله احد فانهما نزلتا علي و معهما سبعون صف من الملائكة كل يقول يا محمد إستوص بنسية الله خيرا "(مجمع البيان / ص ٢ / ج ٦٥(

لماذا تركت التسمية في أولها قراءة و كتابة ؟

للعلماء و المفسرين في ذلك أقوال:

- 1أنها ضمت الى الانفال بالمقاربة فصارتا كسورة واحدة اذ الاولى في ذكر العهود و الثانية في رفع العهود) عن أبي بن كعب. (

- 2انه لم ينزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس سورة البراءة لأن بسم الله للامان و الرحمة و نزلت براءة لرفع الامان بالسيف.

- 3ما روى عن ابن عباس انه قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم على ان عمدتم الى براءة وهي من المئين والى الانفال وهي من المثاني فجعلتموهما في السبع الطوال ولم تكتبوا بينهما (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال : ان النبي (ص (عندما تنزل عليه الآيات فيدعو بعضمن يكتب له فيقول له هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا و كذا ، و كانت الانفال من أول ما نزل من القرآن بالمدينة و كانت براءت من آخر ما نزل من القرآن و كانت قصتها شبيهة بقصتها فظننا أنها منها رسول الله (ص) و لم يبين انها منها فوضعناهما في السبع الطوال ولم نكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم و كانتا تدعيان القرينتين.

الاطار العام

اسم السورة:

بالرغم من ان الطابع العام للسورة هو الانذار الصاعق للمشركين ، فان وجود آيات التوبة خصوصا في بداية السورة تفتح بابا عريضا للرحمة في جو الغضب الرهيب .لذلك سميت بسورة التوبة .. اشارة الى ان المخرج من الوضع الحرج هو الذي يجب ان يركز الضوء عليه ، و قدتسمى هذه السورة بالبراءة اشارة الى الجو العام لها.

الاطار العام:

لا يختلف كثيرا عن اطار سورة الانفال . حتى ان بعضهم رأى ان التوبة امتداد لسورة الانفال ، ذلك ان السياق يتحدث عن ضرورة هدم كيان الشرك من الاساس ، و بناء الكيان التوحيدي ، و استخدام العنف كأخر وسيلة لحسم المواقف . ولكي يتقبل المجتمع الجهاد بما فيه منعنف و تضحيات فإنه بحاجة..

اولا : الى انفصال نفسي بينه و بين العدو.

ثانيا : الى الاستعداد للتضحية ، و جعل التضحية و الشهادة في سبيل الهدف القيمة الاعلى.

ثالثا :تهيئة الوسائل المساعدة للجهاد .. و هذه بعض الموضوعات التي يتحدث عنها السياق ، بالاضافة الى بيان اهداف الجهاد الانسانية . حتى لا يتحول الى حالة عدوانية شاذة.

و يتحدث السياق في الآيات (٥٨ /٦٠) عن الصدقات لعلاقتها بالجهاد ، ثم يتحدث عن المنافقين و دورهم التخريبي في الصراع .. الآيات (٦١/٦٨) وعن المؤمنين وحدتهم و صفاتهم المثلى .. الآيات / 71) (72ثم عن قتال المنافقين و الكفار ، و عن النفاق بعد الايمان الذي يتعرض له بعض الناس .. الآيات (٧٥ / ٧٨) و عن الذين يمنعون الصدقات من المنافقين .. الآيات (٧٩ / ٨٠) أو التقاعس عن الجهاد أو سائر صفاتهم الشاذة .. الآيات (٨١ / ٨٧) و يتحدث السياق عن اعذار المنافقين في الجهاد و عن استثناءات الجهاد (٩٠ / ٩٦) و عن الاعراب المنافقين منهم و المؤمنين ..الآيات (٩٧ / ٩٩) وعن أهل المدينة .. وفي الاعراب منافقون غير معروفين ..الآيات (١٠١. (

و ان هناك طائفة اعترفوا بذنوبهم و يجب ان تؤخذ من أموالهم صدقات .. زكاة ، و طهارة لهم ، وقبولا لتوبتهم .. الآيات (104 / 102)و بعد الحث على العمل يحدثنا السياق عن الذين اتخذوا مسجد الضرار ارصادا لمن حارب الله و رسوله ، و ضرورة مقاطعة هذا المسجد ، والاستبدال عنه بمسجد التقوى .. الآيات (١٠٥ / ١١٠) و لقد اشترى الله من المؤمنين انفسهم و أموالهم .. الآيات (١١١ / ١١٢) و ليس بين الكفار و المؤمنين ولاء حتى بالاستغفار ، وان الله يتم حجته على عباده ، وان الله يتوب علىمن حتم امره بالجهاد أو بالتوبة . . الآيات (١١٣ / ١١٨) من هنا يجب على المؤمنين القتال و ليعرفوا ان اعمالهم الصالحة جميعا محسوبة و مجزية خيرا .. الآيات (١١٩ / ١٢١) ولا بد ان ينفر طائفة للتفقه والانذار الآية (١٢٢) و يجب القتال ابتداءباقرب الكفار .. آية (١٢٣) و حين تنزل سورة يستهزىء بها المنافقون الذين في قلوبهم مرض .. الآيات (١٢٤ / ١٢٧) و الرسول يحب خيركم و لكن اذا تولى عنه احد فحسبه الله .. الآيات (١٢٨ / ١٢٩) ، و هكذا تختتم السورة بذكر القيادة الاسلامية التي تنفذ تعاليم السماء بشأن الاعداء ، كما تكرر اسم الكريم في بداية السورة.

الانذار الاخير لأعداء الرسالة

هدى من الآيات

لكي يبني الاسلام سورا عاليا حول المجتمع المسلم يحصنه من الشرك و الكفر، ومن آثار الضلالة نفسيا و ثقافيا و اجتماعيا ، تأتي آيات الدرس الاول في هذه السورة صاعقة حاسمة ، براءة من الله و رسوله الى الذين سكت الاسلام عنهم سابقا بسبب معاهدة سابقة . أما الان ، فعليهم الاختيار بين

الحرب و الاسلام بعد أربعة اشهر و ليعلموا ان قوتهم المادية لا تقف امام قوة الله وان الخزي يلاحقهم بكفرهم.

واعلان عام يصدر في موسم الحج الأكبر حيث يتوافد الى بيت الله الناس من كل مكان ان الله بريء من المشركين ، و كذلك رسوله إلا ان يتوبوا.

و الذين عاهدهم المسلمون من المشركين عهدا مؤقتا بمدة فان الاسلام يفي بعهده ماداموا وافين به.

أما بعد الاشهر الحرم التي تنتهي بشهر صفر فان الارض ستطهر منهم إلا ان يتوبوا و يؤمنوا و يسلموا لواجبات الدين ، فان الله غفور رحيم.

بينات من الآيات

لماذا الغيت المعاهدات:

[1]بعد ان هيمن الاسلام على شبه الجزيرة يفتح عاصمتها مكة ، و الانتصار على كبرى القبائل فيها كالهوازن . بقيت القبائل الصغيرة التي آمنها الاسلام و لكنها بطبيعة كفرها و شركها كانت تشكل جيوب المقاومة ، و تعرقل وحدة الجزيرة الادارية ، و كان مــن الواجبانهاء الصراع معها استعدادا للانتقال الى العالم ، (خارج الجزيرة) لذلك جاءت البراءة ، و الغاء المعاهدات بين المسلمين و المشركين ، ولكن اعطيت لهم مهلة اربعة اشهر يستعدون خلالها أما للتسليم او للحرب - ان شاؤوا - ولكن القرآن حذرهم ، ان ا لمقاومة لا تجديهم نفعا.

]براءة من الله و رسوله الى الذين عاهدتم من المشركين][٢] [فسيحوا في الارض اربعة اشهر و اعلموا انكم غير معجزي الله]فلا تستطيعون تعجيز الله وسلبه قدرته المطلقة سبحانه ، ولكم الحق في التجول الحر في ارض الجزيرة لمدة اربعة اشهر.

]وان الله مخزي الكافرين[

يفشل خططهم ، و يسلب منهم ارادتهم ، ولا يبلغهم اهدافهم.

جاء في الحديث الماثور عن أبي جعفر)عليه السلام) قال " : خطب علي (عليه السلام) في الناس و اخترط سيفه فقال:

"لا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يحجن البيت مشرك ، ومن كانت له مدة فهوالى مدته ، ومن لم يكن له مدة فمدته اربعة اشهر "وكان خطب يوم النحر ، وكانت عشرون من ذي الحجة و محرم و صفر و شهر ربيع الاول و عشر من شهر ربيع الاخر ، وقال:

"يوم النصر يوم الحج الأكبر "

و يبدو من هذا الحديث : ان القرآن انما ألغي العهود التي كانت مطلقة وقابلة للالغــاء وكانــت تلك شريعة المتعاهدين من العرب . اما العهود التي كانت لها مدة معينة ، فانها لم تلغ بهذا القرار.

ومن جهة اخرى .. في تلك السنة جرت بدعة النسيء و تأخير أشهر الحرم عن موعدها المحدد ، والتي يتحدث عنها القرآن في آية اخرى و لذلك حدد القرآن العهود الى أربعة اشهر وفي آية قادمة ربط الموضوع بانتهاء الاشهر الحرم .. بينما كان الاعلان في موسم الحج الاكبر والذي كان في أيام الاجتماع الكبير بمنى.

[3]و كرر القرآن اعلانه العام لكل المشركين الذين تربطهم اولا تربطهم مع الجبهة الاسلامية معاهدة.

]واذان من الله و رسوله[

و يكرر كلمة الرسول هنا لانه منفذ تعاليم الله ، وللاشارة الى ان القضية ليست وصية دينية فقط ، بل هي ايضا حقيقة سياسية جديدة.

]الى الناس يوم الحج الاكبر[

يوم الاجتماع العظيم في مكة ، بمناسبة الحج في ذي الحجة الحرام . وقد كانت هناك مواسم اخرى اقل اجتماعا من الحج الاكبر ، وقيل ان المراد بالحج الاكبر هوالموسم الذي اجتمع فيه المؤمنون و المشركون معا ، لانه بعد تلك السنة لم يحج المشركون ابدا.

]ان الله برىء من المشركين و رسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله]ومقاومتكم لا تجديكم شيئا.

]و بشر الذين كفروا بعذاب اليم[

في الاخرة ، كما في الدنيا.

[4]إلغاء العهود و الاحلاف التي كانت بين المسلمين و المشركين كان محددا بما يلي:

الف : اما الغائها بسبب نقض المشركين لروح المعاهدة او لبنودها.

باء : واما لانتهاء مدة المعاهدة.

جيم :واما لان المعاهدة كانت اساسا مطلقة و يجوز لأحد الطرفين الغاؤها بشرط اعطاء مهلة كافية للطرف الثاني .. و يبدو ان اكثر المعاهدات التي كانت تعقد بين العرب كانت من هذا النوع ، ولذلك جاء في هذه الآية تأكيد على الوفاء بالمعاهدات المحددة بمدة معينة ،والتي لم ينقضها الطرف الاخر ولم يخالف روحها.

]الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا]أي لم يخالفوا بنودها.

]ولم يظاهروا عليكم احدا[

فلم يخالفوا روح المعاهدة.

]فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم[

أي الى انتهاء مدتهم كما فعل الرسول بقوم من بني كنانة ، وبني ضمرة . كان قد بقي من اجلهم تسعة اشهر فأمر باتمامها لهم لانهم لم يظاهروا على المؤمنين ولم ينقضوا عهد رسول الله.

وكما فعل مع أهل هجر واهل البحرين وايله ودومة الجندل ، حيث وفى بعهده معهم الى نهاية حياته [صلى الله عليه وآله][ان الله يحب المتقين[

الذين يلتزمون بالعهود و المواثيق مع المسلم و الكافر و البر و الفاجر.

لا لتجديد العهود:

[5]بعد اشهر الحرم التي يحترمها الاسلام اذا احترمها الاعداء . بعدئذ يجب قتل المشركين اينما وجدوا .

]فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم]و الاشهر هي ذو القعدة و ذو الحجة و محرم ، و بعدها يأتي شهر صفر الذي كان اخر مهلة للكفار.

]و خذوه[

اسرى

]و احصروهم[

أي ضعوهم في محاصرة قواتكم لكسر شوكتهم و هزيمتهم معنويا ، للتقليل من نسبة القتلى.

]و اقعدوا لهم كل مرصد[

أي انشروا حول مواقعهم مراكز الرصد و الرقابة حتى تعرفوا تحركاتهم.

]فان تابوا و اقاموا الصلاة و اتوا الزكاة فخلوا سبيلهم]دون ان تحققوا في مدى صحة ادعائهم بانهم اسلاميون.

]ان الله غفور رحيم[

مع شدة الامر و عظم المصيبة التي امر الله سبحانه بانزالها بالمشركين .. بوضح السياق ان بابا عريضا قد فتح امامهم و هو باب التوبة . وان الله غفور رحيم بكل من يقبل بولاية الاسلام و يسلم تسليما.

وما ذلك البلاغ الصارم .. إما الاسلام أو الحرب ، ما هو إلا رحمة للناس أرادها الله لهم.

خيانة المشركين وراء إلغاء المعاهدة

هدى من الآيات

بالرغم من إعلان الحرب ضد الشرك ، فان ذلك لا يعني الغدر بهم بل اذا استجار بالرسول احد منهم ، فان الاسلام يعطيه الامان ، لفترة البحث عن صحة الاسلام ، ثم اذا لم يقتنع يعاد الى مأمنه سالما . وعموما الاسلام يفي بعهده مع المشركين ماداموا ملتزمين به ، ومن دون عهد يشن عليهم حربا وقائية لانهم بمجرد ازدياد قوتهم يقاومون الاسلام بكل جهدهم دون أن يردعهم قسم سابق او عهد ، يقولون كلاما حلوا و قلوبهم مليئة بالرفض ولا يلتزمون بقيمة.

أو ليسوا هم الذين باعوا دينهم بثمن بخس ، و منعوا سبيل الخير ، و عملوا كل عمل سوء ، أو ليسوا هم الذين سحقوا حقوق المؤمنين دون ان يردعهم عهد او حلف ، واعتدوا عليهم.

أجل لو انهم تابوا و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة فان الصراع ليس شخصيا معهم و لا عنصريا فلذلك سوف يصبحون اخوانا للمؤمنين.

ان هذا الدرس والذي يأتي يرسم خريطة التعامل مع المشركين كما يكشف خلفيات انفسهم و سلوكهم .

بينات من الآيات

إبلاغ الرسالة:

[6]الهدف الاساسي للصراع مع المشركين هو ابلاغ الرسالة اليهم ، و الطلب الوحيد منهم هو استماعهم لها من دون حجاب او عقدة مسبقة . لذلك لو طلب احد من المشركين الامان حتى يأتي الى الديار الاسلامية و يستمع من قرب الى تعاليم الرسالة ، فان الاسلام يؤمن لهطلبه ، لان كثيرا منهم

يحارب الاسلام من دون وعي ولا يعلم بحقيقة الرسالة ، ثم ان لم يقتنع لا يغدر به بل يبلغه مأمنه بكل اعتزاز.

]وان احد من المشركين استجارك[

أي طلب الحماية ، و كانت تلك عادة عربية عريقة ، ان الواحد منهم يطلب من رئيس القبيلة المنيعة الجانب الحماية ، فتعطى له و يحفظ خلال فترة الاستجارة.

]فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مامنه[

لماذا يعطى للمشرك الحماية بالرغم من حربه مع الاسلام ؟ لان المشركين لا يعلمون الحقيقية.

]ذلك بانهم قوم لا يعلمون[

و هكذا ترى الاسلام لا ينسى رسالته في زحمة الصراع السياسي ، كما يؤكد على دور الاعلام الامين في الصراع . ان علينا الا نعتبر الاعداء كتلة صخرية لا تتفتت.

بل هم بشر وجهلة ، يؤثر فيهم الحديث و يبلغ قلوبهم الهدى المبين و يقلل الاعلام من حجم الخسارة.

[7]ما هي خلفية سلوك المشركين عموما ؟

انهم لا يلتزمون بقيمة سامية لذلك لا عهد لهم ولا ذمة ، الا اولئك الذين عاهدهم المسلمون فيلتزمون بذلك العهد ، مادام المشركون يلتزمون بشروطهم.

]كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله[

وفي الآية التالية يبين القرآن سبب هذا الحكم ، وهو اسقاط احترام المشركين ، اما هنا فهو يستثني المعاهدين.

]إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين]أي الذين يلتزمون بمواثيقهم و عهودهم مع الناس ، حتى ولو لم يكونوا مسلمين . و تدل الآية على ان من شروط التقوى الوفاء بالعهد مع المسلم و الكافر.

المشركون المعاهدون:

[8]اذا امتلك المشركون القوة ، و غلبوا المسلمين فهل سيراعون لهم عهدا أو حلفا ، وهل يحترمون دماءهم و اموالهم ؟ كلا..

]كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة]أي حلفا و لاعهدا.

اما الان فهم يتظاهرون بالتمسك بحسن المعاملة و احترام حقوق الاخرين.

]يرضونكم بافواههم[

بكلماتهم الفارغة التي لا تتعدى اللسان.

]و تابى قلوبهم[

و ترفض نفوسهم الالتزام بما وراء هذه الكلمات.

]واكثرهم فاسقون[

غير ملتزمين اساسا بعهد او قيمة.

[9]وهل يتمسك بالقيمة من يبيع دينه بثمن بخس.

]اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا[

و مهما يكن الثمن الذي يعطى في مقابل الالتزام بالقيمة المعنوية فانه قليل . اذ ان شخصية الانسان و كرامته وحتى مدنيته انما هي بمعنوياته ، و بمدى التزامه بقيمه في الحياة . انظر كيف انهم حين باعوا دينهم اخذوا يصدون عن سبيل الله ، و يمنعون كل عمل الخير!
!

]فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون[

[10]انهم لا يعتنون بحقوق الناس و خصوصا المؤمنين.

]لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون]اولا ، واما معاملة المسلمين معهم فهي رد الاعتداء . كما هو الحال اليوم بين الامة الاسلامية المطالبة بحقوقها المهتضمة ، وبين الطواغيت في الارض ، الذينيطالبون ابدا باحترام القوانين الجائرة المفروضة علينا . بينما هم لا يعتنون بأبسط حقوقنا و يعتدون علينا ، ولذلك فنحن لا ننظر الى كل واقعة .. واقعة مجردة عن التسلسل التأريخي للاحداث ، بل علينا ان نحدد سياستنا معهم على ضوء مجمل معاملتهم معنا ، و نوع العلاقة القائمة التي تحكمنا و اياهم.

التوبة باب الرحم الالهية:

[11]امام هؤلاء المشركين باب عريض من التوبة و اصلاح انفسهم ، وانئذ يصبحون اخوة لنا.

]فان تابوا و اقاموا الصلاة و اتوا الزكاة فاخوانكم في الدين]لا فرق بينكم و بينهم ابدا . لان الاسلام يرفض الفوارق العرقية و العشائرية أو الاقليمية ، و كذلك لا يعترف بالأسبقية الايمانية . بمعنى سيطرة السابقين من المؤمنين قديما على اللاحقين جديدي الايمان . بل يعترف بالأسبقية في حدود ضيقة يعطيهم اولوية الثقة والاحترام فقط .. و فيما وراء ذلك فهم اخوة متساوون امام الله و الشريعة.

]و نفصل الآيات لقوم يعلمون[

و يفهمون الفرق بين الاحكام التي شرعت للموضوعات المختلفة.

حكم الذين ينكثون أيمانهم

هدى من الآيات

ما هو الموقف الاسلامي من المشركين الذين نقضوا العهد ، و خانوا ايمانهم ؟

الموقف هو القتال الموجه ضد قياداتهم التي لا تلتزم بعهد ولا يمين وذلك بهدف إيقافهم عند حدهم ، و أسباب القتال هي:

اولا : نكث اليمين ، و عدم الالتزام به.

ثانيا : محاولة إخراج الرسول.

ثالثا : انهم البادون بالاعتداء ، و علينا الا نخشى بطشهم . بل نخاف الله و نخشى عقابه ما دمنا مؤمنين به.

و الله يعذب الكفار ، و لكن بأيدي المسلمين ، و حين يكافح المسلمون اعداءهم فالله ينصرهم و يخزي الكافرين ، و يزكي قلوب المؤمنين ، و يدخل فيها الفرحو البشاشة ؛ و قد كانت سابقا مليئة بالغضب و الغيظ ، والذين اكتسبوا إثما او ذنبا ، تكون الحرب مطهرة لهم ، لان الله يتوب على من يشاء من عباده.

و تدخل هذه الآيات ضمن اطار السورة في التحريض على قتال المشركين و بيان سبب القتال و اهدافه.

بينات من الآيات
فقاتلوا أئمة الكفر:

[12]الناكثة هي الفرقة الضالة ، التي تقاوم الرسالة بعد التعهد بالتسليم لها ، و عدم الاعتداء عليها ، وقد تكون هذه الفرقة من المشركين أو من المسلمين ظاهرا ، و القرآن يأمرنا بقتالهم بصراحة بالغة.

]وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم [

اليمين الذي يعطيه فريق منٍأنفسهم لفريق آخر يعتبر نوعا من العهد الاجتماعي ، أو بالاحرى يعتبر تأكيدا دينيا على عهد اجتماعي لذلك نجد القرآن يمزج بين اليمين و العهد.

]و طعنوا في دينكم[

لكي يبرر هذا الفريق نقضهم للعهد يطعنون في الدين و تعاليمه و بنوده ، و يعتبرون تلك التعاليم مخالفة لمصالحهم أو لحريتهم و كرامتهم.

]فقاتلوا ائمة الكفر[

عادة يكون الفريق الناكث ملتفا حول قيادة شيطانية . ذات خطط ماكرة . لا تكشف عن نفسها . لذلك يجب على الأمة البحث عن تلك القيادات و محاربتها والافان اراقة دماء اتباعهم تزيد تلك القيادات قوة اجتماعية ، و يكرس سيطرتهم الباطلة على االتباعهم المضللين.

و الواقع ان تلك القيادات لا يمكن انتضار الوفاء منها لانها بنت حركتها على ضرب القيم السائدة و مقاومة المقاييس الاجتماعية ، و لذلك تجدها تكثر من الحلف و اعطاء العهد مع عزم مسبق على مخالفتها.

]أنهم لا ايمان لهم[

ولكن يجب الا يتحول قتال الناكثين من أجل اشباع شهوة الانتقام ، فيصبح اعتداء محرما على كرامتهم البشرية . بل يكون فقط بهدف ايقافهم عند حدهم ، و اعادتهم الى شرعية القيم الاسلامية حتى يصبحوا كما غيرهم من الناس لهم حريتهم و كرامتهم و حقوقهم . لذلك اكد ربنا سبحانه على هذه الحقيقة قائلا:

]لعلهم ينتهون[

أي يمسكون أيديهم عن نقض العهد و الطعن في الدين.

[13]واما العوامل التي تدفعنا الى قتال الناكثين فتتجسد في:

اولا :نكثهم لليمين ، و نقضهم لعهدهم السياسي مع المجتمع المسلم ، و بالتالي مخالفتهم للنظام

الاجتماعي ، ذلك العهد الذي يقدمه المواطن المسلم عن طريق البيعة و يقدمه الذمي (كاليهود في المدينة) في صيغة معاهدات ثنائية بينهم و بين القيادة ، واذا نكث فريق عهدهم فان المجتمع المسلم يفقد حصانته ، و بالتالي يخشى ان يتحلل الاخرون من عهودهم و التزاماتهم فينهار المجتمع تماما لذلك قال ربنا:

]الا تقاتلوا قوما نكثوا ايمانهم [

ثانيا : مقاومتهم للنظام السياسي و محاولتهم اسقاط حكومة الاسلام عن طريق محاربتهم للقيادة الشرعية المتمثلة في الرسول او الامام.

]وهموا باخراج الرسول[

ثالثا : انهم المعتدون اولا ، و البادي بالظلم أظلم.

]وهم بدأوكم اول مرة[

وعادة يتوجس الناس الخوف من الناكثين ، ولكن الله يحرض عليهم و يقول:

]اتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين[

اذا ترك الانسان مبادءه و قيمه ، و تساهل في عهوده مع الناس ، فأي شيء يبقى له بعدئذ حتى يحسب مؤمنا ؟!

[14]ان نتيجة القتال معروفة عند الله سلفا ، وهي:

اولا : ان الله سوف يعذب الكفار بايدي المؤمنين.

]قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم[

و هذا يعني ان بعضا من اقدار الله يجريها عن طريق المسلمين ، فعليهم ان يسعوا ، و الله يسدد خطاهم و يوفقهم ، ولا يجوز لهم التواكل و الكسل بأسم التوكل على الله.

ثانيا : ان عزتهم بالاثم و غرورهم و كبرياءهم سوف تتحطم على صخرة الاستقامة الاسلامية.

]و يخزهم[

و بالنسبة الى الناكثين يعتبر كسر شوكتهم الاجتماعية ضربة قاضية لهم ، و انهاء لمشكلتهم.

ثالثا : ان الله ينصر المؤمنين عليهم و يثلج قلوبهم بالنصر.

]و ينصركم عليهم و يشف صدور قوم مؤمنين[

و هم الاكثر حماسا للقيم ، او الاكثر تضررا من خروج الناكثين على الدولة.

[15]رابعا : ان القتال يحل العقد النفسية التي تتراكم في قلوب المؤمنين بسبب خروج الناكثين عن الدولة.

]و يذهب غيظ قلوبهم[

فيستعدون للبناء و التقدم الحضاري ، و محاربة اعدائهم التقليديين.

خامسا :ان بعض المسلمين يتأثرون بدعايات الناكثين ، او يتكاسلون في البدء عن مقاومتهم ، فيصلحون بالقتال و النصر ، كما ان البعض منهم قد احتملوا ذنوبا كبيرة و صغيرة و بسبب الجهاد في سبيل الله يغفر الله لهم ذنوبهم.

]و يتوب الله على من يشاء و الله عليم حكيم[

ولذلك لا يمكن ان يتكل احد على الجهاد في سبيل الله فقط و يقول لنفسه انني اذنب ثم اجاهد فيغفر الله لي ، كلا فالله عليم حكيم ، لا يغفر لكل مذنب انما الذين يعملون الذنب بجهالة ثم يستغفرون.

المجاهدون أعظم درجة عند الله

هدى من الآيات

في سياق الحديث القرآني حول الجهاد المقدس من اجل تحقيق القيم السامية يبين هذا الدرس جوانب من خلفية الجهاد النفسية :

فأولا : الجهاد مدرسة لتربية المسلم ، و تمييز المؤمن الصادق عن الضعيف و المنافق.

ثانيا :المظاهر الدينية التي يتوسل بها الكفار مثل عمارة المساجد غير مقبولة عند الله وهي تحبط ولاتنفعهم شيئا في الاخرة . حيث يخلدون في النار ، وان العمارة الحقيقية للمساجد ، انما هي باقامة الصلاة و ايتاء الزكاة ، و خشية الله ، و ليس سواء القيام ببعضالاعمال الظاهرية ، والتي قد يداخلها الرياء أو طلب السمعة مثل عمارة المسجد الحرام ، و سقاية الحاج ، ليس سواء ذلك و الايمان الحقيقي بالله و برسالاته ، وعند الله الايمان و الجهاد في سبيله بالمال و النفس اعظم ثوابا من بناء المساجد ؛ و الله يبشر المؤمنينالصادقين برحمة منه في الدنيا و رضوان في الاخرة ،

و جنات فيها نعيم مقيم.

بينات من الآيات

الايمان الصادق:

[16]الايمان ليس بالتمني ، ولكنه بصدق العمل و تحدي الصعاب في سبيل الحق ، والذي يجعل الايمان ذا مصداق واقعي هو الجهاد ، و بذل منتهى الوسع في سبيل تحقيق أهداف الايمان.

]ام حسبتم ان تتركوا و لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم]و الله سبحانه سوف يبتلي المؤمنين بصعوبات و يأمرهم بتحديها بالجهاد ، و هناك شرط اخر لصدق الايمان يتحقق بالولاء الخالص لجبهة الحق ، وعدم السقوط في ولاءات باطلة و متداخلة.

]ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة]أي وسيلة و دخيلة ، و بالتالي إنتماء.

]و الله خبير بما تعملون[

العمل الصالح جوهر لا مظهر:

[17]ولان الهوية الاسلامية لا تتحقق الا باخلاص الولاء لله و للقيادة الرسالية و للمجتمع المسلم ، فان هذا هو المعيار الذي يحدد المؤمن و الكافر اما الاعمال الظاهرية مثل عمارة المساجد ، فانها ليس لا تنفعهم فقط بل و تضرهم ايضا . اذ تصبح شاهدة عليهم.

]ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر]لان المسجد هو محراب المؤمن الذي يحدد هوية المجتمع المسلم و قيادة المتثملة في الرسول و أوليائه . لا أولياء الشيطان من أنصار الطاغوت ، و عبدة الاصنام الحجرية و البشرية.

]أولئك حبطت اعمالهم[

لان العمـل الـذي لا يستند الى قاعدة صلبة من الرؤية السليمة و الايمان المهيمن . انه يسقط كما شجرة بلا جذور ، وكما بناء بلا أساس.

]وفي النار هم خالدون[

[18]عمارة المسجد لا تتم بوضع حجر فوق حجر ، بل بتنفيذ كل الواجبات الدينية التي تجعل المسجد المبني معمورا حقيقة ، وذلك بالايمان بالله و اليوم الاخر ، و بالصلاة لله و ايتاء الزكاة ، و بمقاومة الضغوط التي تأتي من القوى السياسية و الاجتماعية و تحاول تركيع البشر و دفعه باتجاه التسليم للطاغوت.

]انما يعمر مساجد الله من آمنه بالله و اليوم الاخر و اقام الصلاة و اتى الزكاة ولم يخش الا الله]فالخشية من غير الله تدفع البشر نحو التسليم له عمليا وهو الشرك.

و اذا توفرت هذه الشروط كاملة فان جوهر الصلاح و الفلاح و هو الوصول الى الحقيقة يتحقق.

] 10=فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين [

و ربما كان تعبير القرآن بـ (عسى) هنا او بـ (لعل) في موضع آخر ، للدلالة على عدم الركون الى مظاهر الامور ، و السكون عند حد معين من العمل ، او من تحقيق شروط الهداية بل يجب العمل بجد و مثابرة و الخشية من الا يكون مقدار العمل كافيا لتحقيق الهدف المنشود كما الانسان الذي يخشى موت ابنه من المرض . كيف يوفر كل الوسائل ، ولكنه يظل يبحث عن المزيد من وسائل العلاج خشية الا يكون ما هيأه كافيا.

و العمل الصالح يزيد الهدى و العكس صحيح ، اذ ان الظلم يحجب العقل ، و يمنع البشر من الهداية كما يأتي في الآية القادمة.

[19]الاعمال الظاهرية ليست كالاعمال الجذرية .. فليست سقاية الحاج و تعمير المسجد الحرام كالايمان بالله و اليوم الاخر ، و الجهاد في سبيل الله لأن الكافر و المنافق و الفاجر قد يقوم بمثل هذه الاعمال الظاهرية التي قد يتستر وراءها للقيام بالاعمال الشاذة.

]اجعلتم سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله و اليوم الاخر]وقد جاء في الحديث : قيل : ان عليا قال للعباس " يا عم ألا تهاجر . ألا تلحق برسول الله ؟ "! فقال : ألست في اعظم من الهجرة . اعمر المسجد الحرام ، و اسقي حاج بيت الله فنزل : " أجعلتم سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله و اليوم الاخر " (١(

]و جاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله[

(1)تفسير نور الثقلين / ج ٢ / ١٩٤

ان الجهاد هو ذلك المقياس الذي لا يخطأ اذا كان في اطار الايمان لانه تحد للشهوات و الاهواء و مقاومة

للطاغوت ، و بلورة للارادة . و كثير اولئك الذين يبررون تقاعسهم عن الايمان و الجهاد وعما يتطلبه الجهاد من مساع و تضحيات . يبررونه ببعض الاعمال الظاهريةذات اللافتة العريضة ، و الخواء الواقعي مثل طبع نسخ القرآن و تفاسيره و كتب التراث ، و اجراء الحدود الامنية على المستسضعفين مثلما السلطات الطاغوتية التي كلما تخالف نصوص الدين في منح الحرية و الرفاه و المساواة تزيد من ترديد الشعارات البراقة ، و تسميه الشوارع و المدارس باسم الحرية و الرفاه و المساواة ، او تزيد من رواتب علماء الدين و بناء المعاهد الدينية ، و كلماتخالف تعاليم الاسلام في التحرر و الاستقلال و الديمقراطية تزيد من تنفيذ تعاليم الدين في جلد الزاني و اعتقال شارب الخمر ، و مكافحة ما يسمى في عرفهم بالارهاب و الجريمة.

و كما يصنعه الطاغوت ، يفعله التجار الكبار الذين يتحالفون مع الحكام الظلمة ، و يمتصون دماء المحرومين ، ولكن يقدمون فتات موائدهم للفقراء ، و يبنون مستشفى او مستوصف او يعبدون طريقا ، او ما شبه ، في الوقت الذي يتركون الشعب و حده في مواجهة السلطات الطاغوتية ، او المستعمر الغاشم.

وهكذا نجد العباس بن عبد المطلب عم الرسول بعد ان اسر في حرب بدر ، و اقبل عليه اناس من المهاجرين و الانصار و عيروه بالكفر و قطيعة الرحم نجده يبرر عمله قائلا : مالكم تذكرون مساوءنا ، و تكتمون محاسننا قالوا : وهل لكم من محاسن قال : نعم ، و الله لنعمر المسجد الحرام ، و نحجب الكعبة و نفك العاني (أي الاسير) فأنزل الله تعالى " : ما كان للمشركين ان يعمروا. " ...

و كلمة اخيرة : ان كل واحد منا يمكن ان يصبح طاغوتا او متحالفا مع الطاغوت ، و يبتلى بخداع ذاتي لا يقدره الله ولا الضمير ولا التأريخ ، فعلينا اننتمسك بمقياس دقيق لكي نمنع عن انفسنا مرض الخداع الذاتي ، ذلك المقياس هو الجهاد ففي اللحظة التي تشعر انك تسترخي و تترك مقاومة الانحراف فقد استسلمت و خارت ارادتك ، و يمكن ان تنتهي واقعيا و دون ان تشعر بذلك لأن الهداية تتأثر بعمل الانسان و تصميمه و مشيئته ، فالظالم لا يهتدي ، لذلك اكد القرآن في نهاية الآية:

]و الله لا يهدي القوم الظالمين[

فالظالمون قد تورطوا في الضلالة و هم يحسبون انهم مهتدون ، و الله يدعهم لانفسهم و يتركهم لشأنهم.

[20]في المقياس الاسلامي يعطى الجهاد الاولوية ، ثم تترتب سائر الاعمال الخيرية مثل : عمارة المساجد ، و بناء المدن ، لان أهم شيء عند الانسان هو تحرره عن التسلط السياسي و الاستغلال الاقتصادي ، و بناء المؤسسة الاجتماعية الصالحة و بعدئذ يأتي دور الاعمار.

]الذين ءامنوا و هاجروا و جاهدوا في سبيل الله بأموالهم و انفسهم]من اجل إقامة حكومة الله في الارض . حكومة الحرية و العدالة و الاستقلال . هؤلاء:

]اعظم درجة عند الله[

مــن سائر من يقومون بالخدمات الاجتماعية ، أعظم من الباحثين في المختبرات ، و الاساتذة في الجامعات و العمال في المصانع و الفلاحين في الحقول ، و الوعاظ في المساجد لان النظام السياسي و الاقتصادي الفاسد يذهب بخيرات كل اولئك ، و ربما يستغل كل تلك المكاسبمن أجل تدعيم سلطة الطاغوت ، و تكريس ظلمه و فساده

فمثلا : قد تجد كل جامعات الولايات المتحدة تبحث لتقدم اطروحة علمية في الفيزياء او الكيمياء ، و يقوم العمال الخبراء في كثير من المصانع بتحويل الاطروحة الى واقع و تصنع سلاحا فتاكا يهدم حقول و مصانع الشعب الفيتنامي ، وحتى الوعاظ في كنائس امريكا قد يتحولون في ظل نظام التسلط الرأسمالي الى خدم بسطاء لاستراتيجيات البنتاغون ، فيدعمون سياسة التجنيد من أجل الحرب ضد الشعب الفيتنامي .

اذا اولئك المجاهدون الذين يهدفون تغيير النظام الفاسد ، و تحرير الانسان من عبودية الرأسمالية او التسلط ؛ اولئك اعظم درجة عند الله من سائر الناس.

]و أولئك هم الفائزون[

[21]ولأهمية هذا العمل ، و لخطورته البالغة على حياتهم و لتضحياتهم الكبيرة في هذا السبيل فانه لا يقدم عليه الا المخلصون حقا الذين لا يحسبون لانفسهم حسابا و انما يهدفون فقط خدمة الناس ، و ابتغاء مرضاة ربهم لذلك كان جزاؤهم عظيما.

]يبشرهم ربهم برحمة منه و رضوان[

و من مظاهر الرحمة اسقاط الطاغوت و استخلافه ، و الوصول الى سدة الحكم من اجل القيام بخدمات اكبر مما سبق.

اما الرضوان فهو تيسير أمورهم من عند الله ، و بلوغ حالة الطمأنينة و السكينة ، هذا في الدنيا.

]و جنات لهم فيها نعيم مقيم[

دائم ولا يخشى زواله.

] [22]خالدين فيها ابدا ان الله عنده اجر عظيم[

الجهاد ذروة اولويات المؤمن

هدى من الآيات

لكي تستعد الأمة للصراع ، لابد ان يخلص انتماء أبنائها اليها باعتبارها تجمعا مبدئيا ، و الا يتخذوا أقاربهم اولياء ان فضلوا الكفر على الايمان . ذلك لان أي خلل في الانتماء يبعث خللا في الايمان ، فلو كان الأب او الأخ أو الزوج أو العشيرة أو المال و التجارة أو المسكن احب الى الفرد من ايمانه بالله و رسوله ، ومن جهاده في سبيل الله ، فلا بد ان ينتظر امر الله الذي لا يحمل بالتأكيد في طية الهداية و الفلاح للظالمين و الفاسقين.

و كمثل على هذا الخلل و اثره السلبي على الصراع ما جرى في يوم حنين . اذ كان اعتماد الجيش على كثرتهم التي غرتهم لا على الايمان ، فلم تغنى عنهم من الله شيئا . اذ انهزم الجيش و ضاقت عليهم الارض على سعتها ، ولكن الله انزل سكينته على الرسول و المؤمنين فاطمأنت قلوبهم ، و انزل جنودا من عنده فهزموا الكفار و عذبوا عذابا شديدا.

بيد ان الهزيمة كانت تجربة صاغت نفسية المسلمين فتاب بعضهم ، فتاب الله عليهم ، وكان الله غفورا رحيما.

ان هذا الدرس يحدد بعض الشروط الاجتماعية للجهاد بينما حدد الدرس السابق بعضا من شروطه النفسية و الثقافية.

بينات من الآيات

المجاهد يتحدى الضغوط الاجتماعية:

[23]الولاء في المجتمع المسلم يجب ان يكون للعقيدة قبل أي شيء اخر ، فحتى الولاء العائلي الذي يحبه الاسلام و يعتبر الأسرة الوحدة الاجتماعية الضرورية ، يجب ان يكون في اطار الولاء الايماني لا منافسا له.

]يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اباءكم و اخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان]وقد كان هذا الانتماء الرسالي الخالص سببا في انتصار الرسالة في عصر الرسول ، يقول الامام علي (عليه السلام (:

"ولقد كنا مع رسول الله نقتل آباءنا .. و أبناءنا .. و اخواننا .. و أعمامنا .. ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا و تسليما ، و مضيا على اللقم ، وصبرا على مضض الألم ، و جدا على جهاد العدو .. فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت و أنزل علينا النصر" . (١(

و اذا عرفنا مدى أهمية الاسرة في الحياة العربية قبل الاسلام ، نعرف مدى(١) نهج البلاغة / خ ٥٦ / ٩١ صبحي الصالح

الخلوص الرسالي الذي بلغه المسلمون ذلك اليوم حتى حققوا الانتصار الكبير.

وقد عبر الامام أبو جعفر) عليه السلام) ، عن هذا الخلوص الرسالي ، بقوله:

) "لا تتخذوا من دون الله وليجة) فلا تكونوا مؤمنين فان كل سبب و نسب و قرابة و وليجة بدعة و شبهة منقطع إلا ما أثبته القرآن " . (١)ان كل ولاء يجب ان يكون في إطار قيم الاسلام ، وإلا فان الانتماء الاسلامي يكون ضعيفا او مرفوضا.

]ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون[

[24]ليس الولاء الاسري فقط حاجزا دون الولاء الرسالي ، بل كل صلة تقف حاجزا أمام العلاقة الاسلامية يجب فكها و جعلها صلة ثانوية.

]قل ان كان اباؤكم و ابناؤكم و اخوانكم و ازواجكم و عشيرتكم و اموال اقترفتموها و تجارة تخشون كسادها و مساكن ترضونها احب اليكم من الله و رسوله]أي من الولاء الخالص لله و للقيادة الرسالية المتمثلة بالرسول في عهده ، و بخلفائه من بعده ، وهذا الولاء يتجسد عمليا في الجهاد وهو بذل كلما يستطيعه المرء في سبيل تحقيق أهداف الرسالة ، لذلك خصصه القرآن بالذكر قائلا:

]وجهاد في سبيله فتربصوا[

و انتظروا فان هذا المجتمع الراكع للضغوط ليس ابدا مجتمعا رساليا ، بل ولا(١) تفسير نور الثقلين / ج ٢ / ص ١٩٢

مجتمع مسلم حقا ، و لذلك لابد من انتظار الكارثة.

]حتى يأتي الله بامره[

و قد تكون الكارثة المتمثلة في الخلافات الداخلية التي تنتهي الى الصراعات الجانبية المنطلقة من المحوريات الذاتية التي تمنع تكون المجتمع الموحد ، ومن الحزبيات الضيقة التي تفتت الوحدة السياسية الرصينة ، ومن الوطنيات الزائفة التي تحطم كيان الامة الواحدة، ذات القيادة الرسالية.

و كلما ضعفت الامة كلما خسرة معاركها الحضارية مع التخلف او مع الامم المنافسة كما نرى اليوم في الامة الاسلامية التي بالرغم من عدد ابنائها البالغ الالف مليون ، فان المحوريات الذاتية تمنع من تكون الوحدة التنظيمية الرسالية ، و بالتالي من تكون الوحدات السياسية الفعالة ، فعندنا ليس هناك شيء يسمى بالحزب حقيقة الا قليلا ، بل كلما عندنا ولاءات هشة غير متفاعلة مع الرسالة بقدر تفاعلها مع المصالح و الأهواء و القرابة ، لذلك تجد العسكر وهو الافضل تماسكا في عالمنا الثالث هو المسيطر ابدا لانه لا يجد امامه كيانسياسي متماسك.

واذا وجــد التماسك الحزبي - وهو قليل - فانه لا ينتهي الى التماسك الاجتماعي . اذ سرعان ما يتصل هذا الحزب بالغرب وذاك بالشرق ، و بدل ان يتفقا تراهما يتصارعان لمصلحة احدى الجهتين ، وضد المصلحة الاجتماعية المشتركة . المجتمع المسلم لم يعد الاطار الموحدلفاعلية احزابنا حتى يوحد جهودهما ، وما نراه في لبنان أو في شمال العراق أو في غرب ايران ، وما اشبه دليل على ان انتماء الاحزاب الى مجتمعهم أقل فان الوطنيات الزائفة تفتت الوحدة الاسلامية و الوحدة القومية ، فاذا بك تجد على كل قطعة أرض راية و نظاما يتحاربون بالرغم من وحدة مصالحهم في الاطار الاسلامي الموحد.

و الان نجــد الامة الاسلامية موزعة في أكثر من خمسة و سبعين دولة أو دويلة ، و كل يبني جيشه و ثقافته على اساس تعميق التجزئة ، و تكريس الانفصال ، لذلك يسهل على الاجنبي ان يبتلعها لقمة لقمة ، و يسهل على غول التخلف الاقتصادي ان يلتهم سعادتهم و رفاههم.

ان مصادر الطاقة و المعادن و الاراضي الزراعية ، و الموقع الاستراتيجي في وسط العالم ، و التراث الحضاري و الالف مليون انسان كل هذه القوى لم تكن قادرة على بناء حضارتنا في القرن العشرين ، و نخشى ان يبقى الوضع هكذا في القرن الواحد و العشرين . لماذا ؟

لان الانتماء الى الذات أشد من الانتماء الى الرسالة و حين يكون الانتماء الى الرسالة ضعيفا فان الرؤية تكون محدودة و مسجونة في جدران الذاتية المغلقة ، ولذلك اكدت الآية الكريمة على ان الانتماء الى الذات و الى المصالح الذاتية سيكون سببا للضلالة لانه فسق.

]و الله لا يهدي القوم الفاسقين[

و حين يكون انتماء الفرد الى ذاته و مصالح ذاته ، فان ممارسته ستكون ايضا خاطئة و يكون فاسقا ، و حينئذ يرى العالم بنظارة ذاته فلا يراه على حقيقته فتنزل عليه الكارثة.

دروس من حنين:

[25]و كمثل على هذه الحالة الشاذة يقص علينا ربنا قصة المسلمين في حنين ، حيث توكل المسلمون على كثرة عددهم لا على ربهم و تضحياتهم فانهزموا.

]لقد نصركم الله في مواطن كثيرة[

مثلا في يوم بدر ، حيث كان المسلم يقتل اباه و أبنه لان التجمع الرسالي كان أمتن من الولاءات الاسرية أو الذاتية ، و جاء في الحديث : " ان المواطن الكثيرة كانت ثمانين معركة انتصر فيها المسلمون في عهد الرسول (ص) "[و يوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا]لان الكثرة غير المتماسكة لا تغني شيئا . اذ كل فرد يفقد ارادته و عزيمته و خلوصه ، اعتمادا على الكثرة ، و كل فرد او فئة او حزب أو طائفة او عشيرة تفكر في مصالحها . تفكر في ان تكون التضحيات من غيرها و تكون المكاسب لها.

و هكذا كانت الكثرة العددية للمسلمين اليوم غير نافعة لانها كثرة كمية فقط ، و فاقدة للوحدة الحقيقية ، و هكذا تجد الارض المقدسة في فلسطين بيد الاعداء برغم اهتمام الجميع بتحريرها.

]و ضاقت عليكم الارض بما رحبت[

فبالرغم من الكثرة العددية تجد الجميع مغلولين مكبلين لان فاعلية كل جهة موجهة ضد فاعلية الجهة

الثانية ، وكأنهم مجموعة سيارات متشابكة في المرور ، كل واحدة منها تمنع غيرها من التحرك ، و لو توحدت لوجد الجميع متسعا من الارض .

]ثم وليتم مدبرين[

و انهزموا بفعل اختلافهم امام عدوهم الاكثر تماسكا منهم ، كما انهزم المسلمون اليوم امام الصهاينة . وهكذا تخسر الامة المفتتة معاركها الحضارية مع اعدائها.

[26]ولكن بقيت مجموعة متماسكة ذات قيادة رسالية ، بقيت صامدة في اطار هذه الكثرة المنهزمة فأنزل الله سكينته عليهم.

]ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين[

فسكنت نفوسهم برحمة الله ، و اطمأنت الى نصره ، وهكذا كانت الرسالة هي خشية الخلاص في زحمة امواج الهزيمة.

]و انزل جنودا لم تروها[

و كان من ابرز واجبات هؤلاء الجنود الذين كانوامن الملائكة .. تثبيت قلوب المؤمنين ، و اعادة الثقة و البشارة الى انفسهم كما في حرب بدر.

جاء في حديث ماثور عن الامام الرضا (عليه السلام) انه قال : " السكينة ريح من الجنة طيبة لها صورة كصورة وجه الانسان فتكون مع الانبياء " (١) . وقد تكون الملائكة المنزلين هي السكينة أو هم حملة السكينة.

[و عذب الذين كفروا و ذلك جزاء الكافرين]

فالله لا يتدخل في الصراعات الاجتماعية عبثا ، بل انما في الوقت الذي يكفر جانب و يؤمن و يصمد جانب اخر ، فيجازي الكافر بكفره.

[27]ولكن الهزيمة ليست نهاية أمة بل هي تجربة قد تصقل نفوسهم و تحدد أسباب ضعفهم ، و يتوبون الى الله من ذنوبهم فيتوب الله عليهم و ينتصرون.

[ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء و الله غفور رحيم](١) مجمع البيان / ج ٥ / ١٨

هكذا قضى الرب بنجاسة المشركين

هدى من الآيات

في الدرس السابق بين القرآن بعض الشروط الضرورية للانتصار ، وفي هذا الدرس يحرض المسلمين على قتال المشركين و الكفار ، وعلى طردهم من المسجد الحرام دون خوف من فقر لان الله هو الرزاق ، و أمر الله بقتال اولئك الكفار من أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله ولابالیوم الاخر ايمانا حقيقيا ينعكس على ثقافتهم و سلوكهم ، كما انهم لا يلتزمون بشرائع الله و اوامر الرسول ، ولا يلتزمون بسيادة الدين الحق و النظام الحق ، هؤلاء يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية خضوعا للحق (لا رشوة فيه) وهم صاغرون .

لقد قالت اليهود عزير ابن الله كما قالت النصارى المسيح ابن الله . قالوا هذا الافك بلا حجة او ايمان راسخ ، وذلك تشبها بقول الكفار و الله يعلن عليهم الحرب بسبب هذه الضلالة التي وقعوا فيها . ذلك لان هذه الضلالة و أمثالها جرتهم الى التسليم لأوامر الاحبار و الرهبان و اتخاذهم اربابا من دون الله . بينما أمرهم اللهبعبادة اله واحد لا شريك له فسبحان الله عما يشركون.

بينات من الآيات
إنما المشركون نجس:

[28]المشركون نجس : بهذه الكلمة فصل القرآن بين الفريقين الرئيسيين الذين يقسم الاسلام البشرية على اساسه ، فريق الهدى و فريق الضلالة .. حزب الله و حزب الشيطان .. المواطنون في الدولة الاسلامية و الاجانب ، فما هي النجاسة التي جاءت في الآية ؟

جاء في بعض التفاسير:

اختلف في نجاسة الكافر فقال قوم من الفقهاء : ان الكافر نجس العين و ظاهر الآية يدل على ذلك ، و روي عن عمر بن عبد العزيز ، انه كتب : " امنعوا اليهود و النصارى من دخول مساجد المسلمين ، و اتبع نهيه قول الله تعالى : (انما المشركون نجس ، الآية) " وعن الامام الحسن (عليه السلام) قال : " لا تصافحوا المشركين فمن صافحهم فليتوضأ " وهذا يوافق ما ذهب اليه اصحابنا من ان من صافح الكافر و يده رطبة و جب ان يغسل يده ، وان كانت ايديهما يابستين مسحهما بالحائط ، و قال اخرون : انما سماهم اللهنجسا لخبث اعتقادهم و افعالهم و اقوالهم ، و اجازوا للذمي دخول المساجد ، قالوا : انما يمنعون من دخول مكة للحج . قال قتادة : سماهم نجسا لانهم يجنبون ولا يغتسلون و يحثدون ولا يتوضأون ، فمنعوا من دخول المساجد لان الجنب لا يجوز له دخلو المسجد . (١)ومن الناحية اللغوية النجس كل شيء مستقذر و يبدو ان للكلمة ثلاث أبعاد:

(1)مجمع البيان / ج ٥ / ص ٢٠.

الاول :ان الشرك عقيدة باطلة ، و الثقافة التي تبنى على اساس الشرك ثقافة فاسدة ، وعلى المسلمين ان ينفصلوا عن المشركين جسديا حتى لا يتأثروا سلبيا بأفكارهم الفاسدة.

الثاني : ان المشركين لا يلتزمون بالنظام و الشرائع الاسلامية خصوصا في حقل النظافة الجسدية ، و الوقاية الصحية ، فعليهم الا يدخلوا البلاد الاسلامية ذات الانظمة الخاصة في الحياة ، و بالذات في حقلي النظافة و الصحة و الخمر و الخنزير و البول و الدم اشياءنجسة تحمل معها الامراض الخطيرة و المعدية ، ومن يباشر هذه الاشياء يطرد من البلد الاسلامي مادام لا يلتزم بالشروط الصحية للبلد.

الثالث :البلد الاسلامي مستقل اقتصاديا و لذلك يجب ان يسعى نحو التكامل الاقتصادي و الاكتفاء الذاتي ، فلا يتعامل مع الاجانب . خصوصا في حقل الاطعمة.

وفي الآية هذه اشارة الى هذه الابعاد دعنا نتدبر فيها:

]يا ايها الذين ءامنوا[

و الخطاب دليل على الهدف من الحكم التالي ببناء المجتمع المؤمن لا بيان الحقيقة العلمية فقط.

]انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا]فباعتبار المسجد الحرام مركز التوجيه الاسلامي فيجب تنظيفه من آثار العقيدة و الثقافة المنحرفة الفاسدة.

]وان خفتم عيله[

أي فقرا.

]فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم]فباعتبار الاقتصاد الاسلامي يتعرض موقتا لمشاكل بسبب المقاطعة الاقتصادية و الاعتزال لذلك وعد الله سبحانه عباده المؤمنين بالتعويض و هكذا

نجد ان المسلمين حين منعوا حج المشركين الذين كانوا يحملون معهم الى البيت الحرام الطعام و الملابس ليقايضوا به مع بعضهم او مع سلع المسلمين . حينئذ عوضهم الله سبحانه باسلام اهل نجد و صنعاء و جرش من اليمن ، و حملوا الطعام الى مكة على ظهور الأبل و الدواب و كفى الله تعالى المسلمين ما كانوا يتخوفون.

من هم المشركون ، وما واجبنا ؟

[29]وكما يجب محاربة المشركين عبدة الاوثان كذلك يجب مقاتلة اولئك الذين يتظاهرون بالدين وهم مشركون واقعا كبعض أهل الكتاب وهم الذين يتصفــون بمــا يلي:

الاول : عدم الايمان الحقيقي.

]قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر]الثانــي : عــدم قبول الشريعة الاسلامية كمظهر بارز من مظاهر الايمان الحقيقي.

]ولا يحرمون ما حرم الله و رسوله [

فكيف يعتبر مؤمنا من لا يخضع لشرائع الله ، و سياتي في آية تالية : ان التسليم لتشريعات الاحبار و الرهبان يسلبهم الايمان بالله و يجعلهم من عبدة الاصنام البشرية.

الثالث : رفض التسليم للنظام الاسلامي و الدولة الاسلامية.

]ولا يدينون دين الحق[

الدين هو التسليم النفسي و الخضوع القلبي لنظام أو شريعة ، ان هذا الفريق اذا كانوا من عبدة الاوثان فيجب قتالهم حتى النهاية ، ولكن اذا كانوا.

]من الذين اوتو الكتاب[

كاليهود و النصارى و المجوس ، فان قتالهم ينتهي اذا دفعوا الجزية.

]حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[

أي حتــى يعطــوا الجزية صاغرين استسلاما لقوة الاسلام وقهر الدولة الاسلامية ، اذ ان مجرد اعطاء المال للمسلمين لا يدل على سيطرة المسلمين على الساحة كما تدفع - مثلا - الدولة الغنية اليوم مساعدات مالية للدول الاسلامية الفقيرة بهدف استمالتها.

مظاهر الشرك:

[30]عقائد اليهود و النصارى في الايمان كانت فاسدة ، و متأثرة بوثنيات المشركين من قبلهم ذلك لان الفلسفة اليونانية التي كانت متأثرة بالشرك من الناحية الثقافية ، و بالطبقية و العنصرية من الناحية الاجتماعية ، و بالسياسية الطاغوتية من ناحية نظام الحكم، هذه الفلسفة وجدت طريقها الى الديانات بسبب ضعف العلماء و محاولتهم تبليغ الدين بكل وسيلة ممكنة ، حتى ولو عن طريق تقديم تنازلات للافكار و الاوضاع الفاسدة ، لذلك تجد آثار الافلاطونية الحديثة عند علمــاء هذه الديانات المنحرفة.

]و قالت اليهود عزير ابن الله و قالت النصارى المسيح ابن الله]ربما لم يكن عامة اليهود و النصارى

يزعمون هذا الزعم الباطل.

]ذلك قولهم بأفواههم[

فلم تكن فكرة منسجمة مع سائر أفكارهم و عقائدهم ، بل كانت بسبب تأثرهم بالثقافة الغريبة عنهم ، و تسليمهم للضغوط الفكرية و الاجتماعية.

]يضاهؤون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون][٣١] تلك كانت في حقل الثقافة . اما في حقل التشريع و السياسة فان اليهود و النصارى استسلموا للاحبار و الرهبان و قبلوا تشريعاتهم دون ان يخضعوا لله و يعملوا بشرائعه.

]اتخذوا احبارهم[

الحبر : هو العالم الذي يقوم ببيان العلم و هو عالم النصارى و اليهود.

]و رهبانهم[

الراهب : هو الذي يخشى الله ، و يلبس مسوح العبادة ، و هو عند اليهود و النصارى المتفرغ للعبادة الزاهد في الدنيا.

]اربابا من دون الله و المسيح ابن مريم[

فتركوا تعاليم الدين و نصوصه الواضحة ، الى اجتهادات الاحبار و الرهبان التي تاثرت باهوائهم و ظروفهم ، كما تركوا عقلهم و فطرتهم و نصوص دينهم الى الاستشهاد بسيرة المسيح ابن مريم التي كانت مناسبة للظروف الموضوعية السائدةفي عصره.

]وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو]لقد أمرهم الله في كتابه بتوحيده في العبادة و التشريع ، وان يعتبروه وحده مصدر النور و التشريع ، وان يتصلوا به مباشرة ، وان اخذ التعاليم من الاحبار و الرهبان حتى ولو كانت متناقضة مع الهام الفطرة و العقل و النصوص الصريحة من الدين يعتبر شركا مهلكا يبعدالناس عن حقيقة الدين و جوهره شيئا فشيئا ، و يجعل الديــن دين البشر أي الاحبار و الرهبان الخاضعين للجهل و الجهالة ، وضغوط الظروف . بينما الاتصال المباشر بمصادر الوحي يمنع هذه المشكلة اذ يصبح المؤمنون جميعا شاهدين على الرسالة اوصياء عليها . واعين لنصوصها و منتفعين من عقولهم و فطرتهم في فهم تلك النصوص.

]سبحانه عما يشركون[

الله منزه عما يشرك الناس به ، فوحيه و رسالته و شرائعه لا تخضع للظروف او للأهواء بل هي كاشفة لحقائق الحياة ، متناسبة مع السنن التي لا تتغير ، و لذلك يجب على الناس الاستلهام مباشرة منها دون الاستسلام للاوصياء عليها من الاحبار و الرهبان باسم الدين و ترك حبل الرسالة على غارب رجال معينين.

وقد جاء في الاحاديث الماثورة عن عدي بن حاتم ، انه قال : اتيت رسول الله وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي : " يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك " ، قال : فطرحته ثم انتهيت اليه و هو يقرأ من سورة البراءة هذه الآية (اتخذوا أحبارهم و رهبانهم اربابا): حتى فرغ منها فقلت له : إنا لسنا نعبدهم فقال " :اليس يحرمون ما احل الله فتحرمونه و يحلون ما حرم الله فتستحلونه " قال فقلت : بلى . قال : " فتلكعبادتهم. "

و روي عن ابي جعفر وابي عبد الله) عليهما السلام) ، انهما قالا:

"أما و اللــه ما صاموا ولا صلوا ولكنهم احلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا ، فاتبعوهم و عبدوهم من حيث لا يشعرون " (١)و اليوم نجد الكثير من ابناء امتنا الاسلامية تركوا نصوص الدين و الهام العقل و استسلموا كليا لبعض ادعياء العلم و الدين بالرغم من علمهم بان هؤلاء يحرمون و يحللون حسب افكارهم و أهوائهم ، و الضغوط الاجتماعية التي يتعرضون لها ، او يتبعون احزابا و منظماتاتباعا أعمى ولكن هل يعذرهم الله وهم يهملون اكبر نعمة اسبغها الله عليهم وهي نعمة العقل و التفكير و يحولون انفسهم الى انعام ضالة وقد خلقهم الله بشرا سويا . هل يعذر الله و الضمير رجلا بصيرا يغمض عينيه و يمشي مكبا على وجهه ، حتى يقع في الحفرة . ان أكبر المآسي البشرية في حقل السياسة و التشريع آتية بسبب التقليد الاعمى لذوي السلطة و الشهرة.

(1)المصدر ص ٢٣.

انحراف أهل الكتاب عن رسالات الله

هدى من الآيات

لا يزال السياق يبين الفساد الذي تسرب الى اليهود و النصارى من خلال تقليدهم الاعمى للاحبار و الرهبان . و مخالفة الرسالة التي هي نور الله و احدة من مظاهر الفساد ، ولكن هذه المخالفة الضعيفة لا تستطيع ان توقف انتشار النور ، و الله يتم نوره بالرغم منهم.

ان الله أرسل رسوله بكلمتين - الهدى - اي تكامل البشر عقليا و نفسيا - و دين الحق - أي سلطة الحق و العدل لا منطق القوة وفي النهاية سوف ينتصر الحق على كل سلطة بالرغم من المشركين.

و يبقى سؤال : لماذا لا يجوز تقليد الأحبار و الرهبان ، في تعاليم دينهم ؟

و الجواب:

لأن كثيرا منهم خونة غير أمناء في الأموال فكيف يؤمنون على الرسالة ؟ انهمياكلون أموال الناس بالباطل و مجمل سلوكهم ليس في مصلحة المحرومين ، بل بالعكس تراهم يصدون عن سبيل الله و يكنزون الذهب و الفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله.

فما هو جزاء من يكنز الذهب و الفضة ؟ انه عذاب اليم في يوم القيامة حيث يحمى عليها حتى تلتهب في نار جهنم الحامية الشديدة التوقد ثم توضع على جباههم و جنوبهم و ظهورهم حتى تكوى بها ، و يقال لهم : هذا عاقبة الاموال المكنوزة .. اصبحت ضررا عظيما عليكم ، بينما اردتم ان تصبح خيرا ، فذوقوا ما كنتم تكنزون.

بينات من الآيات

المؤامرات على الرسالة:

[32]الاحبــار و الرهبان وكل علماء السوء الذين اتخذوا الدين مطية لشهواتهم . ينصبون من أنفسهم حماة التقاليد الاصيلة و الافكار الرجعية ، و يقاومون كل حركة تقدمية ، وكل رسالة جديدة ، و هذه رسالة الله التي انزلت على خاتم الأنبياء لتكون مبعث ضياء عظيمفي العالم يقف حولها هؤلاء و ينفخون عليها كأنهم يريدون إطفاءها بأفواههم الحقيرة ، فهل يقدرون ؟

]يريدون ان يطفؤوا نور الله بأفواههم[

و حين يضيء الله نورا لا يستطيع البشر ان يوقف إنتشاره ، لان الله القوي العزيز ينشره و يبلغه آماده و أبعاده حتى يحقق اهدافه.

]و يأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون[

أي يمنع الله كل عقبة تعترض طريق انتشار الرسالة حتى تتم الرسالة و تبلغاهدافها .

ان هدف علماء السوء دائما هو إبقاء الناس في الضلالة و تجهيلهم ، و سلب ثقتهم بعقولهم حتى لا يفكروا ولا يعرفوا شيئا . ولكن الله الذي زود البشر بالعقل و بلور و أكمل العقول بالرسالة لا يسمح لانسان أن يفقد بشرا قدرته على الفهم بل يـنبهه ، و يوقظ عقله ،و يذكره بشتى الوسائل حتى يتم حجته عليه ، وآنئذ تكون له الحرية في أن يرفض الاستغلال و يتحدى التقليد الاعمى ولا يستسلم أو يخاف أو يرضى بالخنوع و الذل.

ولعل الآية تشير الى هذه الحقيقة أيضا.

أهداف الرسالة:

[33]الله الذي أرسل الرسالة على يد الرسول ، هو الذي يؤيد الرسالة في تحقيق الهدفين الاساسيين لها وهما:

ألف :توفير فرصة الهداية للناس حتى يتم الحجة عليهم ، و الهدف هو الوصول الى الحقيقة ولا يصل البشر الى الحقيقة الا بالعلم بها و التلسليم القلبي لها ، ذلك لأن العلم الذي لا يشفعه الايمان لا يكفي اذ يبقى الجحود و الغفلة حاجزا بين البشر و بين الحقيقة ،انما عن طريق الايمان ، او بتعبير آخر تسليم القلب للعلم الذي يكتشفه الدماغ يهتدي البشر ، و الرسالة ليست علما فقط بل وقبل ذلك هي تزكية للنفس و تنظيف للقلب عن الحواجز و الحجب حتى يتقبل العلم ، فهي اذا هدى وهذا واحد من هدفي الرسالة.

باء : أما الهدف الثاني فهو : إقامة سلطة الحق . سلطة العدالة و القانون ، سلطة القيم و المبادىء ، و ذلك في مقابل سلطة القوة التي هي شريعة الغاب ، و منطقالجبارين و من الواضح ان المجتمع اما تسوده شريعة الغاب أو شريعة الله .شريعة الحق و. ..

ولأن الله الذي خلق الحياة منح قدرا من الحرية للناس الا ان العاقبة هــي للحق.

]هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون]أي بالرغم من مخالفة المشركين.

الممارسات العملية للاحبار و الرهبان:

[34]لماذا يجوز للانسان ان يسمع كلام الطبيب و المهندس و الخبير العسكري ، و يتبع أوامرهم دون تحقق أو بحث بينما لا يجوز له ان يتبع الحبر أو الراهب اتباعا مطلقا ، أوليس العالم بالدين يشبه الخبير في سائر الحقول ؟

للاجابة ، على هذا السؤال الذي كان مطروحا عند اليهود و النصارى ايضا نستطيع ان نقول استلهاما من القرآن : ان مراجعة الخبير .. أي خبير بحاجة الى أمرين:

الاول :الثقة بانه خبير فعلا ، فانك لا تراجع طبيبا تشك في معرفته بالطب . الثاني : الثقة بامانته وانه لا يخونك ، فرئيس الدولة لا يستقدم طبيبا من الحزب المعادي و قائد الجيش لا يتبع نصيحة ضابط يشك في ولائه.

وكلما كانت القضية التي تراجع فيها أخطر كلما تحتاج الى ثقة اكبر في علم الخبير و أمانته ، ولكن قد يكون البشر غير عارف بأهمية قضيته فيراجع خبيرا من دونثقة كافية كما كانت الحالة عند اليهود حيث انهم لم يعطوا الرسالة أهمية كافية فاذا بهم يراجعون فيها الاحبار ، و الرهبان من دون ثقة كافية ، بل مع علمهم بالمخالفات التي يحكم العقل و الفطرة بانها تتنافى و القبول بهم ، لذلك يذكر القرآن هؤلاء بتلك

المخالفاتالدينية التي تسقط الاحبار و الرهبان من صلاحية الاتباع و التقليد.

]يا أيها الذين ءامنوا ان كثيرا من الاحبار و الرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل]ان أكل مال احد بغير حق أبسط مخالفة يعرفها الجميع فطريا و دون حاجة الى معلومات دينية مسبقة ، و الاعظم من ذلك انهم كانوا يصدون عن سبيل الله ، و سبيل الله هو كل خير ، مثل الدفاع عن المظلومين و المستضعفين و اعانة الفقراء و المساكين ، و العمل من اجل بناء الوطن ، وهكذا ... ان هؤلاء كانوا يصدون عن سبيل الله بدل العمل في هذا السبيل.

]و يصدون عن سبيل الله[

وايضا تراهم يؤيدون التجار الذين يكنزون الذهب و الفضة ، بل هم ايضا قد يصبحون تجارا من هذا النوع.

]و الذين يكنزون الذهب و الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم]ومن يكون عند الله معذبا هل يمكن تقليده و اتباع أوامره ؟؟

[35]اما عذاب الله الذي ينتظر هذا الفريق من الناس فهو : ان ربنا سبحانه سوف يحمي هذه النقود حتى تلتهب ، ثم يضعها على جوانبهم ليحرقوا بها.

]يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم و جنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم]فبدلا من تحقيق هدفهم من الكنز ، وهو الانتفاع به أضرهم و أصبح نارا لاهبة تكوي أطرافهم.

]فذوقوا ما كنتم تكنزون[

ما هو الكنز ؟

سؤال :أي قدر من المال المخزون يعتبره الاسلام كنزا . هل هو الزيادة على حاجة الفرد ؟ أم هو أكثر من أربعة الاف دينار ، أم هو المال الذي لا ينفقه الفرد في سبيل الله ، ولا في بناء المجتمع - صناعيا أو عمرانيا أو زراعيا او تجاريا - ولا يدخره لحاجة شخصيةمحتملة مثل مرض أو عالة . أم ماذا ؟

قد يكون الكنز بالذات حراما للفلسفة المالية التي جاءت في سورة (الأنفال (فان المال قيام للمجتمع فتخزينه من دون فائدة إضاعة لجهود الناس ، و توقيف للحركة الاقتصادية ، أما من يعتبر تخزين المال كنزا مضرا بالمجتمع فان ذلك يحدده القانون حسب الظروف المتطورة ، و ربما كان اختلاف الظروف سببا في اختلاف الاحاديث الماثورة في حرمة الكنز ، مما نذكر طيا بعضها للأهمية البالغة لهذا الموضوع الحساس في ظروف يتحالف فيها ادعياء الدين مع مستغلي الشعوب المحرومة و مصاصي دمائهم وذلك تحت غطاء حق الملكية الفردية التي يقرها الاسلام ، ولكن في حدود المصلحة الاجتماعية ، اما الاحاديث فهي التالية:

ألف : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله: (

"كل مال تؤدي زكاته فليس بكنز وان كان تحت سبع أرضين ، وكل مال لاتؤدي زكاته فهو كنز وان كان فوق الارض "

باء : روي عن علي (عليه السلام: (

"مازاد على أربعة الاف فهو كنز أدى زكاته أو لم يؤدها ، وما دونها فهي نفقة ، فبشرهم بعذاب أليم "جيم : في تفسير علي بن إبراهيم ، ضمن حديث مطول .ان عثمان بن عفان نظر الى كعب الاحبار فقال له : يا أبا اسحق ما تقول في رجل ادى زكاة ماله المفروضة . هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيء ؟ فقال : لا ولو اتخذ لبنة من ذهب و لبنة من فضة ما وجب عليه شيء ، فرفع أبو ذر رضي الله عنه عصاه

فضرب بها رأس كعب ، ثم قال له : يابن اليهودية الكافرة ما أنت و النظر في أحكام المسلمين . قول الله أصدق من قولك حيث يقول) : والذين يكنزون الذهب و الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . (

دال : وفي حديث عن الامام الباقر) عليه السلام: (

"ان الله حرم كنز الذهب و الفضة و أمر بانفاقه في سبيل الله " (١)مادام القانون يحدد المصلحة العامة فان اختلاف الاحاديث يدل على الظروف المختلفة .

(1)تفسير نور الثقلين / ج ٢ / ص ٢١٣. 214 -

لنسيء عقدة الجاهلية ، و الاستنفار ضرورة جهادية

هدى من الآيات

بعد الحديث عن الكفار من اهل الكتاب ، عاد القرآن مرة اخرى للحديث عن المشركين و ضرب لنا مثلا من انحراف الشرك و مسبقا بين حكم الاشهر الاثني عشر التي يعتبر اربعة منها حرما ، و بين ان الالتزام بهذه الاشهر هو الدين القيم ، فيجب الا يظلموا انفسهم فيها وبعدئذ امر المسلمين بقتالهم بلا استثناء ، و وعدهم النصر اذا التزموا بالتقوى.

اما التلاعب باحكام الله ، و تغيير الاشهر - حسب الاهواء - فانه زيادة في الكفر ، و ضلالة يقع فيها الكفار حيث يحلون الشهر ذاته في عام بينما يحرمونه في عام اخر ، ليكون المجموع بقدر العدد الذي جعله الله وهكذا يخالفون تعاليم الله من دون وازع نفســي ، بلزين لهم سوء عملهم لكفرهم المسبق ولان الكفر يحجب الضمير ، و الله لا يهدي القوم الكافرين.

و يخاطب القرآن المؤمنين : لماذا لا يخفون الى القتال حين يؤمرون به ؟ هل مناجل الاكتفاء بالدنيا و الرضا بها .بينما قيمة الدنيا في حسابات الاخرة قليل جدا ؟

بينات من الآيات

الاشهر الحرم و الاهواء الجاهلية:

[36]الشهور في السنة اثنا عشر شهرا ، فالقمر يبدأ هلالا و ينتهي الى بدر ،ثم يتناقص حتى يغيب قبل ان يظهر مرة اخرى هلالا ، كل ذلك خلال ثلاثين نهارا ، و يتكرر هذا الامر كل شهر اثنا عشر مرة ، وعلينا - نحن البشر - ان نوافق أعمالنا حسب سنن الطبيعة لا حسباهوائنا ، و سنن الطبيعة هي الحق التي خلق الله السموات و الارض عليها ، ومن مظاهر الجاهلية العمل حسب الاهواء العاجلة دون تفكير في ظروف الطبيعة أو حتى دون معرفة بها و القرآن خالف ذلك قائلا:

]ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات و الارض]ففي كتاب الطبيعة كما كتاب التشريع ، ومنذ ان اوجد الله الكون جعله جاريا على نظام ثابت متين و علينا اكتشاف هذا النظام فنسعد بالتوفيق معه ، والا فان ذلك يسبب لنا متاعب كثيرة ينهانا الله عنها و ينصحنا بعدم التورط فيها.

]منها اربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن انفسكم]و المشركون هم الذين يخالفون هذه الحقائق الكونية ، و علينا قتالهم لتصحيح مسارهم ؛ كما انهم يعتبرون عقبة في هذا السبيل بطبيعة جهلهم و فساد نظامهم.

]وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة[

اذا السبيل مختلف.

]و اعلموا ان الله مع المتقين[

الملتزمين بمناهج الاسلام التي هي حالة مخالفة للعمل بالاهواء.

ما هو النسيء ؟

[37]إن تغيير احكام الله مثل حكم الأشهر . و سائر الاحكام وذلك حسب مشتهيات هذا الحاكم او ذاك ، و شيخ هذه العشيرة و رئيس تلك الجماعة ، فانه زيادة في الكفر.

]انما النسيء زيادة في الكفر[

والنسيء بمعنى التأخير يقال : نسأت الابل في ظمئها يوما او يومين أو اكثر من ذلك و المصدر النسيء ، و جاء في التفسير : كانت العرب تحرم الشهور الأربعة وذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم و اسماعيل وهم كانوا اصحاب غارات و حروب ، فربما كان يشق عليهم ان يمكثوا أشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا يقررون تاخير المحرم الى الصفر فيحرمونه و يستحلون المحرم فيمكثون بذلك زمانا ثم يزول التحريم الى المحرم ولا يفعلون ذلك الا في ذي الحجة . (١)النسيء زيادة في الكفر:

و يبقى سؤال : لماذا يعتبر ذلك زيادة في الكفر ؟

ربما لأن الاعتداء الذي كان الجاهليون يغيرون الأشهر من أجله هذا الأعتداء حرام بذاته فاذا غيروا حكما شرعيا و عقدا اجتماعيا توافقوا عليه من أجل الاعتداء(١) مجمع البيان / ج ٥ / ص ٢٩.

فان ذلك يعني تجاوز كل القيم و المقدسات دون تغييرها ، ومع الاعتراف بان الحرب فيها خطأ يرتكبونه ، ولكن لماذا كان الجاهليون يغيرون الأشهر الحرم للقيام بالأعتداء على بعضهم ؟

لأنهم كانوا يحاولون التخلص من وخز الضمير ، ولومة المؤمنين بالشرائع . تماما كما يفعل الطغاة اليوم حيث يلبسون جرائمهم ثوب الشرعية فيلاحقون المطالبين بحرياتهم و حقوقهم تحت شعار المحافظة على الأمن ، و ربما بأسم الدين أيضا ، أو يضعون قوانين ثم يحاكمون الناس على أساسها في الوقت الذي لا يملكون حق اصدار القوانين بل هذا بذاته أكبر الجراثيم بحق الشعب.

وهكذا يصبح التبرير الذي يتذرع به المجرمون دافعا لهم نحو المزيد من الجريمة ، و التخلص من روادع الجريمة النفسية و الاجتماعية باسم ذلك التبرير . و لذلك اكد القرآن هنا : ان النسيء ليس زيادة في الكفر فقط بل هو سبب للضلالة و الانحراف ايضا:

]يضل به الذين كفروا[

انهم كانوا يحلون ذات الشهر (مثلا : شهر ذي الحجة) في هكذا العام بينما يحرمونه في العام الاخر حسب خططهم الحربية ، وهكذا كانوا يتلاعبون بالشرائع و القوانين.

]يحلونه عاما و يحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله]اي ليجعلوا الاشهر الحرم أربعة كما قال الله . ولكن بعد تغيير محتواه حسب أهوائهم.

]فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء اعمالهم[

زين لهم الاعتداء . حتى غيروا أحكام الله من أجله ، وهكذا لو جعل الفرد هدفه غير مرضاة الله وغير أحكام الله للوصول اليه و برر فعلته الاجرامية . بأن الغاية تبرر الوسيلة.

بيد أن العملية كلها تسبب الضلالة و الجحود لأن القلب البشري الذي يستهدف الوصول الى مطامع ذاتية لا يبحث عن الحقيقة ، فلا يهتدي اليها.

]و الله لا يهدي القوم الكافرين[

ذلك لأن الكفر - وهو هنا المخالفة العملية للواجبات - يؤثر على العقل فيسلب منه نور المعرفة.

[38]قلنا ان أهم شيء يحدد فكر البشر و سلوكه هو هدفه الذي زين له فعشق الوصول اليه فاذا كان هدفه الله و اليوم الاخر فانه كما السائق الرشيد يقود سائر العجلات و الاجهزة في سيارة الحياة على الطريق السليم وإلا فان كل العجلات تسير في طريق الانحراف و الهلاك . وهكذا ضل الكافرون ضلالا ، وهكذا يضل المؤمنون اذا لم يحذروا و يتقوا و يخلصوا أهدافهم ، فلو كان هدف الفرد المتعة في اللحياة الدنيا لترك الجهاد في سبيل الله خوف الموت . وتثاقل عن تنفيذ أوامر الله.

]يا ايها الذيــن ءامنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض]أي تثاقلتم و تباطأتم ، و بررتم بتبريرات هدفها تاخير الحرب . مرة تقولون : الان وقت الحر القائض . أفلا ننتظر حتى يعتدل الجو ، و مرة تقولون : البرد شديد فلننتظر قليلا حتى تخف وطأته ، ومرة تبررون بعدم الاستعداد الكافي للمعركة .

و النفور و التحرك في سبيل الله لا يختص بالحروب . اذ كل سعي نفر كماجاء : (النفر :الخروج الى الشيء لامر هيج عليه . ومنه نفور الدابة) . (١)ومما يؤسف له ان الكثير منا يبطىء العمل في سبيل الله بحجة أو باخرى ، و الحجج كلها باطلة و السبب الحقيقي كامن في حب الدنيا.

]أرضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة فما متاع الحياة الدنيا في الاخرة الا قليل]ان المؤمــن الواعي يجب ان يكون مقتلعا من الارض . متحررا من جاذبية المادة . مندفعا في الاتجاه السليم الذي يأمر به الله لان المتعة البسيطة في الدنيا لا تعادل ابدا راحة الاخرة . ان الدنيا زائلة قصيرة و المتعة فيها مشوبة بالصعاب بينما الاخرة باقية خالدة و متعتها خالصة لا يشوبها خوف أو حزن.

سنة التحرك في الحياة:

[39]التيار الرسالي يندفع في الحياة ، كما سيل جارف يرعاه رب السماء ، و تحركه كل سنن الحياة و انظمتها ، فاذا تركت أنا الجهاد فانما أشذ عن حركة عظيمة و أهلكت نفسي.

]الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما[

فالراحة المنشودة من وراء ترك السعي و التحرك تتبدل بعذاب اتجرع ألمه.

]ويستبدل قوما غيركم[

و التعزز و الأنفة يسببان الاستغناء عني و عزلي عن شرف المسؤولية.

(1)المصدر ٣٠.

]ولا تضروه شيئا[

واذا فكرت في الانتقام فلا استطيع ان انتقم من الحق ابدا.

]و الله على كل شيء قدير[

اذ هو القادر على ان يسلب مني كل قوة اوتيتها فلم استخدمها في سبيل تنفيذ اوامره فماذا يبقى لي غير خزي الدنيا و عذاب الاخرة.

قصة الهجرة و الانتصار:

[40]هل انتصرت الرسالة بي ، فحين كنت بعيدا عنها سادرا في الغفلة و الجهل من الذي نصر الرسالة أو ليس الله ؟! فلماذا التعزز عليها ؟!

]الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا]من مكة المكرمة ، زاعمين : ان هذا الاخراج يؤثر في مسيرة الرسالة التصاعدية.

]ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه[

وهو أبو بكر حيث خرج معه للهجرة.

]لا تحزن ان الله معنا[

مطلع علينا محيط علمه و قدرته و لطفه بنا فلماذا الحزن و لماذا القلق.

جاء في التفاسير : قال الزهري : لما دخل رسول الله و أبو بكر الغار أرسل الله زوجا من الحمام حتى باضا في أسفل الثقب ، و العنكبوت حتى تنسج بيتا فلما جاءسراقة بن مالك في طلبهما ورأى بيض الحمام و بيت العنكبوت قال : لو دخله أحد لا نكسر البيض و تفسخ بيت العنكبوت فانصرف.

]فانزل الله سكينته عليه[

على رسول الله الذي تحمل ثقل الرسالة ، وهكذا من يحمل الرسالة و يثبت فان الله يبعث في قلبه الاطمئنان و الدعة حتى لا تهزه الحوادث المتغيرة أو المشـاكل الطارئة.

]وايده بجنود لم تروها[

هي جنود الملائكة في الغزوات ، كما انها جنود الحق المجندة في هذا الكون الرحيب ، والتي لا يراها البصر العادي . ان سنن الحياة و انظمة الكون كلها تدعم رسالة الحق و صاحب هذه الرسالة ولكن لا يشعر بها أحد.

]وجعل كلمة الذين كفروا السفلى[

لانها لا تعتمد على قاعدة صلبة ، أو أساس متين إنها تعتمد على الكفر بالحقائق و جحودها ، فكيف تثبت ؟[و كلمة الله هي العليا[

لقد خلقت كلمة الله هكذا .. انها هي العليا ، وهي المنتصرة اخيرا.

]و الله عزيز حكيم[

فبعزته يجعل كلمة الكافرين السفلى بعد ان منح لهم الحرية لبعض الوقت حتى يبتليهم و يمتحن قدرة المؤمنين على الاستقامة ، و بحكمته يدبر أمور الكون.

التعبئة العامة و تبريرات المنافقين
هدى من الآيات

يجب الجهاد بأية صورة ممكنة بالنفس و المال . بيد ان البعض يزعم ان الجهاد سفرة سياحية أو مكسب عاجل ، و حين يكتشف ان الجهاد يتطلب طي مسافات متباعدة يتركه و يحلف بالله انه لا يقدر عليه ، وانه لو استطاع الجهاد ما تركه ، بيد انهم لا يضرون الا بانفسهم ، وعلى القيادة الاسلامية ان تتخذ الجهاد وسيلة لكشف العناصر الضعيفة و المنافقة فلا تأذن لمن يستأذنها في ترك الجهاد . ذلك لان المؤمنين لا يستأذنون القيادة لانهم يتطلعون نحو الجهاد بانفسهم و اموالهم ايمانا منهم بالله و اليوم الاخر ، والله عليم بهم.

و الكفار الذين لا يؤمنون بالله و اليوم الاخر او يرتابون في ذلك هم وحدهم الذين يستأذنون.

بينات من الآيات
الاستنفار و الجهاد:

[41]يجب النفر على الجميع بقدر استطاعتهم فقد يكون شابا نشيطا غنيا ليست لديه علاقة عائلية أو اجتماعية أو اقتصادية ، أو يكون شيخا أو ضعيفا أو فقيرا ذا عائلة كبيرة و علاقات اجتماعية و اقتصادية تثقله عن الخروج.

و التحرك من أجل الله قد يكون جهادا أو عمرانا أو تمهيدا للجهاد ، لذلك اكد القرآن على الخروج بصفة عامة و بصورة خاصة.

]انفروا خفافا و ثقالا[

أي سواء شق عليكم النفر أو لا ، و قد يفسر النفر الخفيف بالسرايا المتحركة ذات المجموعات الصغيرة ، بينما النفر الثقيل هو تحريك الجيش باسلحته الثقيلة ، واذا صح هذا التفسير فانه يعني ان الجهاد أو العمران أو أي تحرك ، جماعي من أجل الاسلام ليس من مسؤولياتالدولة فقط وانما كل مجموعة قادرة على القيام بمهمة رسالية فان عليها ان تبادر من أجل تحقيقها.

]و جاهدوا باموالكم و انفسكم في سبيل الله[

و الجهاد بالمال يعني بذل كل فائض مالي يمكن أن يبقى عند المسلم بعد الانفاق على نفسه حسب القناعة و الزهد ، فالعامل الذي يقدر على الاكتفاء بثلثي اجره يحتفظ بالثلث الاخر ليجاهد به في سبيل الله ، و الموظف القادر على الاكتفاء بنصف راتبه يصرف النصف الاخرفي سبيل الله ، و المدير الذي يتمكن ان يعيش بثلث مدخوله يصرف الثلثين الباقيين في سبيل الله ، وهكذا يعتبر الجهاد بالمال زيادة على مجرد انفاق الضرائب المفروضة على كل مسلم و في الظروف العادية كالزكاةو الخمس انه اجهاد النفس في الاقتصاد وذلك بهدف الادخار من أجل الهدف المقدس.

وقد نقوم بالجهاد المالي بطريقة اخرى وهي ان يتطوع الواحد منا بعمل ثلاث ساعات اضافية في اليوم لمصلحة الاسلام.

أما الجهاد بالنفس فليس فقط بالشهادة في سبيل الله في لحظة المواجهة . بل و أيضا بالعمل الجاد في سبيل الله ، عملا يستنفذ الجهد ، وحتى لو كان عن طريق التطـوع بيوم عمل كل اسبوع لتحقيق هدف عمراني مثل بناء الجسور و تمهيد الطرق ، و اصلاح الاسلاحة و صنع الوسائل الحربية و العمرانية.

و الجهاد بالمال والنفس يكون في مرحلة الاعداد للمعارك ، و لذلك قدم هنا الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس لان الرأسمال ضرورة أولية لأي إعداد حربي .

و الامة التي تجاهد في سبيل الله تبني مستقبلها ، و تشيد صرح استقلالها ، و تحقق احلامها في المدنية و الرفاه . بينما المجتمع الاناني الذي يعمل كل فرد من اجل ذاته و مصالحه الخاصة ، يتحطم في أول مواجهة مع عدوه أو ينهار عند نزول الكوارث الطبيعية ، و يذوبإستقلالها في غمرة الصراع الحضاري . من هنا كان الجهاد خيرا للامة من التقاعس ، و يحتاج الناس الى العلم بحقيقة الجهاد وانه يعود عليهم بالنفع لانه يحفظ استقلالهم و يبني حضارتهم . ان هذا العلم يدفعهم للمزيد من التضحية و الجهاد لذلك

قال ربنا:

]ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون[

موقف المنافقين:

[42]بيد ان الجاهلين يريدون الجهاد سفرة قريبة أو غنيمة حاضرة ولو كانكذلك لكانوا أول المبارزين ، ولكن الجهاد عمل شاق ولا يريدونه.

]لو كان عرضا قريبا و سفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة]القاصد هو السبيل الذي يقصد لقربه و سهولته . بينما الشقة هي المسافة البعيدة أو الوعرة التي من الصعب تجاوزها و السير فيها . يتعلل المنافقون على ذلك بانهم لا يقدرون القيام بالاسفار البعيدة.

]و سيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم[

وهكذا كل كسول يزعم انه لا يقدر على القيام بأي شيء.

]يهلكون انفسهم[

بسبب كسلهم و تقاعسهم عن الجهاد . اذ ان الكسل عن العمل يفقد صاحبه قدراته و مهاراته ، كما يفقده فوائد العمل و مكاسب الجهد الخارجية.

]و الله يعلم انهم لكاذبون[

وعلى البشر ان يسعى حتى لا يكون ممن يعلم الله كذبه ولا يكون ذلك الا بالاخلاص في العمل ، وزيادة الجهد و العمل قدر المستطاع.

تعرية الطبقات الفاسدة في المجتمع :

[43]من فوائد الجهاد و الاعمال الصعبة التي يكلف بها المؤمنون فرز العناصر الكسولة المتجمعة حول الرسالة طمعا في الجاه و المال . ذلك لان تواجد هؤلاء في مجتمع الرسالة يربك القيادة ، و يضعف المجتمع فلا تستطيع القيادة اعطاء اوامر حاسمة لعدم ايمانها بتنفيذها ، كما لا يستطيع المجتمع تنفيذ الخطط الطموحة ،و غالــبا ما تكون هذه العناصر المتملقون الذين يشغلون المناصب الحاسمة في المجتمع ، فعن طريق تكليفهم بالواجبات الصعبه و عدم قيامهم بها يتم تعريتهم ومن ثم تصفيتهم . لذلك يعاتب الله رسوله على اعطاء هؤلاء اذنا بعدم الاشتراك في الجهاد حيث كان ذلك الاذن غطاء لعدم كشفهم على واقعهم أمام المجتمع.

]عفى الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا و تعلم الكاذبين][٤٤] ذلك لان المؤمنين لا يتركون الجهاد فيعرف المنافقون التاركون للجهاد تحت غطاء الاستئذان.

]لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله و اليوم الاخر ان يجاهدوا بأموالهم و انفسهم و الله عليم بالمتقين]الذين يخشون الله لا يتركون الجهاد الا بعذر حقيقي.

] [45]انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله و اليوم الاخر وارتابت قلوبهم [ففي كثير من الاحيان يزعم الانسان انه مؤمن بينما قلبه مرتاب يشك في الله و اليوم الاخر.

و الاعمال الصعبة كفيلة بكشف هذا الانسان لنفسه و للاخرين ، و الريب ينعكس في عدم القدرة على اتخاذ القرار الحاسم و التردد في الامور.

]فهم في ريبهم يترددون[

أي يقلبون الامور و يذهبون و يعودون.

هكذا تقاعس المنافقون عن الجهاد

هدى من الآيات

لايزال الدرس هذا يبين لنا صفات المنافقين و تصرفاتهم في الحرب ، و يعطينا عدة مقاييس لتمييزهم و كشف كذبهم:

الف :ان المنافقين لا يريدون الجهاد بدليل انهم لم يعدوا له عدة ، ولو أرادوا الخروج للحرب لهيأوا وسائله سلفا ، لذلك ثبطهم الله و سلبهم عزيمتهم و جعلهم يقعدون مع الذين لا يملكون قدرة الخروج.

باء : ولو تحاملوا و خرجوا للحرب فلا يهدفون فعلا الجهاد ، بل كانوا كلا و عناء للمسلمين.

جيم : وفي ارض المعركة يثيرون الفتنة و يفسدون علاقة المؤمنين ببعضهم باثارة النعرات الجاهلية ، و الحساسيات الباطلة.

دال :وهم بالتالي جواسيس و عيون للاعداء على المؤمنين ، و الله يعلمهم و يعلمطبيعتهم الظالمة و الدليل على هذه الحقائق تأريخهم السابق حيث كانوا من قبل يحاولون اثارة هذه النعرات ، و تغيير مسار الاحداث باتجاه مضاد للرسالة ، ولكن الله اظهر أمره باذنه وهم كارهون.

ومن المنافقين من يقول للرسول : اعطني اذنا بالتخلف عن المعركة حتى لا اضطـر الى تـرك امرك و عصيانك بينما هذا الاستئذان ذاته عصيان و تخلف عن الواجب ، وان جهنم محيطة بالكافرين ، فسواء خرجوا او تخلفوا فانهم في النار لانهم أساسا من الكافرين . و الكافرلا يصلح عملا ولا يفلح مصيرا.

هاء : ومن علامات المنافقين انهم يفرحون كلما ينهزم المسلمون و يحزنون كلما ينتصرون .و يزعمون ان انفصالهم عن ركب الرسالة دليل على كمال عقلهم و حذرهم حيث لن يصيبهم ما أصاب المؤمنين ، و يقول ربنا ان المصائب مكتوبة على الانسان و مقدرة من قبل الله سبحانه، و المؤمنون لا يخشون المستقبل لانهم يتوكلون على ربهم ، و نهاية ما يمكن ان يصيب المؤمنين هو القتل في سبيل الله وهو احدى الحسنين ، اما الانتصار فهو عاقبة حسنى معروفة ، بينما المنافقون إما يموتون فيعذبون عند الله او يبقون فيعذبون على يد المؤمنين . اذاالوقت في صالح المؤمنين و النهاية لهم على أية حال.

بينات من الآيات

ما هو الجهاد ؟

[46]هناك جدل كبير في علم أصول الفقه حول هذا السؤال : هل يجب تهيئة الوسائل الضرورية لتنفيذ الواجبات أم لا ؟ بيد ان العقل يحكم بانك حين تريد الوصول الى القمة فعليك ان تتسلق الجبل ، ولا معنى أساسا لقرارك هذا الا الاندفاع في الطريق الذي يوصلك الى هدفك و هو بلوغ القمة ، وهل يعني ضرورة وجود

المسكن إلا القيام عمليا ببناء البيت أو شرائه .. هل يعني الحصول على شهادة الماجستير الا الدراسة المستمرة في الجامعة ؟!

ان الواجب ليس نهاية السعي . بل ان الواجب هو السعي ذاته الذي ينتهي بالطبع الى النهاية او يعذرك اذا لم تصل الى النهاية بسبب خارج عن إرادتك.

و يذكرنا القرآن بهذه الحقيقة الواضحة عقليا و يقول : ان الجهاد لا يعني الا توفير وسائله فالجهاد ليس فرضا موهوما او تصورا جامدا . الجهاد هو مجموعة اجراءات عملية متدرجة ينبعث نحوها المؤمن يوما ،

وفيما يلي نذكر بعض هذه الاجراءات : -ألف : الجهاد يعني الاستقلال عن الاخرين وعدم الخضوع لاوامرهم أو لضغوطهم ، و بالتالي إعلان الصراع معهم.

باء : و يعني توفير فائض من الجهد ليدخره المجتمع من أجل إدارة الصراع ، و القيام بضروراته . ذلك لان الاستقلال يعني المحاصرة الاقتصادية و الضغوط السياسية ، و نقص الثمرات و عدم التبادل التجاري مع اطراف اخرى غير الاعداء وذلك بسبب عدم أمن الطرقات ، و يعني الاستقلال و بالتالي الاكتفاء الذاتي في كثير من الحقول . وهذا لا يكون الا بجهد إضافي.

كما يعنـي الجهـاد ادخار المؤن ، و صنع السلاح و الذخيرة ، و تموين الجيش ، و تمويل المؤسسات العسكرية ، وكل ذلك بحاجة الى فائض من الجهد.

جيم : الجهاد يعني في بعض المراحل تطوير الاقتصاد لكي يكون اقتصاد حرب يستخدم كل شيء من أجل المعركة باستثناء الضرورات الحياتية.

دال :و الجهاد يعني : التدريب المتواصل لكل القادرين على حمل السلاح أولا أقل للجيش المحارب ، و التدريب بدوره قد يطول سنينا و اعواما من تدريب القادةو الضباط والى تدريب الفرق الخاصة وحتى تدريب الجنود العاديين.

هاء : و الجهاد بحاجة الى تقوية الروح المعنوية ، و شحذ العزائم ، و اعداد النفوس لتحمل الصعاب.

وهكذا يكون شكل المجتمع المحارب مختلفا كليا عن شكل المجتمع السادر في غياهب الاستسلام و التخلف ، لذلك اكد القرآن على هذه الحقيقة بالنسبة الى المنافقين الذين يتشدقون بالمعركة دون ان يصدقوا لعدم القيام بالاعداد لها .

]ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة [

و الدليل على صدق النية ، و سلامة العزيمة الاندفاع نحو الهدف.

]ولكن كره الله انبعاثهم[

ٍ أي اندفاعهم و تحريك الارادة لهم.

]فثبطهم[

أي افقدهم ارادتهم و اقعدهم الارض .

]وقيل اقعدوا مع القاعدين[

الذيــن لا حــول لهم ولا قوة ولا فرق بين العاجز عن التحرك ، و المثبط الذي لا يملك ارادة التحرك.

وهكذا نجد اليوم العالم الاسلامي يتحدث عن الاستقلال دون ان يهيء وسائله او يتحدث عن محاربة " إسرائيل " دون ان يعد نفسه جديا لهذه الحرب.

الطابور الخامس:

[47]المنافقون لا يخرجون للحرب ، اما لو خرجوا فليس للحرب ضد العدو ، بل ضد المسلمين و ذلك بطرق:

اولا : انهم سوف يطالبون القيادة ابدا بالسلاح و الوسائل الرفاهية حتى يتعبوا القيادة و يكونوا زيادة عناء

فوق عناء الحرب.

]لو خرجوا فيكم[

أي في صفوفكم.

]ما زاداوكم الا خبالا[

أي عناء ، يقول العرب : هو خبال على أهله . أي كل عليهم ، وكل عناءيفسد ولا يصلح لانه يمتص الجهود دون أن يقدم شيئا لذلك فسر الخبال هنا بالفساد و العجز.

ثانيا : انهم مسارعون الى الفتنة ، و الفرقة بين المسلمين ، بل انهم يسارعون بين الصفوف ينقلون لهذا كلاما ضد ذاك ، فاذا غضب و بدرت منه كلمة ضخموها و حملوها الى الاخرين.

انهم بالتالي يقومون بدور الطابور الخامس للعدو.

]ولا أوضعوا خلالكم[

الكلمة مأخوذة من الايضاع يقال : اوضع الابل في سيره أي أسرع و الخلال يعني في صفوفكم.

أي انهم يسرعون بين الصفوف بهدف الفتنة.

]يبغونكم الفتنة[

أي يريــدونكم ان تتحولوا الى قطعة من الخلافات الداخلية و البرود عن المعركة.

ثالثا : ان هؤلاء جواسيس للأعداء عليكم.

]وفيكم سماعون لهم و الله عليم بالظالمين[

وكل ظالم ينتهي مصيره الى هذه العاقبة ، وهكذا علينا الا ننظر الى ظواهر الاشخاص ، بل نفكر في تأريخهم و سلوكهم السابق و كيف انهم كانوا يعملون سابقا فانهم يعملون ذلك مستقبلا.

مراجعة السوابق:

[48]يذكرنا القرآن بماضي المنافقين الاسود ، و كيف انهم كانوا في أيام السلم يقلبون الامور لرسول الله (ص) ، و يصورونها تصويرا مقلوبا.

]لقد ابتغوا الفتنة من قبل و قلبوا لك الامور[

جاء في التفاسير و قلبوا لك الامور : أي صرفوها من أمر الى أمر ، ودبروا لك الحيل و المكائد ، و منه قول العرب حول قلب ، اذا كان دائرا حول المكائد و الحيل يدير الرأي فيها و يتدبره . (١)وجاء : وقلبوا لك الامور : أي احتالوا في توهين أمرك و ايقاع الاختلاف بين(١) الفتح القديم / ج ٣ / ص . 367

المؤمنين وفي قتلك بكل ما أمكنهم فلم يقدروا عليه ، وقيل :انهم كانوا يريدون في كيده وجها من التدبير فاذا لم يتم ذلك فيه تركوه و طلبوا المكيدة في غيره فهذا تقليب الامور عن أبي مسلم . (١)و اتصور ان تقليب الامور للرسول (ص) (ولم يأت عليه) يعني : تبيانها بصورة غير صورتها الحقيقية وذلك

للاشارة الى مدى كذب هؤلاء على الرسول (ص) و تمرسهم في الاشاعات الباطلة و الله العالم.

ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل فهذا الدين قد ظهر ، وذابت تلك الاشاعات في حرارة الانتصار و تحقق الرسالة.

]حتى جاء الحق و ظهر امر الله وهم كارهون[

كانوا يحاولون ابدا تحوير الحقائق باقوالهم و اطفاء نور الله بما يخرج من افواههم من الفاظ فارغة لا تعني شيئا.

واقع المنافقين:

[49]ان بعض المنافقين يريدون تطويع الدين لشهواتهم و اهوائهم و يطالبون القيادة الدينية بان تسمح لهم بارتكاب بعض المحرمات . زعما منهم ان لهم الحق في ذلك و يهددون القيادة بانها لو لم تأذن لهم بمثل ذلك لتركوا الدين و لخالفوا أوامـر الله ، و تكون الخطيئة على عاتق القيادة التي استصعبت عليهم الامور ، فهل هذا صحيح ؟ كلا : اذ ان الدين هو المهيمن على تصرفات البشر ، و القائد لمسيرته لا العكس كما يريده المنافقون ، و بالتالي يجب ان يتبع الدين لا ان يتبع ، ومن جهة(١) مجمع البيان / ج ٥ / ص ٣٦

اخرى محاولة المنافقين بتطويع الدين لشهواتهم و مطالبتهم بالاذن لمخالفة تعاليم الدين . هذه المطالبة ذاتها خروج عن الدين و كفر به . اذ ليس بدين ذلك الدين الذي يتخذ مطية لأهواء المنافقين.

]ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني [

أي لا تمتحني و تجبرني على ترك واجب الجهاد ، بل ائذن لي بتركه حتى يكون تركي للجهاد مسموحا شرعيا.

]الا في الفتنة سقطوا[

وأي فتنة أكبر من الاستئذان بترك الجهاد.

]وان جهنم لمحيطة بالكافرين[

فان سيئات أعمالهم و ما كسبته قلوبهم و انفسهم من الرذائل و الخطايا هي بذاتها نيران كامنة في صورة نيران ملتهبة ، أو عقارب و حيات في يوم القيامة وما دام البشر قد اختار طريقا منحرفا فان كل أعماله ستكون وبالا عليه . كما اذا اتخذ قائد الجيش استراتيجية خاطئة فان أساليبه و علمياته ستكون كلها باطلة و غير نافعة.

معرفة المنافقين بعد الانتصار:

[50]بسبب كفر المنافقين و عدم ايمانهم بالله و بالرسالة يرون انفسهم منفصلين عن المجتمع الرسالي ، فاذا غنم المسلمون شيئا حزنوا لانهم لم يكونوا معهم حتى يغنموا مثلهم ، وان خسر المسلمون المعركة و انهزموا فرحوا زاعمين ان تخلفهم عن المعركة كان بسبب صحةمواقفهم و سلامة عقولهم ، و ازدادوا بذلك ابتعادا عنالجبهة الاسلامية.

]ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا امرنا من قبل]أي كنا عارفين بالعاقبة ، وقد

اتخذنا الاحتياطات اللازمة لمواجهة الموقف وذلك بعدم الاشتراك في الجبهة.

]و يتولوا وهم فرحون[

لانهم في زعمهم لم يخسروا شيئا.

وهكذا يعمل المؤمن و يجلس المنافق يراقب الموقف ليعلق على النتائج.

كيف نتصرف عند المصائب ؟

[51]ولكن هل الخسائر التي تلحق الرساليين في ساحة المعركة كلها خسائر . أم انها اقدار كتبها الله عليهم لحكمة بالغة . فدماء الشهداء تكرس في المجتمع القيم الرسالية واذا لم يقتل الشهداء فانهم لا يخلدون في الحياة بل كانوا يموتون بسبب او باخر ولكن حين استشهدوا و اريقت دمائهم من أجل الرسالة جرت تلك الدماء الزكية في عروق الاخرين لتتحول الى عزيمة راسخة و صلابة و استقامة.

وهكذا الخسائر المادية زكاة لأموال المسلمين ، و الجهود المبذولة زكاة لابدانهم تطهرهم و تؤهلهم لمسؤولياتهم القيادية .

لذلك قال ربنا:

[قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا]

فلا حزن مما كتب الله.

ثم ان الله الذي قدر علينا المصيبة هو صاحب النعمة التي سلبها فليس علينا ان نناقش ربنا فيما يكتبه و يقدره.

[هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون]

لذلك فهم لا ينهزمون نفسيا مما يقدر الله عليهم من الهزائم ، بل يعلمون ان الهزيمة خطوة الى الوراء ، و خطوتان الى الامام باذن الله ، و بفضل التوكل عليه.

النصر أو الشهادة:

[52]و أسوأ الاحتمالات عند المنافقين يعتبر عند المؤمنين أحسن الاحتمالات ، أو ليس الموت آخر ما يخشاه المنافقون ، ولكنه أفضل ما يتمناه المؤمنون أما النصر فهو أمل الجميع و قد يبلغه المؤمنون.

[قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنين]

أما النصر أو الشهادة في سبيل الله .

[ونحن نتربص بكم[

و ننتظر لكم واحدا من عذابين فاما العذاب في الدنيا بهزيمتكم ، واما العذاب في الاخرة وذلك بالنصر الظاهر لكم في الدنيا و زيادة ذنوبكم و تحولها الى عقاب شديد في الاخرة.

[ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بايدينا فتربصوا انا معكم متربصون]فالجميع ينتظر العاقبة ، و الفارق ان الرساليين سيربحون الموقف اما الكفار و المنافقون فانهم سوف يخسرونه لا محالة باذن الله تعالى.

المنافقون و التظاهر بالدين

هدى من الآيات

إستمرارا للحديث عن سلوك المنافقين في الحرب ، يبين هذا الدرس موقف المنافقين من المال وكيف انهم لا ينسون انفسهم كما يفعل المؤمنون ، بل لا يزالون حريصين على المال فلا ينفقون منه ولا يتقبل الله منهم نفقاتهم ، لانهم يعطونها رياء ، وأما أموالهم و أولادهم فهي عذاب لهم في الدنيا و غرور يدفعهم نحو الاستمرارفي الكفر.

ان علاقة المنافقين بالمؤمنين تحددها مصالحهم الخاصة ، فاذا وجدوا مغانم و مكاسب بادروا الى تسجيل أسمائهم مع المؤمنين وإلا تهربوا من المجتمع المسلم و ذهبوا الى شياطينهم ولكن مع كل ذلك تراهم يحلفون بالله ابدا انهم من جماعتكم ، و الواقع انهم مع مصالحهمولذلك تراهم كل يوم مع جماعة.

بينات من الآيات

إنفاق المنافقين رياء أو خوفا:

[53]جاء في بعض الاحاديث ، ان ابليس قال لربه بعد ان امره بالسجود لآدم : اعفني عن ذلك وساقوم بسجدة لك طولها أربعة الاف عام . قال له الله :اني أريد الطاعة ولا أريد العبادة.

وهكذا أحكام الشريعة ليست مطلوبة بذاتها بل انها في حدود الاوامر التي تفرضها فمثلا لو تركت صلاة الصبح وهي ركعتان عمدا ، ثم صليت بدلا عنها عشر ركعات في غير وقت الصبح فان ذلك لن يقبل منك وتكون آنئذ مثل من لا يحمل جوازا عند مروره على الحدود الخارجية للبلد ولكنه يظهر جوازه عند شراء الحاجيات من المحلات التجارية فهل ينفعه ذلك ؟!

و المنافقون لا يطيعون الاوامر القيادية ثم يقومون ببعض العبادات التي لا تؤثر على مواقفهم فلا يقبل ذلك منهم ، فهم يتمردون على أمر القيادة بالجهاد ، ولكنهم يريدون تعويض بالانفاق مكان حضورهم في الجبهة فان الله لا يتقبله.

]قل انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين]فالفاسق الذي يرفض الانقياد لاوامر السلطة الشرعية لا تقبل منه نفقاته لان هذه النفقات ليست لله بل لتعزيز مكانته و شراء ذمة السلطة لئلا تضرب مصالحه ، ومثل هؤلاء في بلادنا مثل بعض الرأسماليين و الاقطاعيين الكبار الذين يحاولون شراء ذمة الجهات الدينية والثورية بدفع بعض المال تحت واجهة التبرعات ، وما هي بتبرعات ولكنها رشوة (!) وعلى تلك الجهات ان ترفض تلك التبرعات أو تقبلها دون أن تتقبلها بل تبقى في عدائها المستمر للاستغلال والا بتزاز ، حتى بعض الدولالغنية تقوم ظاهرا بدفع مبالغ لهذه الثورة أو تلك باسم خدمة الانسانية ، ولكنها تستغل جماهيرها و ثروات بلدها لمصلحة شياطين الدنيا . ان على الثورات ان تتفهم دوافع النفاقات التي يعطيها البعض و تتحذر من شرك الرشوة و الفساد.

[54]و يفصل القرآن دوافع المنافقين من الانفاق والسبب الذي يرفض الله تقبل انفاقهم من أجله.

]وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله و برسوله]فلم يطبقوا واجبات التسليم للسلطة الشرعية.

]ولا ياتون الصلاة الا وهم كسالى [

فلم يتجذر الايمان في نفوسهم وانما يصلون للعادة او للرياء.

]ولا ينفقون الا وهم كارهون[

انفاقهم انما هو بسبب خوفهم من السلطة او محاولتهم شراءها فحتى لو كان الانفاق طوعا فان دافعه ليس الايمان بل الخوف ، فهو مثل من يخاف من الاقامة في بلد فيبيع بيته ليهرب بنفسه فالبيع ظاهرة طوعية . اذ انه يقدم عليها بلا اجبار و يتوسل بالناس أن يشتروا منهبيته و يفرح لو وجد من يشتريه منه بأي ثمن ، ولكن مجمل العملية يكون بالاكراه لان الدافع الاساس للبيع هو الخوف.

و ربما كان في الآية الاولى دلالة على ان الدولة الاسلامية تجبر المنافقين على دفع الضرائب وخلافها ، ولكن الله لا يثيبهم عليها.

لماذا اعداء الرسالة منعمين ؟

[55]قد يستهوي ظاهر المنافقين طائفة من المؤمنين و الرساليين فيفكرون فيكسبهم لاستقطاب امكاناتهم المادية لمصلحة الرسالة و بذلك يقدمون تنازلات لهذه الطائفة الفاسدة ، و القرآن يحذر من ذلك بشدة و يبين ان امكانات هذه الطائفة لا تنفع الرسالة لانها متصلة بسلوك فاسد و ضمائر فاسدة وهي بالتالي نتيجة وضع فاسد ، و افراز لوضع فاسد فهي تضر ولا تنفع.

]فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم[

ان الثروة التي جمعت من الابتزاز و السرقة و الاستغلال سحت و فساد وهي لا تصلح ان تكون في خدمة الرسالة كذلك الولد الناشىء في بيت الدلال و الميوعة و بالتربية الفاسدة لا ينفع كسبه شيئا.

ولكن لماذا أعطاهم الله المال و الولد ؟

]انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا[

فالمال السحت و الولد الفاسد ليس نعمة بل نقمة يعذب بها صاحبها.

[و تزهق انفسهم وهم كافرون]

فالغنى و الشرف الاجتماعي يعطيان الفرد غرور العظمة ؛ فيكفر بالله ولا ينتبه لواقعه الضعيف البائس الا بعد الموت.

[56] والمنافقون ليسوا من المجتمع المسلم ، لانهم لا يشاطرون الامة مصاعبها و مصائبها.

[و يحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون] فمن شدة خوفهم تراهم يتظاهرون بانهم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون أي يخافونلا أكثر ولا أقل.

[57] لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون]و الدليل على ان تظاهرهم بالدين إنما هو من خوفهم : انهم لو وجدوا أي وجه للفرار منكم لاسرعوا اليه ، كما لو وجدوا قوما يلجأون اليهم . او وجدوا كهوفا في الجبال و مغارات . أو حتى انفاقا و أسرابا في الارض لرأيتهم يتجهون اليها .وهم يسرعون من دون ان يمنعهم وفاء بالعهد . أو بقية ذمة او ضمير.

كيف تصرف الصدقات ؟

هدى من الآيات

الانتماء الى القيادة الرسالية عند المنافقين انما هو انتماء مصلحي . فان أعطوا من الصدقات و بيت المال شيئا رضوا و الا فانهم سوف يسخطون ، وهم يشيرون الى ذلك من خلال كلماتهم و تصرفاتهم!

بينما الانتماء السليم هو الانتماء الايماني الذي يسلم الفرد نفسه لله و للرسول و للقيادة الرسالية و يطمئن نفسيا باوامر القيادة انتضارا لفضل الله الكبير المتمثل في الرخاء و الرفاه لكل أبناء المجتمع ، وذلك لا يكون الا بعد الرغبة الى الله.

اما الصدقات و أموال بيت المال فهي ليست لمن أراد . انما هي للضعفاء من أبناء المجتمع - الفقراء و المساكين و الموظفين العاملين على الصدقات . و الجنود الذين يؤلف قلوبهم من سائر الاديان ليحاربوا الى جانب الدولة الاسلامية و العبيد المديونين الغارمين . وفي سبيل المصالح العامة . ومنها الذين ينقطع بهم الطريق و تنتهي نفقاتهم و زادهم ... هذه هي مصارف الصدقات و الله عليم بالحاجاتالحقيقية حكيم يأمر بما فيه المصلحة.

بينات من الآيات

الانتماء المصلحي:

[58]الفرق بين تركيبة المجتمع المسلم الرسالي و بين المجتمعات الاخرى . إن الحبل الرابط بين أبناء المجتمع الرسالي هو المبدأ فالايمان بالاسلام هو الذي يجعل مجموعة من البشر المختلفين (ثقافيا - طبقيا - عنصريا - ولونا - و لغة - و قوميا) يذوبون في بوتقة الامة الواحدة ذات القيادة القويمة القوية.

وكل فرد يسلم عمليا و نفسيا لهذه القيادة و يجعل انتماءه اليها مشروطا بمدى تجسيد القيادة للقيم الرسالية و تنفيذها للواجبات الدينية.

لذلك ترى القيادة هنا متحررة من الضغط و الاغلال فلا تخشى إنهيار صرح قيادتها لو خالفتها طبقة او سحقت امتيازا أو ألغت عادة عشائرية شاذة.

الانتماء الى القيادة ليس على أساس المصالح المادية حتى اذا فقدت القيادة الثروة ضعفت أو انهارت ، ولا هي قائمة على أساس عشائري أو قومي حتى تكون قائمة على ظلم سائر العشائر و القوميات ، و اعطاء المزيد من الامتيازات لهذا أو ذاك ، كلما شعرت بالضعف.

أما المنافقون فانهم يريدون القيادة بقرة حلوب يحبونها مادامت تعطيهم لبنا سائغا ، والا فهم ينقلبون عليها.

]ومنهم من يلمزك في الصدقات[

أي يتصرف بطريقة توحي باستعطائك من الصدقات . و الصدقات - حسبماايبدو لي -كل الأموال التي ينفقها المؤمنون بوازع ايماني.

]فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون]على القيادة و يعارضونها.

[59]بيد ان تشجيع العمل الصالح في المجتمع . انما يتم بتكافؤ الفرص الذي يضمنه القانون الاسلامي و تطبقه القيادة العادلة النابعة من ايمان الجماهير بالاسلام ، و تسليمهم النفسي للقيادة . ان هذا القانون هو الذي يدفع الجميع الى العمل البناء و يوفر الأمنو التقدم للجميع.

وهو بالتالي أنفع من أصحاب الامتيازات الباطلة الذين يحاولون تحريف المجتمع باتجاهها.

]ولو انهم رضوا ما اتاهم الله و رسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله]فحين تلغى الامتيازات يتقدم الجميع بسبب العمل البناء الذي ينعكس على كل حقول الحياة الاجتماعية و الاقتصادية.

]انا الى الله راغبون[

فحتى لو لم أحصل شخصيا على مكسب في الدنيا ، فان الجزاء في الاخرة سوف يتضاعف.

أين تصرف الصدقات ؟

[60]أما مصارف الصدقات فتكون في الطائفة الضعيفة و ليس لأصحاب[و الغارمين[

الذين لا يقدرون على الوفاء بديونهم.

]وفي سبيل الله[

أي في كل مصلحة أمر بها الله من بناء الجسور ، و تعبيد الطرق ، و إقامة المشاريعالانمائية ، و الخدمات الصحية .. و ما أشبه.

]وابن السبيل[

وهو المسافر الذي انقطع عن أهله و لا يملك ما يوصله اليهم ، فيدفع اليه زادا و نفقة كافية.

]فريضة من الله و الله عليم حكيم [

وتجديد مصارف الاموال العامة خصوصا بعد ذكر كلمة الحصر (إنما) ينقطع أمل المنافقين من الطفيليين و أصحاب الامتيازات ، فلا يطمعون في إبتزاز القيادة الاسلامية ، و اننا نجد في سلوك الامام علي (عليه السلام) مع أخيه عقيل ، ومع أصحاب الامتيازات الباطلة ما يجعلنا نفهم بعمق طبيعة القيادة الرسالية.

لقد جاء عقيل الى علي (عليه السلام) وهو أمير المؤمنين يطالبه بزيادة في العطاء - وقد أملق إملاقا - فحمى علي (عليه السلام) حديدة و قربها الى يده و كان عقيل ضريرا ، وكانت له عائلة كبيرة ، فمد يده ليأخذ المال بزعمه فاذا به يحس بحرارة الحديدة فقال له:

"ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة احماها إنسانها للعبة ، و تجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه . أتئن من الأذى ولا أئن من لظى " ؟!

المنافقون يحاددون الرسول و يسترضون المؤمنين

هدى من الآيات

بسبب تمرد المنافقين على القيادة الرسالية المتجسدة في شخص النبي (ص) كان الناس ينظرون اليهم شزرا ، فكان المنافقون يحاولون تبرير مواقفهم.

اولا :بالأدعاء الكاذب ان الرسول لا بأس به ولكن يحيط به رجال يغذونه بالاخبار و المواقف المضادة بنا ، و لهذا فنحن نخالفه لا لأنه - لا سمح الله - يكذب أو يتخذ مواقف باطلة ، و فضحهم القرآن بان الرسول يستمع فقط الاخبار التي هي في مصلحة المؤمنين و يعمللهذه المصلحة ، و بالتالي فان موقفه من الناس لا يحدده الخبر ، بل قيمته المتجسدة في الايمان ، فلو كنتم مؤمنين لا ستطعتم أن تفوزوا برحمة الرسول.

ثانيا : كانوا يحلفون بالله لتبرير نفاقهم ، و يدعون بان مخالفتهم لا تعني مخالفة المجتمع المسلم ، و يردهم القرآن بأن الله أحق ان يرضوه بصدق النية و إخلاص العمل ، و كذلك الرسول بالتسليم و الطاعة.

ويبين القرآن ان من يتجاوز حدود الله و الرسول ، و يخالف أوامر الله فان جزاءه المعد له نار جهنم خالدا فيها.

بينات من الآيات

القنوات الخبرية في الاسلام:

[61]كثيرا ما نجد المستكبرين الذين يخالفون القيادات الرسالية بسبب أو بآخر لا يجرؤون على النيل من شخصية القائد ، ولو فعلوا لم يستمع اليهم احد ، لذلك تراهم يتعرضون لمن حول القائد ، و يشككون

في اجهزته و قنواته الخبرية ، و يدعون بان القائد بسيط و ساذجأو انه انسان طيب يثق بكل الناس ، وأن من حوله يستغلون طيبه في املاء المواقف الباطلة عليه ، وهكذا قال المنافقون عن الرسول ، ولكن نعلم سلفا ان هدف هؤلاء هو شخص القائد وانهم يحاربونه نفسيا ، و يتعمدون إيذاءه عن طريق مثل هذه الاشاعات حوله.

]ومنهم الذين يؤذون النبي و يقولون هو اذن[

أي انه يسمع كل من يتحدث اليه ، و يقبل كلام الناس دون تمحيص أو نقدولكن هل هذا صحيح ؟ كلا .. ولعدة أسباب منها:

ان أي قائد هو مسؤول عمن حوله وعن أجهزته ، و القائد الرسالي يختار أجهزته من بين أنقى الناس ، وحتى لو لم يقدر فهو لا يسلم نفسه لمن حوله ان كانوا انتهازيين ، وهكذا كان حول الرسول رجال صادقون اختارهم بدقة ، أما غيرهم فلم يكن يتأثر بكلامهم الرسول (ص. (

ومنها : ان هدف الرسالي هو تحقيق مصلحة الامة ، ولذلك فهو لا يسمع الاخبار المسيئة بشخصية هذا او ذاك ، ولا يتأثر بالصراعات القائمة داخل المجتمع المسلموالتي يحاول كل طرف منها تجيير شخصية القائد لحسابه ، و لذلك فهو هدف مسبق.

ومنها : ان هدف الرسول وكل قائد رسالي هو اشاعة الرحمة و البركة لكل ابناء المجتمع القريب و البعيد ، و أشارت الآية الكريمة الى هذه الحقائق قائلة:

]قل اذن خير لكم[

فهو لا يسمع الشائعات المضادة لمصلحة الناس.

]يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين[

فالايمان بالله يجعل القائد بعيدا عن التأثر بالأقوال الكاذبة.

]و رحمة للذين ءامنوا منكم[

فهو رحمة للجميع.

]والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم[

كيف يثبت المنافقين إنتماءهم ؟

[62]ثم ان المنافقين يحاولون شق عصا المؤمنين و بناء جدار بين القيادة الرسالية و المجتمع ، لذلك..

]يحلفون بالله لكم ليرضوكم و الله و رسوله احق ان يرضوه ان كانوا مؤمنين [فان كانوا جزء من ابناء المجتمع المسلم فان عليهم ان يرضوا الله و القيادة الرسالية ، ومن يقاوم القيادة الرسالية فانه لا يمكنه الادعاء بانه ليس بعدو للمجتمع المؤمن بالقيم ، و القائم على أساسها.

[63]والذين يحاربون الله و رسوله و القيادة الرسالية ، و يحاولون تجاوز حدود الله فان الجزاء المعد لهم جهنم.

[آلم يعلموا انه من يحادد الله و رسوله فان له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم]ان تنتهي حياة البشر التي هي الفرصة الوحيدة بنار خالدا فيها ، أو ليس ذلك خزي وذل عظيم.

يستهزىء المنافقون ، و يعدهم الله نار جهنم

هدى من الآيات

يذكرنا السياق القرآني ببعض مواصفات المنافقين الذين يشكلون الطابور الخامس للعدو و أبرزها حذرهم من الفضيحة ، وفي ذات الوقت إستهزاءهم بالرسالة ، و اتخاذ مجمل الحياة لعبا و لهوا ، ولكن هل يمكن اللعب بالحقيقة ؟

ان أولئك الذين حولوا الاستهزاء الى مرحلة العمل الاجرامي ، انهم سوف ينتظرهم العذاب . اما غيرهم فقد يغفر لهم . بيد ان هذا لا يعني تقسيم هذه الطائفة اذ النفاق صفة مشتركة فيهم ، ولذلك بعضهم من بعض و بعضهم يؤثر سلبيا في البعض عن طريق الأمر بالمنكر و النهي عن المعروف و اثارة السلبيات . ان هؤلاء نسوا الله و غفلوا عن انه فعال لما يريد وهو الذي يدبر حياة الناس . وانه سبحانه نسيهم لفسقهم وسوء أعمالهم ، و وعدهم هم و الكفار نار جهنم خالدين فيها وهي تكفيهم عذابا و جزاء ، و أبعدهم عن نعمه ولهم عذاب مقيم فيالدنيا.

بينات من الآيات

خوف المنافقين من الفضيحة:

[64]بالرغم من يقين المنافقين بأن الوحي حق ، و خشيته من إفتضاح أمره عن طريق نزول سورة قرآنية تكشف خططهم وربما أسمائهم بالرغم من ذلك فهم يستهزؤون ولا يتخذون الرسالة امرا جديا لخور عزيمتهم و ضعف إرادتهم و عصف الشهوات بنفوسهم المنهارة ، ولكن الله سوفيخرج ما في قلوبهم وما يحذرون من نشره.

]يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبؤهم بما في قلوبهم]من الاستخفاف بالرسالة و اتخاذها هزوا .

]قل استهزؤا ان الله مخرج ما تحذرون[

[65]ولكن لماذا يستهزىء هؤلاء بالرسالة أولا يؤمنون بانها حق ، بلى ولكنهم يتخذون الحياة لعبا.

]ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض و نلعب قل اباالله و آياته و رسوله كنتم تستهزؤن]فليست هذه الحقائق قابلة للاستهزاء لانها حقائق حاسمة ذات خطوة كبيرة بالنسبة لمستقبل البشر.

متى يتحول المنافق الى مجرم ؟

[66]وحين يأتي عذاب الله و تنتقم هذه الحقائق من المنافقين يشرعون بالاعتذار.

]لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم [

و المعذرة انما تنفع الغافل او الجاهل . أما الذي استسلم لضغط الشهوات و كفر بالله بعد إيمانه فان ذلك لا ينفعه.

]ان نعف عن طائفة منكم[

لصدق توبتهم و خفة جرمهم ، ولكن الطائفة الثانية المجرمة حقا لابد ان تنال جزاءها العادل.

]نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين[

[67]ولكن لا يعني هذا ان النفاق ذاته ليس جرما ، كلا .. اذ مجرد ظهور النفاق عند احد يدخله في قائمة المنافقين ، و يجعله شريكا لتصرفاتهم لطبيعة التفاعل بين أعضاء الكتلة الواحدة فبعضهم يشجع البعض على الاستمرار في الطريــق المنحرف.

]المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر و ينهون عنالمعروف و يقبضون ايديهم[

فلا يقومون بعمل ايجابي في سبيل تقدم الامة و صلاحها ، وهذا وحده يكفي ظلما لحقوق الامة و مخالفة لواجبات الاسلام .

]نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون[

كيف ينسى البشر ربه ؟

انه يلاحظ فقط ظواهر الامور ولا يتعمق فيما وراء الظواهر من سنن و أنظمةو تقديرات ، وأن الله سبحانه هو الذي يجري أمور الحياة حسب علمه و حكمته ، وهكذا اغفلوا دور التدبير الالهي ومن ثم الرسالة الالهية في حياتهم فتجاوزهم التدبير الالهي فلم يحفل بهم و بتطلعاتهم و كرامتهم و صدقهم . والسبب ان نسيان الله و اغفال تدبيره للحياة يشجع المنافق على ارتكاب المعاصي و الفسق ، وعاقبة الفسق معروفة.

عاقبة النفاق النار:

[68]ان عاقبة الفسق هي عاقبة النفاق عموما و عاقبة الكفر بصورة أعم .. فما هي ؟

[وعد الله المنافقين و المنافقات و الكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم [ولكن بالرغم من ان نار جهنم تكفيهم جزاء وألما فان لهم ايضا جزاء اخر هو :ابعادهم عن رحمة الله في الدنيا ، وايضا العذاب الدائم الذي يقيمون فيه أبدا وهو العذاب النفسي و تناقضهم مع تيار المجتمع ومع انظمة الحياة.

[و لعنهم الله ولهم عذاب مقيم]

هكذا كانت عاقبة المستهزئين

هدى من الآيات

النفاق تيار اجتماعي وليس عملا فرديا أو سلوكا منفصلا عن سلوك الآخرين وهو في ذات الوقت تيار تأريخي علينا أن ندرك علاقته من خلال عاقبة مثيلاته في الماضي ، فقد كان من قبل هؤلاء المنافقين من هو أشد منهم قوة و أكثر أموال و أولادا عدة و عددا ولكنهم استهلكوا ما كانت لديهم من قوة و متع ، وهؤلاء المنافقون يسيرون على ذات الخط و كانت عاقبة اولئك حبط أعمالهم في الدنيا و الاخرة ، و خسارة فرصهم في الحياة الدنيا.

ومثل هؤلاء يتجسد في قوم نوح و عاد و ثمود و قوم إبراهيم و أصحاب مدين وكذلك المؤتفكات الذين ظلموا أنفسهم و اهلكهم الله بعد أن انذرهم بالرسل و البينات.

وكما ان المنافقين تيار اجتماعي تاريخي فكذلك المؤمنون بعضهم أولياء بعض ، وهم يتفاعلون مع بعضهم في القيم السامية حيث يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة كفرائض اجتماعية اقتصادية ، و يخضعون للقيادة الرسالية حيث يطيعون الله و رسوله ، واولئك سيرحمهم الله ، و ينزل عليهم الرخاء ان الله عزيز حكيم ، هذا في الدنيا ، أما في الاخرة فقد وعدهم الله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، و أكبر من ذلك هو الفوز العظيم.

بينات من الآيات

دروس من التأريخ:

[69]لكي يرتفع البشر عن حدود المؤثرات العاجلة في سلوكه فعليه أن يتمتع برؤية تأريخية ، و ينظر الى حياته من خلال بصائر الماضي و سننه ، و المنافق اذا نظر الى نظرائه في التأريخ و كيف كانت عاقبتهم اذا لتراجع عن نفاقه ، و لذلك يذكر ربنا المنافقين بمن سبق من أسلافهم و يقول:

]كالذين من قبلكم كانوا اشد منكم قوة و اكثر اموالا و أولادا]وهذا اكتملت فيهم اسباب القوة و اغتروا بها فاستخدموا قوتهم في تحقيق مطامحهم الخاصة من دون اهتمام بواجباتهم الدينية . تماما كما يفعل المنافقون اليوم.

]فاستمتعوا بخلاقهم فاستمعتم بخلاقكم[

أي انهم استفادوا من نصيبهم في الحصول على المتعة كما تفعلون انتم ، فعليكم ان تقيسوا انفسكم بهم و تنظرون كيف كان مصيرهم.

]و خضتم كالذي خاضوا[

أي كما انهم خاضوا في غمرات الشهوات دون ان يحددوا شهواتهم بالعقول ، أو يستلهموا في أعمالهم من الوحي ، فانتم كذلك خضتم إتباعا لهم و تقليدا . فماكانت عاقبة اولئك ؟

]اولئك حبطت اعمالهم في الدنيا و الاخرة[

أي خسرت أعمالهم الايجابية التي عملوها من أجل الدنيا أو من أجل الاخرة وذلك بسبب أفعالهم السيئة.

]و أولئك هم الخاسرون[

[70]المنافق و الكافر يشتركان في مصير واحد لانهما يشتركان في اتباع الشهوات ، و مصير الكافرين في التأريخ عبرة كافية للمنافين أيضا.

]الم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح و عاد و ثمود وقوم إبراهيم و اصحاب مدين]أي قوم شعيب الذين أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة.

]و المؤتفكات[

أ ي المنقلبات وهي مدن قوم لوط.

]اتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون [ظلموا أنفسهم بترك البينات ، و الكفر بالرسل.

صفات المؤمنين:

[71]وفي مقابل التيار المنافق نجد التيار المؤمن الذي يتماسك ابناؤه بآصرةالولاء الواحد ، و الثقافة المشتركة حيث يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر.

]و المؤمنون و المؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر]كما ان الشعائر الواحدة تزيد ترابطهم كالصلاة التي يقيمونها فهي كما عمود مستطيل يرفع خيمتهم فهي ليست عبادة فقط ، بل وأيضا ظاهرة اجتماعية سياسية خصوصا حينما تقام جماعة أو في الأعياد و الجمعات.

]و يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة [

و الزكاة بدورها فريضة الهية تقيم المجتمع ، و تحافظ على تماسكه ، و انتشار روح العدالة و المساواة ، والمجتمع المسلم ذو قيادة مشتركة و متجذرة في نفوسهم .

]و يطيعون الله و رسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم [أي ان رحمة الله تتنزل على المجتمع و الله قوي شاهد في أحداث المجتمع و يعامل الناس بحكمته فيعطي الناس حسب أفعالهم و جهودهم و نياتهم.

[72] و الله سبحانه و عد ابناء هذا التيار المؤمن حياة سعيدة في الاخرة كما منعهم ذلك في الدنيا.

[وعد الله المؤمنين و المؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها و مساكن طيبة في جنات عدن]ليس لها خريف او شتاء أو زوال.

ولكن أكبر من ذلك رضا الله.

[و رضوان من الله اكبر]

وهذا الرضوان دليل توافق أعمالهم في الدنيا مع تعاليم الشريعة.

[ذلك هو الفوز العظيم]

هكذا امتحنهم الله بالثروة

هدى من الآيات

لايزال السياق القرآني في سورة التوبة المباركة يحدثنا عن صفات المنافقين ، فبعد ان يأمر الله و رسوله الاكرم (ص) بان يبدأ جهادا دائما و صعبا مع الكفار و المنافقين وان يغلظ عليهم لأن نهايتهم ليست الا النار التي ساءت مصيرا بعدئذ يبين لنا القرآن الحكيم صفات المنافقين ومن أبرزها حالة الازدواجية عندهم فهم يحلفون بالله بأنهم لم يقولوا كلمة الكفر بينما في الحقيقة إنهم قالوا هذه الكلمة منذ زمان . حيث انهم كفروا واقعا بعد أن أسلموا ظاهرا كفروا حينما راوا ان مسؤوليات الاسلام كبيرة وانهم دونها.

و أمامهم الان أحد الخيارين الرئيسيين فاما العودة الى احضان الاسلام واما انتظار عذاب اليم في الدنيا و الاخرة من دون أن يكون لهم نصير او ظهير في الارض أو في السماء.

ومن المنافقين اولئك الذين يبحثون عن فرصة في الحياة و يدعون بأنهم لوجاءتهم هذه الفرصة تراهم يعطون كل ما يملكون من أجل الله وانهم يستغلون الفرصة هذه استغلالا حسنا . ولكن حينما يعطيهم الله و يوفر لهم هذه الفرصة تراهم بعكس ذلك تماما انما يحاربون الله و رسوله و يقاومون الرسالة وهكذا لا يسلب منهم الله تلك الفرصة فحسب وانما ايضا يزرع في قلوبهم حالة من النفاق تستمر معهم الى النهاية لانهم لم يستغلوا فرصتهم الحسنة بل قاوموا و غيروا دين الله.

بينات من الآيات

جاهد الكفار و المنافقين:

] [73]يا أيها النبي جاهد الكفار و المنافقين و اغلظ عليهم[

اولا :يربط القرآن بين فئتي الكفار و المنافقين و يأمر الرسول بجهادهم جهادا مستمرا وان يغلظ عليهم وان لا تأخذه بهم في الله رأفة.

لان مصير المنافقين النار ومن يكون مصيره الى نار جهنم لا يمكن ان يرحمه العباد او يرحمه من يجسد ارادة الله في الارض وهو الرسول و القيادة الرسالية.

ثم يبين أبرز صفات المنافين وهي الازدواجية التي يقول عنها ربنا في هذه الاية:

]يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر[

ثانيا : أنهم حاولوا تغيير نظام الحكم عن طريق قتل الرسول أو إخراجه أو إفساد الوضع السياسي.

ثالثا :لم يشكروا نعمة الامن و الرخاء التي وفرها الاسلام لهم ، وهؤلاء المنافقون ان تابوا الى الله قبلت توبتهم والا فان عذابا أليما ينتظرهم في الدنياو الاخرة ، ولا أحد يواليهم أو ينصرهم.

رابعا : النفاق صفة كامنة في النفس تظهرها النعمة ، فمن الناس من يتمنى الغنى و يتعهد مع الله ان لو اغناه الله لأعطى حق النعمة فتصدق و عمل عملا صالحا ، ولكن حين أتاه الله من فضله أمسى بخيلا بالنعمة ، وعمل عملا سيئا مما كرس في ذاته حالة النفاق الى يومالقيامة ذلك بسبب خلفهم لوعدهم و نكثهم لعهدهم مع الله ، ولكن ذلك الوعد كان كاذبا منذ الاساس ، وكان الله عالما بقلوبهم ، كما ان تبريراتهم الجديدة كاذبة هي الاخرى مثل تسويف الانفاق ليوم الحصاد أو ربح التجارة.

من صفات المنافقين:

[74]ان من صفات ا لمنافقين ، الحلف الكاذب بالله ذلك لانهم يعرفون انهم متهمون.

]يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر[

وقد يكون هؤلاء قد قالوا كلمة ضد السلطة الاسلامية و قيادة الرسول و اعتبرها القرآن كلمة الكفر . بينما اعتبروها كلمة عادية ، وهكذا المنافقون في كل يوم يزعمون ان الكفر ينحصر فقط في سب الله تعالى ، و انكار وجوده سبحانه بينما ليس الامر كذلك ، بل مناهضة سلطة الاسلام أو مخالفة ثورة المسلمين الصادقين ضد سلطات الطاغوت هي الاخرى كفر . لذلك أكد القرآن على ان كل ذلك يعتبر كفرا بعد اسلام.

]و كفروا بعد اسلامهم[

و الاسلام هنا - كما يبدو - هو التسليم لله و للرسول و الخضوع للقيادة الرساليةلذلك جاء في بعض التفاسير " نزلت - هذه الاية - في عبد الله بن أبــي بن ســلول حين قال : (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. " (

فبالرغم من ان هذه ليست سب لله أو الرسول ، ولكنها كلمة كفر لانها تمرد على الاسلام لله و للرسول ، وفي الكلمة التالية اشارة الى هذه الحقيقة:

]و هموا بما لم ينالوا[

فلقد هموا باخراج الرسول ، و افساد الناس ليقاوموا سلطة الرسالة عن طريق بث الاشاعات الباطلة مثل قول أحد المنافقين واسمه جلاس قال بعد خطاب الرسول وهو يثير رفاقه ضد الرسول : و الله لئن كان محمــد صــادقا فيما يقول فنحن شر من الحمير.

ولقد حاول بعضهم قتل الرسول في قصة معروفة عرفت بليلة العقبة حيث أرادوا تنفير ناقة الرسول عند وصولها قريبا من العقبة وهي منعطف خطير في الجبل ، و بالطبع اذا نفرت الناقة في ذلك المكان بالذات أوقعت الرسول في الوادي.

كما حاول البعض اخراج الرسول مثل عبد الله بن أبي.

كما قام بعضهم بالفساد و التخريب.

أن كل هذه المحاولات كانت تهدف بالتالي شيئا واحدا هو تغيير نظام الحكم ، و التسلط على رقاب الناس ولكن لم يوفقوا .

]وما نقموا الا ان اغناهم الله و رسوله من فضله[

لماذا نافق هؤلاء ، ومتى ؟؟

السبب ان بعض الناس يكونون أشداء ضد من يحسبون انهم ضعفاء ، و ضعفاء أمام الاقوياء.

ولهذا حينما كان المنافقون في أوضاع شاذة ، يلفهم الفقر و التخلف و العذاب ، و يتحكم في رقابهم حفنة من الشيبة باسم القبلية ، او حفنة من التجار اليهود .حينذاك لم يفكروا في الثورة ، ولم يحاولوا انقاذ انفسهم من براثن السلطة الفاسدة ، لانهم حينذاك كانوامشغولين عن كل ذلك بملاحقة لقمة الخبز و معالجة آثار الفقر و المرض . اما اليوم وقد اغناهم الله من فضله و اراحهم من شغلهم (بمطاردة لقمة العيش) جاؤوا ينافسون السلطة الرسالية التي انقذتهم.

فهل جزاء الاحسان إلا الاحسان ، هل جزاء الرسول الذي حررهم من جاهليتهم الا الشكر له ، و التسليم لسلطته المباركة أم جزاؤه النقمة عليه ، و التخريب ضده ؟!

]فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا اليما في الدنيا و الاخرة]وســوف يعودون في الدنيا الى سلطة الطغاة وما تعنيه هذه السلطة من فقر و عذاب ، أما في الاخرة فان الله الذي وفر لهم الهداية سوف يأخذهم باشد العذاب.

و الجدير بالذكر : ان الطائفة من المنافقين الذين حسبوا ان دولة الاسلام ضعيفة و فكروا في مقاومتها سوف يتوبون حينما يكتشفون قوة النظام و صلابته ، وحينما يكتشفون انه لا احد ينصرهم او يدخل في حزبهم حينما يتعرضون للهجوم المضاد من قبل أنصار الرسالة.

]وما لهم في الارض من ولي ولا نصير[

الغنى سلم الكفر:

[75]تتجلى هذه الحالة النفاقية مرة اخرى عندما ترى بعض الفقراء يتمنون الغنى و يزعمون انهم سوف يوفون بعهدهم مع الله ، و يتصدقون بفضل أموالهم و يعملون بها صالحا ، بيد انهم بعد الغنى يعملون العكس تماما ، لماذا ؟

لان تظاهرهم بالايمان و الهدى انما كان حين لم يتعرضوا للتجربة اما الان فان حب المال و شح النفس و قضية العودة الى حالة الفقر تضغط عليهم باتجاه البخل و تغريهم بالفساد.

]ومنهم من عاهد الله لئن اتانا من فضله لنصدقن و لنكونن من الصالحين]ان فضل الله ينبغي ان يدفع الفرد باتجاه الصدقة و الصلاح لان الذي اعطى يقدر على ان يسلب العطاء ، و يعيد حالة الفقر . بيد ان ذوي النفوس الضعيفة و الارادات المهترئة تراهم يغترون بنعمة الله و فضله.

[76]وقد يكون المنافق واحدا منا دون أن نشعر لانه قد يستطيع الواحد ان يقاوم ضغط الفقر ، ولكنه ينهار أمام إغراء المال ، أو حتى يقاوم هذا الاغراء ولكنه ينهار أمام إغراء السلطة و الجاه ، وهكذا على الانسان ان يتزود بالايمان و يتسلح بالارادة الصلبة و التوكل على الله حتى لا يصبح مثل الذين يقول عنهم القرآن:

]فلما آتاهم من فضله بخلوا به و تولوا وهم معرضون]أي انهم بالاضافة الى عدم وفائهم بالعهد السابق الذي الزموا انفسهم به من الصدقة ، بالاضافة الى ذلك تجدهم يقاومون شريعة الله و أوامر الرسول.

وجاء في التفاسير قصة طريفة بطلها شخص باسم (ثعلبة بن حاطب) وكان من الانصار فقال للنبي (ص : (ادع الله ان يرزقني مالا ، فقال : " يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه - أما لك في رسول الله اسوة حسنة - والذي نفس بيده لو اردت ان تسير معي الجبال ذهبا و فضة لسارت " ، ثم اتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا ، والذي بعثك بالحق لان رزقتني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال (ص) " اللهم ارزق ثعلبة مالا " ، قال فاتخذ غنما ، فنمت كما ينم الدود ، فضاقت عليهالمدينة ، فتنحى عنها فنزل واديا من اوديتها ، ثم كثرت نموا حتى تباعدت عن المدينة فاشتغل لذلك عن الجمعة و الجماعة فبعث رسول الله اليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى و بخل ، و قال ما هذه إلا أخت الجزية ، فقال رسول الله : " يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة " و انزل الله الآيات.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) في قول له:

"من ملك استأثر"

وهكذا نجد كيف ان كل واحد منا قد يصبح منافقا في ظروف معينة.

[77] ولكن ما هي عاقبة هذه الفعلة ؟

يقول القرآن ان عاقبة ذلك تكريس حالة النفاق الى حين الموت ، و الجزاء.

[فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون]منذ البدء ، و يزعمون انهم مؤمنون صادقون ، وانهم سوف يقومون بعهد الله خير قيام.

[78]ولكن على الانسان ان يخلص نيته ، و يشهد الله على مافي قلبه ولا يقول ولا يتعهد إلا بالحق الذي يعتقد به.

[الم يعلموا ان الله يعلم سرهم و نجواهم وان الله علام الغيوب]

و يسخرون من المؤمنين
هدى من الآيات

لان المنافقين لا يؤمنون حقا بالله و القيم ، فانهم لا يمكنهم تصور ايمان الناس و تضحياتهم السخية بدافع الايمان ، ولذلك تجدهم يفسرون صدقات المطوعين بانها رياء ليسقطوهم من أعين الناس ، كما يعيبون على الفقراء قلة ذات يدهم . و الله يسخر من المنافقين و يعذبهم عذابا اليما.

و سواء استغفر الرسول لهم أم لم يستغفر فان كفرهم بالله و الرسول الناشىء من فسقهم لا يدع مجالا لغفران الله و رضا المحرومين.

و يزعم المنافقون : ان تقاعسهم عن الجهاد خير لهم ولذلك فرحوا به و كرهوا الجهاد ، و نهوا الاخرين عنه . ولكن ما هي عاقبة ذلك .. أو ليس نار جهنم خالدين فيها ، ولكنهم لا يفقهون حقائق الامور!!

و بسبب سوء اختيارهم سوف يلفهم العذاب النفسي و الاجتماعي مما يجعلهميضحكون قليلا ، ولكنهم يبكون بعدئذ كثيرا بسبب اعمالهم التي اكتسبوها.

وبعد عودة الرسول الى المدينة و انتهاء محنته الرسالية يحاول بعض المنافقين ، التقرب الى رسول الله ، و يستأذنون منه ليخرجوا معه الى الجهاد ولكن على الرسول الا يسمح لهم ثانية ولا يأخذهم معه الى

القتال لانهم رضوا بالقعود في أيام الشدة ، فعليهم ان يبقوامع الفئة الضالة وهم المنافقون مفضوحين أمام الناس و محرومين من العمل السياسي.

بينات من الآيات

كل يرى الناس بعين طبعه:

[79]كما الاعمى لا يفقه واقع النور ، فكيف يمشي على هداه البصير ، وكما الجاهل لا يحيط بواقع العلم فكيف يضيء درب السالكين ، و كذلك المنافق لا يصدق بواقع الايمان الذي يعمر قلوب الصادقين فكيف يدفعهم على القيام بالأعمال الكبيرة دون أن يريدوا جزاء أو شكورا.

ان المنافقين يفسرون ابدا أعمال الصالحين بمقاييسهم ، و يزعمون ان وراء كل عمل صالح مصلحة مادية عاجلة لا يظهرا صاحبه كما هو لا يفعلون الخير الا رياء و طلبا للاجر العاجل ، لذلك تجدهم يعيبون على الذين يعملون و ينتفقون تطوعا لله و تصديقا بوعده دون ان يخالطهم رياء او سمعة.

]الذين يلموزن المطوعين من المؤمنين في الصدقات[

فيتهمون هذه الطائفة بالرياء . أما الطائفة الفقيرة من المؤمنين فترى هؤلاء المنافقين كيف يسخرون منهم لفقرهم ، و قلة عطائهم.

]والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم[

لانهم فقراء لا يملكون الا قوة البدن و عمل اليد فيرتزقون عليها - واذا فقدوا العمل - فقدوا الرزق كما العمال و الفلاحين فيسخر المنافقون الذين غالبا ما يكونون من الطبقة المترفة منهم.

]سخر الله منهم ولهم عذاب اليم[

حين يرون نتائج اعمالهم فتلك سخرية واقعية ، وهذه سخريتهم لفظية كلامية لا أثر لها ، وعلينا الا ننهزم أمام سخرية المنافقين ، ولا يفقد المؤمن إحساسه بشخصيته امام سخرية المنافق حتى ولو كان الاخير أغنى منه و أقدر ، كما يجب الا يستقل المؤمن عطاءه في اللهان لم يكن يملك غيره لان الله لا ينظر الى قدر العطاء بل الى قدر المعطي و سلامة نيته . من هنا سئل الرسول (ص) عن أفضل الصدقات فقال : " جهد المقل " . (١)هل يجوز أن نستغفر للمنافق ؟

[80]لان المنافقين يلمزون و يسخرون من المؤمنين فان غناهم أو جاههم الظاهر يجب الا يدعونا الى احترامهم أو طلب الخير لهم ، فما داموا كافرين فكريا و فاسقين عمليا فان حدود الايمان تفصلهم عنا ، فهم أمة و نحن أمة برغم الاختــلاط و القرابة بيننا و بينهم.

وقد يستبد بالمؤمن الحنان البشري و العطف فيحاول هداية المنافقين ، فيدعوه ذلك الى التقرب منهم بدل منابذتهم العداء ، و القرآن ينهى عن ذلك و يقول : حتى لو فعلتم مثل ذلك فان الله قد اتخذ منهم موقفا شديدا بسبب كفرهم و فسقهم.

(1)مجمع البيان / ج ٥ / ص ٥٥

]استغفر لهم اولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بانهم كفروا بالله و رسوله و الله لا يهدي القوم الفاسقين]ان الاستغفار هو قمة العطف الايماني لشخص ما ، ولكن ذلك منهي عنه بالنسبة الى المنافقين لان علينا ان نبني بيننا و بينهم حجابا ظاهره النور و الايمان و وراءه ظلمات و جهالة.

التخلف عن سوح الجهاد:

[81]حين تتقاعس طائفة من أبناء المجتمع عن الجهاد و التضحية ، و يشيعون حولهم الافكار السلبية . يخشى ان يتأثر الاخرون بهم لولا إعطاء الناس رؤية واضحة تجاه هذه الطائفة المصلحية التي يجسدها المنافقون في المجتمعات المؤمنة التي كانت ترضى بالقعود برغم انالقائد الرسالي كان يقود المعركة.

]فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله و كرهوا ان يجاهدوا بأموالهم و انفسهم في سبيل الله]ان قعود هؤلاء في الوقت الذي خرج رسول الله دليل على انهم لا يريدون الجهاد ، وان تبريرهم ببعض الأقوال لم يكن سوى غطاء لقعودهم.

]وقالوا لا تنفروا في الحر[

ولكن السؤال : هل يستطيع المسلم ان يدرأ عن نفسه نار جهنم من دون اقتحام ساحات الجهاد ؟

]قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون[

[82]حتى مصاعب الدنيا لن تزول من دون تحمل بعض الصعاب ، فاذاهاجمك العدو في أيام الحر أو البرد فهل تستطيع ان تقول له انتظر الى أيام الربيع أو الخريف . أم ان ذلك مجرد حلم ؟! ان الذين يهربون من المشاكل سوف تتضاعف عليهم المصائب و الويلات ، و عليهم ان ينتظروا أياما حالكة فيبكوا كثيرا بعد ان ضحكوا قليلا.

]فليضحكوا قليلا و ليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون]ان المؤمنين الصادقين يبادرون في أيام رخائهم و قدرتهم بالاعداد و العمل الجاد ليوم الشدة ، وانهم مستعدون لخوض غمار المعركة في أشد الايام لذلك فان أعداءهم يرهبون جانبهم وفي ظل القوة يستمرون في حياة آمنة كريمة.

الموقف الرسالي من المتخلفين:

[83]وبعض المنافقين يحاولون العودة الى أحضان العالم الاسلامي لا ليكونوا مواطنين صالحين و صادقين ، بل ليستفيدوا من المكاسب بعد ان نصر الله عباده المجاهدين ، و ليستغلوا نفوذهم المادي ، و يتسلطوا على رقاب المؤمنين ولكن باسم الدين هذه المرة كما فعلت بنو أمية في التأريخ الاسلامي ، ولكن القرآن يحذر من ذلك و حكمته في ذلك قد تكون : ان ايام الشدة امتحنت النفوس المؤمنة فعلا و فرزتهم عن الجماعات الوصولية التي تميل مع القوة اينما مالت ، و تحاول ان تستفيد من كل وضع بما يتناسب و شعارات ذلك الوضع ، و اساسافلسفة الجهاد في الاسلام هي انقاذ الجماهير غير الواعية من شر هذه الجماعات الطفيلية النفعية ، لذلك يجب ان تكون القيادة الرسالية حذرة جدا فلا تسمح لهؤلاء بالعودة الى الساحة السياسية ابدا.

[فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا ولن تقاتلوا معي عدوا انكم رضيتم بالقعود اول مرة فاقعدوا مع الخالفين]فالمهم هو المواقف الاولى في ايام المحنة أما ايام الرضى فهي ليست دليلا على صدق النية بل نحسب هؤلاء ضمن المنافقين الأوائل.

لا للقيم المادية نعم للجهاد

هدى من الآيات

لكي يكرس الاسلام قيم السماء في المجتمع ، و يحدد موقف الناس من الافراد حسب مواقفهم من الرسالة ، ولكي يحطم الغنى كأساس لتقييم الناس منع الرسول (ص (من الصلاة على منافق او تكريمه بالقيام على قبره مادام الرجل قد كفر بالله تعالى و رسوله (ص) ومات فاسقا دون النظر الى غناه او كثرة عشيرته ، لان الثروة و الأنصار فتن يبتلي الله تعالى بهما البشر فاذا استخدمهما في الصلاح فهما خير ، والا فهما عذاب في الدنيا و سبب الكفر و العذاب في الاخرة.

ان الاغنياء من المنافقين يتمردون على فريضة الجهاد ، و يستأذنون الرسول (ص) بان يمنح لهم اجازة البقاء مع ذوي الاعذار - كالنساء و الصبيان و المرضى - دون ان يفقهوا ان ذلك اهانة بشأنهم ، و اخراج لهم من الساحة الاجتماعية.

اما الرسول (ص) و المؤمنون من أصحابه فانهم بجاهدون بأموالهم و انفسهم ،و يحصلون على الخبرات التي يخسرها القاعدون ، كما انهم يفلحون في الدنيا بالنصر و الرفاه وفي الاخرة بجنات اعدها الله تعالى لهم تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك هو الفوز العظيم.

وهكذا يكرس هذا الدرس قيمة الايمان و الجهاد و يضرب عرض الجدار القيم المادية الجاهلية التي تقوم على اساس الغنى و الانصار.

بينات من الآيات

سحب الشرعية عن المنافقين:

[84]صحيح ان الفرد الذي يموت يستقطب العطف و الشفقة ، ولكن المنافق حين يموت يجب الا يحترم ، لان في ذلك تكريما لسيرته و لأعماله الفاسدة التي ارتكبها ، و بالتالي لخطه التحريفي ، لذلك نهى القرآن رسوله (ص) عن اعطاء الشرعية لخط النفاق التحريفي في الامةعبر تكريمه للمنافقين بعد موتهم .

]ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره]اي لا تجري عليه السنة التي كان الرسول (ص) يجريها على قبور المؤمنين حيث يقف على قبر امواتهم ساعة يستغفر لهم ، وعندما جاء هذا الأمر الحاسم لم يصل النبي (ص) على قبر منافق ابدا حتى قبض . (١)[انهم كفروا بالله و رسوله وماتوا وهم فاسقون[

أي انهم منحرفون فكريا بالله و رسوله ، وعمليا حيث انهم فاسقون لا يطبقون احكام الشريعة.

(1)المصدر ٥٧

و الصلاة و الدعاء لمثل هؤلاء قد تعطي شرعية للكفر و الفسق داخل المجتمع الاسلامي مما يعرض اساس هذا المجتمع لخطر كبير . ان وجود مثل هؤلاء داخل المجتمع قضية قد تفرضها واقعيات الحياة ، ولكن علينا الا نساوي بينهم و بيــن المؤمنــين الصالحين.

لا شرعية للعدة و العدد:

[85]قد يستهوي القائد الاسلامي الذي يستهدف تجميع القوى داخل مجتمعه ، و تعبئة الطاقات من اجل بناء دولة الاسلام بعض المنافقين بما يملكونه من ثروة عريضة ومن مؤيديــن ، ولكــن القرآن الحكيم يحذر من ذلك و يعطينا رؤية واضحة تجــاه المال و الاولاد (العدد والعدة) هي ان كل ما في الحياة و سيلة الانسان و أداته لتحقيق قيمه و اهدافه فان كانت اهدافه و قيمه صالحة فأن الوسيلة سوف تصبح صالحة و نافعة والا فهي وبال عليه.

]ولا تعجبك اموالهم و اولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا [فالمال و الولد ، و بتعبير اخر : العدة و العدد اذا لم يكونا و سيلتي خير و صلاح فهما عذاب و خبال ليس لصاحبهما فقط بل وايضا لمن يتقرب اليه بسببهما ، فالذي يعجبه مال الاغنياء او اولاد و انصار الاقوياء ولا ينظر الى اعمالهم و اهدافهم . فسوف يجر الى نفسه الويلات لانه سوف يخضع لهم و سيرضيهم و يتنازل عن قيمه من اجلهم ، واذا كان الحاكم الاسلامي هكذا و أراد مثلا استرضاء الاثرياء و الاقوياء فعلى حساب من سيكون هذا الاسترضاء .او ليس على حساب الفقراء و المستضعفين ، او ليس يستدرجه الاغنياء و الاقوياء الى

التحيز لهم و اعطائهم امتيازات غير قانونية ؟! وبالتالي يجر المجتمع الى ذات العذاب الذي تورط فيه الاغنياء و الاقوياء غير المؤمنين منهم بسبب المال و الانصار من غرور و فساد بسببوجود الثروة و القوة من دون وجود قيم محددة و موجهة لهما.

ثم ان الثروة و القوة تكونان سببا لاستمرار الكفر حتى الموت ، و بالتالي للعذاب.

]و تزهق انفسهم وهم كافرون[

مواقف المجتمع من الجهاد:

- 1المنافقون:

[86]موقف هؤلاء الاغنياء من الجهاد و تحمل مسؤولياتهم كأعضاء في المجتمع الاسلامي انما هو موقف اللامبالاة و الميوعة ، فهم من جهة يريدون ميزات هذا المجتمع ، ولكنهم من جهة اخرى يرفضون اي عمل ايجابي من اجل هذا المجتمع . خصوصا في ايام الشدة.

]واذا انزلت سورة ان ءامنوا بالله و جاهدوا مع رسوله استاذنك اولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين]فأغنياء المنافقين - اصحاب الطول - وهو المال و القوة ، يحاولون اضفاء صفة الشرعية على تقاعسهم عن الجهاد و بذلك يحاولون اخذ الاجازة من الرسول حتى يحسبهم الرسول من ذوي الاعذار ، و القاعدين عن الجهاد ، وهذا نوع من الامتياز الذي يطالب به اصحاب المال و القوة في المجتمع ، ولكن هل يمنحهم الاسلام ذلك ؟ كلا.

[87]قبل كل شيء يرفع الاسلام من قيمة الجهاد ويجعلها فوق قيمة الغنى و القوة ، ويذكرنا بان الذين يتقاعسون عن الجهاد لا يفقهون ما الذي يعملونبانفسهم ، انهم يهبطون بانفسهم الى مستوى الخوالف من النساء و الضعفاء الذين اسقطوا من حساب المجتمع بسبب ضعفهم و عجزهم ، فكيف يريد هؤلاء الانتماء الى طائفة العجزة و الضعفاء ؟!

]رضوا بان يكونوا مع الخوالف[

قال الزجاج : الخوالف النساء لتخلفهن عن الجهاد و يجوز ان يكون جمع خالفة في الرجال و الخوالف و الخالفة الذي هو غير نجيب . (١)[وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون[

فلا يعرفون قدرهم الحقيقي ، وانه مع الجهاد و تحمل المسؤولية يرتفع الفرد داخل المجتمع المسلم.

- 2المؤمنون:

[88]وفي الطرف الاخر من الصورة نجد المؤمنين الذين يجاهدون بكل ما يملكون في سبيل الله ، و بذلك يرتفع شأنهم عند الله وعند الرسول (ص) و الناس في الدنيا و الاخرة.

]لكن الرسول و الذين ءامنوا معه جاهدوا بأموالهم و انفسهم و اولئك لهم الخيرات و اولئك هم المفلحون]فلهم المكاسب المادية التي ليست عذابا كما كانت عند المنافقين بل هي فلاح و سعادة ذلك لان هذه الخيرات اكتسبت عن طريق عمل الخير ، وسوف تصرف في(١) المصدر ٥٧

سبيل المعروف و الصلاح.

وبهذه الكلمة تكتمل رؤية الاسلام التي تحدث عنها القرآن في الاية السابقة حول المال و الانصار ، وهي انهما ان كانا قد اكتسبا بعمل صالح و وظفا من اجل اهداف صالحة فهما صالحان و يكونان سببا للسعادة

و الفلاح ، فالاسلام اذا لا يعطي حكما مطلقا و واحدا للثروةو القوة ، فلا يمجدهما مطلقا ولا يرفضهما مطلقا ، كما لا يصدر حكما كاسحا و واحدا على جميع الاغنياء و الفقراء ، بل يربط حكمه على الثروة و القوة و اصحابهما بالأطار الذي وضعا فيه . فالحكم ايجابي اذا كانا نضيفين ، والا فهما عند الاسلام وبال و عذاب .

[89] هكذا يرفع الاسلام قيمة العمل الصالح ، الذي يعتبر الجهاد القمة السامقة له داخل المجتمع المسلم و يربط سائر الظواهر به ، و يكمل الصورة ببيان عاقبة العمل الصالح في الاخرة و يقول:

[اعد الله لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم]فعلينا ان نبحث عن الفوز العظيم في الجهاد و العمل الصالح لا في المال و الاولاد.

المعذرون و المعتذرون
هدى من الآيات
بينات من الآيات
المعذرون من الاعراب:

[90]وفي سياق بيان القرآن لطوائف المنافقين اخذ يعدد الاعراب الذين لما يدخل الايمان في قلوبهم ، و الذين يعرفون ظاهرا من الدين ، وهؤلاء جاؤوا الى الرسول (ص) ليأذن لهم بالانصراف عن الحرب بعد ان انتحلوا عذرا ، ولم يكن الهدف من بيان عذرهم الا الفرار من الجهاد لذلك عبر القرآن الحكيم عنهم:

]و جاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم[

و يبدو من معنى كلمة (المعذر) انه الذي يتكلف عذرا و يختلقه ، و الهدف من مجيئهم كان الاذن للانصراف لا الاستفهام الحقيقي عن واجبهم الديني ، وفسر بعض المفسرين هذه الآية بطريقة اخرى فقال : الظاهر ان المراد بالمعذرين هم أهل العذر كالذي لا يجد نفقة ولاسلاحا بدليل قوله : " و قعد الذين كذبوا .. " الآية ، و السياق يدل على ان في الكلام قياسا لا حدى الطائفتين الى الاخرى ليظهر به لؤم المنافقين و خستهم و فساد قلوبهم و شقاء نفوسهم حيث ان فريضة الجهاد الدينية و النصرة لله و رسوله هيج لذلك المعذرين من الاعراب حيث جاؤوا الى النبي (ص) يستأذنونه ، ولم يؤثر في هؤلاء الكاذبين شيئا . (١)(وقعد الذين كذبوا الله و رسوله[

هؤلاء قعدوا عن الحرب دون استئذان وذلك بسبب كذبهم على الله و رسوله.

]سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم[

(1)تفسير الميزان / ج ٩ / ص ٣٦١

ان هؤلاء قد يكونون ممن تتكامل شخصيته و يضحي مسلما حقيقيا بعد ان كان اعرابيا جاهلا و كاذبا يتشرد من الواجبات مع او بدون انتحال عذر ، فحسابه على الله تعالى ، و قد يكشف عن جهله و كفره في المستقبل فيكون له عذاب اليم.

ويبدو لي من ظاهر هذه الآية : ان الاعراب نوع خاص من المنافقين وهم الذين ينافقون بسبب جهلهم وعدم رسوخ الايمان في قلوبهم لحداثة عهدهم بالاسلام ، و لتراكم الرواسب الجاهلية على قلوبهم ، و يرجى لهؤلاء الهداية و لذلك خص القرآن العذاب ببعض الاعراب وهم الذين كفروا منهم (دون جميعهم(

من يجوز له التخلف ؟

[91]ولكن من هو صاحب العذر الحقيقي ، الذي يجوز له التخلف عن واجب الجهاد ؟

في الايتين التاليتين توضيح لذلك:

الف - :ليس على الضعفاء الذين لا يتحملون جسديا مشاق الجهاد واجب الجهاد . وهؤلاء مثل المعوقين و المبتلين بالضعف العام ، والذين يبلغ ضعف بصرهم او ضعف سمعهم او ضعف اعصابهم او ضعف قلبهم او ما اشبه يبلغ حدا يمنعهم من الخروج للحرب فيجعلهم افراد غير صالحين للقتال ابدا.

باء : - و كذلك يسقط الجهاد عن المريض بأمراض خطيرة او طويلة او معدية ، او مما يسبب منعا للخروج.

جيم : - وكذلك يسقط الجهاد عن الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه على انفسهم او على عوائلهم المفروض عليهم اعالتهم.

دال : - كذلك يسقط الجهاد عمن لا تقدر الدولة الاسلامية تحمل نفقات خروجهم.

]ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج]اي لا يكلفون فوق طاقتهم ، او ما يسبب لهم الاذى و المشقة التي لا تحتمل.

جهاد المعذورين:

من هذه الكلمة يتبين : ان سقوط الجهاد عن الضعيف و المريض و الفقير ليس مطلقا انما في صورة وجود الحرج و المشقة البالغة التي تختلف حسب اختلاف الظروف ، و حسب الاشخاص . من هنا كان الواجب ان يذكر القرآن المؤمنين بان الواجب النصيحة لله و لرسوله (ص) حتى يكون كل فرد حسيب نفسه و رقيبها فيما يرتبط بوجود او عدم وجود الحرج فربما يدعي الشخص انه مريض وحتى يبرهن على ذلك للناس ولكنه يعلم فيما بينه و بين الله انه ليس بمريض مرضا يمنعه عن الخروج لذلك اكد ربنا على هذه الحقيقة و قال:

]اذا نصحوا لله و رسوله[

و النصيحة هي خلوص النية و العمل الجدي ، وعلى الانسان ان يخلص نيته لله فلا يدعي كذبا انه معذور وهو ليس بمعذور . كما عليه ان يخلص عمله لله ، فاذا كانمعذورا و قعد عن القتال فلابد ان يقوم بدور معين من اجل المعركة ، ولو كان ذلك الدور هو الاعداد الحربي او بث روح المقاومة في المجتمع او محاربة اعمال الطابور الخامس مثل الاشاعات او الانباء الكاذبة.

انما الاعمال بالنيات:

اذا كان مجمل سلوك الفرد سليما و حسنا فان اشتراكه المباشر في المعركة او تخلفه عنها بسبب عذر شرعي لا ينافي ايمانه و تقواه.

]ما على المحسنين من سبيل[

أي ليس على من كان محسنا و أراد فعل الخير فلم يقدر على القيام بكل الواجب سبيل المؤاخذة و العقاب ، و الكلمة مطلقة و نستوحي منها : ان كل من اراد الخير و تحرك نحوه فسواء اصاب او اخطأ . سدد في عمله او لم يسدد . بلغ هدفه او لم يبلغ فانه مجزي عند الله تعالى و ليس عليه عقاب.

ومن هنا جاء في الحديث عن انس : ان رسول الله (ص) لما قفل عن غزوة تبوك فاشرف على المدينة قال : " لقد تركتم في المدينة رجالا ما سرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم " قالوا : يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم في المدينة ؟ قال : " حبسهم العذر " (١. (

وانما اكد القرآن على هذه الحقيقة : " ما على المحسنين من سبيل "لانه من الممكن ان يتكبر المقاتلون على العاجزين و المرضى فيؤذونهم بألسنتهم ، او يحاولون منع بعض حقوقهم بحجة انهم لم يساهموا في المعركة ، فأكد القرآن على ان هؤلاء محسنون لانهم ارادوا المشاركة فلم يقدروا ، ولذلك لا سبيل عليهم ، ولا تفوق او استعلاء.

وقد يستبد بالمؤمنين ذوي الاعذار وسواس الشيطان فيوقعون انفسهم في الحرج(١) المصدر ٣٦٨

الشديد لانهم يخافون مثلا الا يكون الحرج قد بلغ حدا يمنعهم من الخروج واقعا ، وفي هذه الحالة لا سبيل على المحسنين ذوي النيات الصالحة ، و السلوك الاجمالي الصالح ، واضاف سبحانه قائلا:

]و الله غفور رحيم[

فحتى ولو كان هناك بعض التقصير فان غفران الله تعالى يجبره و يعوض المؤمن عن تقصيره.

[92]كذلك لا حرج على من يريد الخروج و يسجل اسمه في قائمة المتطوعين للحرب ولكن الدولة الاسلامية لا تجد وسائل الحرب له . من سلاح او ذخيرة او حتى و سائل المواصلات.

]ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا و اعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون [انك تجد في هؤلاء مثلا رائعا لذوي الاعذار الناصحين لله تعالى و لرسوله و المحسنين الذين تحدثت عنهم الآية السابقة . انهم ممتلؤون اندفاعا نحو المعركة الى درجة انهم يتفجرون بكاء حين لا يقدرون على المشاركة فيها.

وقد جاء في التفسير (نزلت هذه السورة في البكائين وهم سبعة جاؤوا الى رسول الله (ص) فقالوا يا رسول الله احملنا فانه ليس لنا ما نخرج عليه فقال " : لا اجد ما احملكم عليه .. " (١. (

وربما تدل هذه الآيات على ان المفروض على المسلم ان يكون مستعدا للجهاد(١) تفسير مجمع البيان / ج ٥ / ٦٠

بكل وسيلة ممكنة . فأن عجز فلا اقل باستعداده النفسي ، وقد جاء في حديث مروي عن النبي)ص. (

"من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية. "

المنافقون بين ذل القعود و ذلة الاعتذار

هدى من الايات

بعد ان بين السياق ذوي الاعذار المشروعة عاد ليؤكد على العلاقة مع الاغنياء المتخلفين عن الجهاد الذين يستأذنون الرسول (ص) بالرغم من غناهم و قدرتهم على الخروج و ذلك بسبب جهلهم باهمية الجهاد.

و يحاول هؤلاء تبرير مواقفهم امام المسلمين العائدين من المعركة ، و ينهى الله من قبول اي عذر منهم لان مستقبلهم سوف لا يكون افضل من ماضيهم ، ولذلك فان الله سبحانه سيرى اعمالهم ، ثم يردون العالم الغيب و الشهادة و يجازيهم على اعمالهم لا اقوالهم و تبريراتهم.

وهم يتشبثون بالحلف الكاذب لتغطية جبنهم و خيانتهم ، ولكي يتركهم المسلمون فلا يوبخونهم على تقاعسهم ، و القرآن يأمر بتركهم . ولكن ليس بدافع الرضا عنهم ، بل انطلاقا من واقع رجسهم و صغر شأنهم ، وان مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وحتى لو استطاع هؤلاء جلب رضا المسلمين عن طريق الحلف الكاذب ، فان الله تعالى لن يرضى عنهم ، لانهم قوم فاسقون ، اعمالهم سيئة ، و قلوبهم فاسدة.

بينات من الآيات:

على من يقع الحرج ؟

[93]لتكريس قيم الرسالة التي تدور حول محور الايمان و العمل الصالح ، و ضرب قيم الجاهلية التي تقديس الثروة والاثرياء ففي القرآن الحكيم - في آيات سابقة - عفى الله عن الضعفاء وعن ابن السبيل ، و المؤاخذة انماهي على الاغنياء غير المساهمين في الجهاد.

]انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء[

ولكنهم يتهربون من القيام بمسؤولية الدفاع عن الرسالة.

]رضوا بان يكونوا مع الخوالف[

أي النساء و الصبيان و العاجزين عن الخروج.

]وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون[

فاختاروا لجهلهم الناشىء بدوره عن فسقهم البقاء مع العجزة ، و يبدو لي : ان البقاء مع العجزة اسقط قيمتهم الاجتماعية بل و الغى بعض حقوقهم المدنية.

النقمة الجماهيرية:

[94]لانهم تخلفوا عن القتال و سقطوا عن أعين الناس تعرضوا لهجمات الجماهير المستضعفة ، لذلك اخذوا يعتذرون الى الناس حتى يعيدوا ماء وجههمالصفيق ولكن هيهات.

]يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من اخباركم]فماضيكم الذي عرفناه عن طريق الوحي مباشرة ، او بصورة بصائر و رؤى زودنا الوحي بها ، فاستطعنا عن طريقها - كشف المنافقين وطبيعة تحركاتهم - كل ذلك الماضي دليل كذبكم و دجلكم ، كما ان المستقبل هو الاخر دليل كذبكم في الاعتذار فمن يتوب بصدق الى الله يصلح اعماله في المستقبل اما انتم فلستم تائبين حقا.

]و سيرى الله عملكم و رسوله ثم تردون الى عالم الغيب و الشهادة]فيعلم الماضي و المستقبل و يعلم خفيات القلوب ، و خلجات الصدور ، وبالتالي يعلم ما وراء كل عمل من نية حسنة او سيئة كما يعلم بالاعمال الظاهرة ، و هكذا لا تقدرون على تبرير اعمالكم الفاسدة و الاعتذار منها ببعض الكلمات الفارغة .

]فينبؤكم بما كنتم تعملون[

الرؤية الرسالية:

وهذه الاية تدل على ان المؤمنين الصادقين يتسلحون برؤية رسالية تمكنهم من كشف طبيعة المنافقين

، ومن مظاهر هذه الرؤية النظر الى الفرد من خلال تأريخه الماضي ، و اعماله المستبقلية ، دون الاكتفاء فقط باقواله و تبريراته.

وبما ان المنافق مجتث الجذور ، متلون حسب المتغيرات ، وانه لا يريد الاستمرار في خطه مستقبلا لذلك فهو يتستر تحت ستار كثيف من الكلمات الفارغة و الاقوالالكاذبة المؤكدة بالأيمان ليعوض عن عمله بقوله ، وعن تصرفاته المتغيرة بتبريراته الواحدة المؤكدة ، لذلك فان كثيرا من البسطاء ينخدعون باقواله و تبريراته . انما المؤمن الصادق ينظر الى عمل المنافق لا الى قوله ، فيتخلص من خطر عظيم هو الانخداع بالمنافق ، ذلكالخطر الذي وقعت فيه -ومع الاسف - شعوبنا اليوم بالنسبة الى الطغاة ، والى جيش المنافقين من خدمهم و حشمهم الذين يبررون ابدا تصرفاتهم بشعارات عامة و أنيقة فاذا مال الطاغية الى الشرق ترى الصحفي المأجور يحمد بأسم الشرق حتى يجعله كعبة الطموح ، واذا اتجه الطاغية غربا تراه يقدس الغرب و يكيل التهم كيلا ضد الشرق كما فعل قديما خادم حاكم نيسابور حيث ينقل المؤرخون انه طلب من خادمه ان يطبخ له الـ (باذنجان) فاخذ الخادم يعدد لسيده فوائد الـ)باذنجان) ولكن ما لبث الحاكم ان غير رأيه ، فاخذ الخادم يبين مضاره وكأنه سم زعاف ، فنهره الحاكم وقال : كيف تقول هذا ، وقد عددت قبل لحظات فوائد الباذنجان حتى ظننت انه دواء لكل داء . فقال الخادم : فداك أمي و ابي إنك تعلم بانني خادم لحاكم نيسابور ولست خادما للباذنجان.

ولو تسلحت شعوبنا برؤية الاسلام واخذت تقيم الاشخاص و الحكومات باعمالهم و تاريخ حياتهم وانتظرت حتى ترى انجازاتهم الحقيقية اذا لرفضت ان تدفع قرشا واحدا لشراء الصحف المنافقة التي تطبل لكل طاغية و تخدع الناس بترديد شعارات فارغة لا اول لها ولا اخر.

[95]وهكذا تجد المنافقين يتقنون صناعة الكلام لانهم لا يحسنون عملا ، و كلامهم ابدا مؤكد بالأيمان لانهم لا يريدون تأكيد كلامهم بالاعمال الواقعية.

]سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس]انهم يريدون السكوت عن جرائمهم ، بتصغيرها و تقليل خطورتها في اعين الجماهير ، ولكن على المؤمنين ان يعرضوا عنهم و يسكتوا عن جرائمهم لانها لا تصلح بالكلام ، ولانهم قد سقطوا كليا عن اعين الناس و انفصلوا عن الجماهير و اصبحوا رجسا قذرا نجسا.

]ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون[

[96]و أكد القرآن على ان هدف المنافقين من أيمانهم هو استرضاء الناس ، وعلى الناس الا يكونوا طيبين مع المنافقين الخبثاء فلا يرضوا عنهم . لانهم لو رضوا عنهم فان الله لا يرضى عنهم بسبب اعمالهم الاجرامية ، و استمرارهم على نهجهم السابق.

]يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين]نعم اذا غيروا واقعهم و تابوا عن فسقهم فان الله تواب رحيم.

وكلمة اخيرة : المؤمن يرضى برضا الله تعالى و يسخط لسخطه . واذا كان ربنا غير راض عن المنافقين فهل يسمح لنا بالرضا عنهم ؟

مواقف الأعراب من الرسالة

هدى من الآيات

لكي يعطي القرآن بصيرة واضحة تجاه سكان البادية ، و يربط تقييم الناس لهم بمدى التزامهم بالقيم ، بين السياق ان الحالة الأولية لسكان البادية تقتضي الكفر و النفاق لانهم بعيدون عن العلم ، و لذلك فهم اشد كفرا و نفاقا من غيرهم وابعد عن فهم حقائق الدين ، والالتزام بشرائعه.

وان هناك فريق من الاعراب يزعمون ان انفاقهم في سبيل الله نوع من الخسارة التي تلحقهم وبذلك يثبتون جهلهم و بخلهم ، وهم ينتظرون نزول البلاء عليكم مما يدل على نفسيتهم اللئيمة و المتخلفة بيد ان عليهم دائرة السوء بسبب لؤمهم و تخلفهم ، و الله سميع بما يقولون . عليم بما يضمرون.

بيد ان هناك فريقا من الاعراب يؤمنون بالله و رسوله ، و يتجاوزون حاجز البخل و الجهل ، فيدفعون أموالهم قربة الى الله ، ولكي يحصلوا على دعاء الرسول لهم بالخير ، و الله يوفر ذلك لهم ، وأنه سيدخلهم في رحمته الواسعة و الله غفور رحيم.

بينات من الآيات

طبقات المؤمنين:

[100)السبق بذاته قد لا يكون قيمة أساسية في مقابل قيمة التقوى ، ولكنه بكشف عادة عن التقوى تلك القيمة الاسمى عند الرسالات السماوية ، و السابقون الاولون هم افضل من غيرهم لانهم بادروا الى قبول الرسالة بارادة صلبة تتحدى الصعاب ، ولا تستسلم لضغوط الطغاة ولا للاعلام الفاسد المضلل.

]و السابقون الاولون من المهاجرين والانصار[

لا فرق بينهم رغم بعض النعرات الاقليمية التي كانت تحاول زرع الخلافات بين اهل مكة المهاجرين و اهل المدينة الانصار . ليس على اساس السبق الى الهدى ، بل على اساس الميزات المزعومة في المجتمع المكي او المدني ، ولكن الاسلام رفض بقوة هذه النظرة الجاهلية و ربط بين الفرد و عمله لا بين الفرد و اقليمه.

]والذين اتبعوهم باحسان[

فلم يتبعوهم بنفاق او من اجل مصلحة خاصة بل لله سبحانه . ان هؤلاء هم الذين يكونون في صف السابقين الأولين.

وربما تدل كلمة الاحسان على حالة نفسية هي حالة العطاء و الانفاق لا حالة الاستسلام و القبول المطلق.

]رضى الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدينفيها ابدا ذلك الفوز العظيم[

الصف المقابل للمؤمنين:

[101]لكي نعرف مدى تحلق السابقين في سماء الانسانية و الخروج عن جاذبية الشهوات و الضغوط لابد ان نلقي نظرة الى الطرف الاخر من الصورة لترى المنافقين كيف هبطوا الى حضيض الميوعة.

]وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق]فليس لانهم من اهل المدينة او من اهل مكة يمكن التغاضي عن ذنوبهم.

]لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم]فعلم الله تعالى كاف لعذابهم ، فاذا اختفى المنافق عن انظار الناس وعن نظر القيادة فلا يغنيه ذلك شيئا لان الله سبحانه قد احصى اعماله و هو الذي سوف يجازيهم فيعذبهم مرتين . مرة قبل انكشافهم وذلك بالعذاب الروحي ، ومرة بعده بالعذاب المادي ، وكذلك سوف يعذبهم بعد الموت عذابا عظيما.

ضعاف الايمان:

[102]وهناك فئة وسيطة يعترفون بذنوبهم و بذلك فهم اقرب درجة الى الايمان حيث ان له مرحلتين : فهم الحقيقة و تطبيقها ، واذا عرف البشر الحقيقة فربما لا يعمل بها اليوم ولكنه يعمل بها حين يمتلك قوة و أرادة كافية وهؤلاء.

]و اخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا واخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم]الله يعاملهم مثلما هم يعاملون القيم ، ولكن رحمة الله اوسع من ذنوبهم.

بين الصدقات و التطهير

هدى من الآيات

بعد ان بين لنا الدرس السابق ان فريقا من الناس خلطوا عملا صالحا واخر سيئا جاء هذا الدرس ليبين لنا ما يصلح هذا الفريق ، فبدأ الحديث ببيان اخذ الصدقات منهم لتطهير اموالهم و لتزكية نفوسهم ، و أمر القرآن الرسول (ص (بالصلاة عليهم لانه تسكين لقلق نفوسهم المتورطة في الذنوب ، و الله سميع لما يصدر منهم من اصوات ظاهرة و عليم كذلك بخفاياهم.

وبما ان الله يقبل التوبة عن عباده فلابد ألا ييأس هؤلاء من روح الله ، و ليبادروا بانفاق الصدقات لانه يأخذها بفضله ، وانه هو التواب الرحيم.

ولا يعني التوبة وإعطاء الصدقات الاستغناء عن العمل . كلا .. بل عليهم بالعمل الدائب الذي سيتجسد و يراه الله و رسوله و المؤمنون ، و سوف يجازيهم الله العالم بالظاهر و الباطن و الغيب و الشهادة.

وهناك فريق من الناس ابعد من هؤلاء و حسابهم على الله ، فاما يعذبهم او يتوب عليهم حسب علمه بواقعهم و حكمته البالغة و المحددة بطبيعة الجزاء الذي يستحقونه.

بينات من الآيات

متى تكون الصدقة قسرا ؟

[103]الصدقة كل عمل يمارسه الفرد تقربا الى الله و انبعاثا من ايمانه بالله و اليوم الاخر ، و الصدقة المالية هي الانفاق المالي بدافع التقوى و الايمان ، و هناك فريق من الناس لا يعطون الصدقات بل تؤخذ منهم اخذا ، و هؤلاء هم الذين خلطوا عملا صالحا واخرسيئا ، والذين حدثنا القرآن عنهم في الآية السابقة و لذلك امر الله رسوله (ص) ومن ورائه (القيادة الاسلامية (باخذ الصدقة من اموالهم حتى ولو وجدوا صعوبة نفسية من دفع الصدقات طوعا و رغبة ، ولكن لا يعني ذلك الاقتصاص منهم او اعتبار ذلك كالجزية التي هدفها القهر و التصغير . لا .. انما هدف اخذ الصدقة:

اولا : تطهير أموالهم و تنظيف سمعتهم الاجتماعية.

وثانيا :تزكية نفوسهم و تربيتها على الكرم ، و الخروج من زنزانة البخل ، و رفعهم الى مستوى العطاء و الاحساس بمسؤوليتهم الاجتماعية.

]خذ من اموالهم صدقة تطهرهم و تزكيهم بها[

ولا يعني اخذ الصدقة الاستيلاء على اموالهم ، بل اخذ قدر محدد منها مثل الخمس و الزكاة او سائر الحقوق الاجتماعية التي تحددها الظروف الاجتماعية.

ولكن هذا الاخذ يجب الا يسبب لهم حرجا نفسيا يبعدهم عن طريق الحق ، لذلك يجب الدعاء لهم.

]وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم[

و الدعاء لهؤلاء بالخير و البركة يعني ايضا السعي وراء خيرهم و رفاههم في مقابل عطائهم كأي دعاء اخرى حيث انه ليس منفصلا عن العمل من اجل ما يدعو لهالفرد.

و الدعاء بالصلاة لهؤلاء يسبب سكون نفوسهم و اطمئنانهم الى الله ، والى المجتمع المسلم الذي تمثله القيادة الرسالية ذات الاهتمام بكل الناس.

]و الله سميع عليم[

يسمع الدعاء ، و يعلم باهداف المصلي الذي يبتهل اليه سبحانه بالدعاء ولاخوانه.

قبول الله للصدقات:

[104]علم الله تعالى باحوال عباده يجعلنا نؤمن بانه يقبل التوبة الصادرة عن عباده ، وانه ياخذ الصدقات بالرغم من ان المبتهل الى الله هو الرسول او المؤمنون ، فان الله هو الذي يقبل التوبة لا الرسول فقط ، و بالرغم من ان الرسول يأخذ الصدقة في الظاهر ولكنالله هو الذي يأخذها في الواقع.

]الم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده و يأخذ الصدقات وان الله هو التواب الرحيم][١٠٥] لكي يطهر هذا الفريق الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا ليطهروا انفسهم و يزكوها و يعطوها المزيد من الصلابة الايمانية فان عليهم ان يعملوا فالعمل يخلف اثرين في النفس برسوخ الايمان فيها ، وفي الواقع الخارجي بمكاسب يراها اللهويراها الرسول و المؤمنون.

]وقل اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله و المؤمنون]ولذلك لا قلق ابدا على الانسان العامل ان يضيع عمله في زحمة الاحداث ، ولا خوف من عدم حصوله على نتائج عمله . عاجلا ام اجلا هنا وعند الاخرة.

]و ستردون الى عالم الغيب و الشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون]فالله سبحانه الذي يعلم الظاهر و الباطن لا يكتفي باعطاء الجزاء الوافي للعامل ، بل وايضا يبين للعامل ان هذا الجزاء انما هو لذلك العمل ليكون ألذ و أطيب و أدعى الى الأعتزاز و الفخر.

كل هذا علاج شاف للنفوس الضعيفة التي لا تمحض الايمان ، ولا تخلص العمل الصالح بل تخلطه بالعمل السيء.

وكلمة اخيرة : ان اكثر المسلمين هم من هذا الفريق . الذي لم تتكامل شخصيتهم الايمانية فعليهم ان يستفيدوا من هذا العلاج لتعميق روح التقوى في نفوسهم.

المرجون لأمر الله:

[106]هناك فريق اخر لا يصلحون انفسهم ولا يستفيدو من هذا العلاج القرآني لضعف نفوسهم و خور عزائمهم لذلك يبقى هؤلاء مرددين بين النار و الجنة.

]و آخرون مرجون لامر الله اما يعذبهم واما يتوب عليهم و الله عليم حكيم [ربما حسب ظروفهم الاجتماعية فقد يكون الذنب بسبب ظروف صعبة لايحتملها ايمان الفرد و ارادته ، فرحمة الله تعالى واسعة ، و قد يكون الذنب بسبب تحدي سلطان الله او اللامبالاة بأوامر الله ، او الاسترسال التام مع الشهوات فالله شديد العقاب.

]و الله عليم حكيم[

ومن هنا فعلى البشر الا ييأس من روح الله ولا يسترسل مع الذنوب حتى ولو كانت ذنوبه كثيرة و كبيرة بل يقف فيها على حدود معينة تبعا لظروفه الضاغطة عليه باتجاه الذنوب و يحاول ابدا ان يدع علاقاته بالله باقية غير مقطوعة.

كما ان عليه الا يعتمد كليا على رحمة الله ، فربما يكتشف عند الموت ان نقمة الله تستقبله بدل رحمته بسبب ذنوبه الكبيرة.

علم الله بلطائف نيات البشر ، و دقائق أعمالهم ، و حكمته البالغة التي لا يسقط شيئا من حسابه و تقديره كل ذلك يجعلنا حذرين ابدا حاسبين حساب كل شيء ، عاملين حسب المستطاع من أجل الخلاص من عذاب الله ، و الوصول الى رحمته الواسعة.

رسالة المسجد و مسجد الضرار

هدى من الآيات

في معرض بيان للفئات الاجتماعية المختلفة في هذه السلسلة من الدروس يبين السياق حالة فئة منافقة تتستر بالدين ، و تتخذ مسجدا للأضرار بالمسلمين و افساد عقائدهم و بث التفرقة بين صفوفهم و تعبئة للقوى المعادية للرسالة . كل ذلك تحت شعارات براقة و بادعاء انهم انما يريدون الخير و الحسنى للناس بينما يشهد الله انهم كاذبون.

و ينهى الله و رسوله من القيام في هذا المسجد ، لان المسجد يجب ان يكون بناؤه على أساس التقوى وليس الاضرار و الكفر و التفرقة و بتعبير اخر على أساس النفع و الايمان و الوحدة وبدل تجميع القوى المعادية ، يجب ان يجمع المسجد رجالا يحبون التطهر و الصلاح ، والله يحب المتطهرين.

ان المسجد يجب ان يبنى على اساس التقوى و رضوان الله و اتباع مناهجه ، والا فهو من دون اساس ثابت بل مبني على طرف هاوية ، و بالطبع سوف ينهار هذا٤ + ٢٧٧

البناء ، وتكون عاقبة أهله نار جهنم ، لان اساسه منحرف ، والله لا يهدي القوم الظالمين الذين انحرفوا فظلموا انفسهم بالكفر والفساد.

وهذا البناء التحريفي لا أساس له حتى في نفوس بناته ، لانهم يشكون في سلامة خطتهم و يرتابون حتى تقطع قلوبهم و تشتت ارادتهم والله عليم بما يفعلون ، وحكيم حينما يجازيهم على أفعالهم.

بينات من الآيات

مسجد ضرار:

[107]مرة اخرى يكشف لنا القرآن عن خطة شيطانية ماكرة هي تستر فئة من المنافقين بشعار الدين ، وبناء المساجد للفساد ، و يبين أن علينا ان نكون حذرين فلا تخدعنا المظاهر بل ان نتعمق ابدا الى ما ورائها من أهداف ، وكل عمل يقوم به شخص او فئة يجب ان نجعله فيسياقه التأريخي و نقيسه على أساس الغايات المتوخاة من ورائه.

فهؤلاء فئة من المنافقين اتخذوا مسجدا بهدف الاضرار بينما أساس المسجد هو النفع .. المسجد لله تعالى وقد اتخذ هؤلاء مسجدا للكفر بالله . لتكريس قيم الشيطان ، مثلا : لتفريق الناس على أساس عنصري أو قومي أو أقليمي أو عشائري ليقولوا : هذا من أهل المدينة وهذا من أهل مكة ، ونحن نقبل الخزرج دون الأوس.

وهدف بناء المسجد تعبئة الطاقات الخيرة في المجتمع بينما هدف هؤلاء من بناء المسجد تجميع شذاذ الارض ، وارصادهم و دفعهم نحو مقاومة الرسالة.

]والذين اتخذوا مسجدا ضرارا[

أي للاضرار بالناس لا النفع ، وربما أضحى المسجد ضرارا لانه بني بأموال المستكبرين ، مثل كبار الرأسماليين و رؤساء القبائل العنصريين و لذلك لم يكن من الممكن ان يهدف المسجد سوى الضرار و استغلال المستضعفين ، و التسلط على رقاب الناس باسم الدين هذه المرة.

]و كفرا[

و محتوى ذلك المسجد من الناحية الايدلوجية و الثقافية كان الكفر بالله و بالقيم الرسالية ، بالرغم من اقامة الصلاة فيه . لان الصلاة كانت ضد الصلاة الحقيقية ، وتلك الشعائر التي تهدف اعادة حكومة المستكبرين ليست سوى الكفر و الضلال.

]و تفريقا بين المؤمنين[

كان المسجد يميز بين الفقراء و المستضعفين و المهاجرين من أهل مكة ، وبين الاغنياء و رؤساء القبائل و كبار المنافقين من أهل المدينة ، بينما المسجد الرسالي يجمع الكل على صعيد المساواة.

]و ارصادا لمن حارب الله و رسوله من قبل[

فبينما ينبغي ان يكون المسجد منطلقا لتجميع الطاقات المؤمنة الصادقة مع المجتمع ، ترى هذا المسجد يجمع كل منافق ، و يعبؤهم لمحاربة الله و رسوله.

كل ذلك و أصحاب هذا المسجد يدعون بانهم لا يهدفون شرا ، بل هدفهم مقدس و هو تحقق أفضل حياة للانسان ، وحماية حقوق البشر ، وصيانة الاستقلال و الحرية.

]و ليحلفن ان اردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون]اساس المسجد واهدافه:

[108]وينهى الله رسوله و بحزم بالغ ألا يقوم في هذا المسجد ابدا.

]لا تقم فيه ابدا[

فحتى لو كان البناء باسم المسجد فانه لا يكتسب شرعية ، لأنه مبني بهدف الفساد والكفر ، وقيام الرسول أو القيادة الرسالية في مثل هذه المساجد التي بنيت لتكريس سلطة الطغاة او لتحقيق قيم الجاهلية يعطي شرعية زائفة لها.

]المسجد أسس على التقوى من أول يوم احق ان تقوم فيه]و التقوى هنا تفسر بما سبق وهو : أن يكون هدف بناء المسجد النفع لجميع الناس من الناحية الاقتصادية و الاجتماعية ، و اشاعة قيم الرسالة من الناحية التربوية و بث روح التحابب و التعاون من الناحية الخلقية و السياسية.

اما من يجتمع في هذا المسجد و يقود مسيرته ، فهم اناس نظيفون هدفهم أولا تزكية ذواتهم ، ثم تربية الناس.

]فيه رجال يحبون ان يتطهروا و الله يحب المتطهرين]فليس هدفهم استغلال الفقراء ، ولا التسلط عليهم باسم الدين ، ولا التعالي عليهم بأسم العلم و الفضيلة ، بل هم بدورهم يبحثون عن الطهارة ، و يهدفون تكميل شخصياتهم ، وبذلك يضربون مثلا حيا لمن يقوم في المسجد من الناس.

[109]ان أساس هذا المسجد مختلف عن مسجد الضرار الذي لا أساس له . ان بناء هذا المسجد الرسالي قائم على أساس التقوى ، و البحث عن رضا الله تعالى ، وبالتالي تنفيذ مناهج الرسالة و تحقيق اهدافها بينما قام ذلك المسجد على أساسمتزلزل ، انه قام من أجل الأهواء و المصالح التي لا تثبت على حال . بل تتبع رياح القوة و الثروة ، فاذا هبت الرياح جنوبا أو شرقا تراهم من أفضل خدم الشرق واذا هبت شمالا أو غربا تراهم من افضل تلامذة الغرب واذا حكم آل كذا ! فعلى أهل المسجد التسبيح بحمد آل كذا ! واذا حكم اعداؤهم فعليهم لعن آل كذا!

]أفمن اسس بنيانه على تقوى من الله و رضوان خير أم من اسس بنيانه على شفا جرف هار]إي الطرف القريب من المنحدر.

]فانهار به في نار جهنم[

ان على المسجد ان يكون له ثقل في الواقع الاجتماعي و السياسي يهتدي الناس به كما يهتدون بالنجوم الثابتة . و يطمئنون اليه و يسكنون في ظله كما يطمئن شتات المستضعفين الى الامام الهادي ، وكما يسكن الخائفون الى ركن شديد ، المسجد يعبىء الطاقات المؤمنة بعد أن كانت متفرقة و يعطيها قوة التجمع بعد ان كانت مستضعفة لذلك يجب ان يكون المسجد مستقلا عن متغيرات السياسة ، و يجب ان يكون ائمة المساجد مستقلين عن السلطات ، اما اذا كانوا أقمارا في فلك السياسة المتغيرة فان الله لا يهديهم طريقا لأنهم ظالمون لانفسهم ولدورهم الرسالي.

[و الله لا يهدي القوم الظالمين]

الشك والاهداف القصيرة:

[110] وهذا المسجد القائم على اساس الظلم يبقى من دون أساس حتى بناة المسجد لا يعتمدون عليه ولا يزالون يشكون فيه.

[لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا ان تقطع قلوبهم والله عليم حكيم] لانهم لا يؤمنون فعلا بالمسجد و بدوره الرائد في المجتمع ، فهم انما بنوه لغرض فاذا بلغوا هدفهم تركوا المسجد وكانوا كمن قال فيه الشاعر:

صلى المصلي لامر كان يطلبه لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

صفات المجاهدين

هدى من الآيات

في سياق استعراض فئات الناس حسب مواقفهم من الرسالة ، يذكرنا القرآن بالمثل الأعلى للمؤمنين ، وهم الفئة التي اشترى الله منهم كل مالديهم في الدنيا في مقابل الجنة في الاخرة ، لذلك تراهم يقاتلون في سبيل الله ولا فرق عندهم بين أن يقتلوا أو يقتلوا ، ولقد قطع الله معهم وعدا حقا ذكره في التوراة و الانجيل و القرآن ، وهل هناك من يفي بوعده بالطريقة التي يفي بها ربنا العزيز الحكيم ؟! تلك اذا صفقة رابحة يستبشر بها المؤمنون وهي فوز عظيم.

ومن صفات هذه الفئة التوبة (اصلاح الذات) و العبادة) التبتل الى الله في الدعاء و الصلاة) و الحمد (الرضا بما يقسم الله ، و الاطمئنان الى رحمته الواسعة) و السياحة (السير في الارض اعتبارا او جهادا) و الركوع و السجود ، و التسليم لله و الخضوع له، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و صيانة حدود الله.

كل هذه الأعمال الكبيرة تجعلهم أعلى مثل للانسان المسلم ، ولذلك يجب اننبشرهم و نهنيهم بها.

بينات من الآيات

علاقة الله بالمؤمن بيع و شراء:

[111]حين تدفع ألف دينار لتأخذ قطعة أرض من مالكها ، كيف تتعامل مع الألف دينار ؟ بالطبع سوف تقطع علاقتك الخاصة بها و تنتظر صاحب الأرض متى يطالبك بها لتدفعها اليه . كما انه بدوره ينتظرك حتى يدفع اليك الأرض التي اشتريتها ، و هكذا حين اشترى ربنا من المؤمنين ما هو لهم في الدنيا من مال و نفس ، و وعدهم الجنة و عد الصدق ، فانك أنت المؤمن البائع لا ترى لنفسك الحق في التصرف في نفسك او مالك ، لأنك قد بعتها الى الله نعم المشتري بأفض ثمن و هو الجنة ، ومن هنا يزداد شوقك الى الجنة كل لحظة لأنك قد امتلكتها بفضل الله.

هل تشك في أن الله سوف يدفع اليك ما وعدك ؟ . كلا بل هو أوفى من وعد لآنه غني حميد . مالك الجنان الواسعة التي عرضها السموات و الارض.

]إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم و اموالهم بان لهم الجنة]و لذلك تجد نفسك مشتاقة الى الجهاد لأنه طريقك الى الشهادة ، و هي سبيلك الى الجنة ، والى لقاء الله حبيب قلوب المؤمنين.

]يقاتلون في سبيل الله فيقتلون و يقتلون و عدا عليه حقا في التوراة و الانجيل و القرآن]وفي كل عصر تجد المؤمنين الصادقين يتسابقون الى الجهاد .من أيام موسى عهد عيسى (ع) ، الى عصر محمد (ص. (

]ومن اوفى بعهده من الله[

وفاء الله بعهده ثابت لأنه صادق و قادر و عزيز ، وهو أرحم الراحمين . يدفع اليك ما وعدك اضعافا مضاعفة .

]فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم]صفات المؤمنين:

[112]من مواصفات هذه الفئة ان كل جوانب حياتهم تتجلى بهذه الصفقة الرابحة ، فهم من أهل الجنة الذين لا علاقة لهم بالدنيا و حطامها ، لذلك نجدهم:

ألف :يتوبون الى الله في كل لحظة ، ومن كل ذنب يرتكبونه . غفلة أو جهلا أو جهالة ، و هكذا يصلحون أنفسهم كلما افسدتها عوامل الشهوة و ضغوط الحياة.

باء : و يعبدون الله و يتبتلون اليه ويتضرعون ليل نهار ، وبذلك يزدادون رسوخا في الايمان و صلابة في الجهاد.

جيم :و يحمدون الله سبحانه ، فهم ابدا راضون بما يعطيهم ربهم سبحانه ، وهكذا تكون شخصياتهم سليمة غير معقدة بتلك العقد التي تتراكم على قلوب أهل الدنيا بسبب الاحباطات النفسية التي يتعرضون لها ، وهكذا يزدادون قدرة على العطاء و تحملا للعناء و سلامة في الجسم.

دال : و يسيحون في الأرض لينظروا ما فيها من عبر التأريخ و يستخرجوا ما فيها من طاقات سخرت لعمارة الارض ، و ليروا من فيها من بشر ينتظرون الهداية و البلاغ ، و بالتالي ليرضوا أنفسهم على التعب من اجل الله.

هاء : يركعون و يسجدون لأنهما مظهران من مظاهر العبادة الصادقة و التبتلالى الله.

واو : و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر لأنهم قد هيأوا أنفسهم لهذه المسؤولية الكبيرة.

زاء :و يعتبرون أنفسهم شهداء على تطبيق النظام الاسلامي . و حدود الشريعة المقدسة ، لذلك فهم حافظون لحدود الله . سواء بأنفسهم فلا يعطون لأنفسهم الحق في تغيير حدود الشريعة باجتهادهم أو بسبب انهم ثوار مجاهدون . كلا .. بل يلتزمون دائما قبل الاخرين بتفاصيل المناهج التي بينها لهم ربهم سبحانه ، ولذلك فان الله يبشرهم برحمة واسعة منه.

]التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الامرون بالمعروف و الناهون عن المنكر و الحافظون لحدود الله و بشر المؤمنين[

الولاء للرسالة

هدى من الآيات

لقد فصلتٍ آيات الدرس السابق مواقف الفئات من الرسالة ، وفي هذا الدرس و الدروس القادمة يبين السياق القرآني جوانب من علاقات هذه الفئات ببعضها ، وبدئها بضرورة فصم الولاء بين المؤمنين و المشركين حتى ولو كانوا أقاربهم الأدنين.

فلا يجوز للنبي و الذين ءامنوا ان يستغفروا للمشركين ، لان ذلك نوع من العلاقة الايجابية المحظورة شرعا و لأن الاستغفار لا ينفع أحدا اذا أصر على الشرك و العناد.

ولم يكن استغفار إبراهيم (ع) لابيه وهو يعلم أنه مشرك الا بسبب وعد بينهما ، وربما كان يرجوا إبراهيم اهتداء ابيه ، بيد أنه لما علم أنه عدو لله تبرأ منه ، وقد كان إبراهيم (ع) ممحضا في التوحيد و متبتلا الى الله ، وكان في الوقت ذاته حليما.

ولقد هدى الله البشر بالفطرة ، و أرسل اليهم رسلا بينوا لهم شرائع الدين ، فلما خالفوا تلك الشرائع - و ليس قبل ذلك - أضلهم الله ، و الله بكل شيء عليم.

وهكذا ينهى الله سبحانه عن الاستغفار للمشركين لأنه هداهم فاستحبوا العمى فاضلهم و أبعدهم ، و الله ولي البشر لأن له ملك السموات و الارض دون أسرة الانسان و أقاربه.

بينات من الآيات

شروط الاستغفار:

[113]بعض الناس يذنب و يتمنى لو أن الرسول أو أحد الأولياء يشفع له ذنبه بمجرد انه ابن ذلك الولي او تابع للرسول.

وقد يكون ذلك التمني معقولا ولكن بشروط ثلاث:

اولا - :الا يكون مجرد تمني بل يشفع بعمل وسعي ، يقول القرآن الحكيم في آية كريمة : " ام للانسان ما تمنى فلله الاخرة و الاولى " ، الى قوله سبحانه " : وأن ليس للانسان الا ما سعى " مما يدل على ان التمني لا يجدي نفعا لو بقي في حدود التمني.

ثانيا : - ان تكون علاقته بالولي ، او بالرسول علاقة ايمان لا علاقة اعجاب عاطفي او انتماء نسبي ، فالرسول (ص (ليس ابا لأحد من الرجال بل هو قبل كل شيء رسول بعثه الله ليطاع باذنه ، فلو كانت العلاقة معه نابعة من الايمان بالله فانها تشفع له.

ثالثا : - الا يكون الذنب هو الشرك بالله العظيم لأن الله يغفر كل الذنوب دون الشرك بالله تعالى.

ضمن هذه الشروط يقدر النبي أو الولي ان يشفع للمذنبين ، ولكن لا تعني الشفاعة انه يفرض على الله غفران ذنوبهم ، بل أنه يدعو و الله يستجيب دعاءهبفضله ، وهكذا تكون الشفاعة و الاستغفار بمعنى واحد لان الاستغفار هو الدعاء بغفران ذنب المذنبين ، و الآية التالية تؤكد على الشرط الاخير الذي هو الأهم من هذه الشروط الثلاث للشفاعة فتقول:

]ما كان للنبي و الذين ءامنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم]فمادام الشخص مشركا فهو من اصحاب النار لا محالة فلماذا طلب المغفرة له ، و لماذا أساسا الارتباط النفسي به . إنه من أمة ونحن من أمة ان صاحبه النار و صاحب المؤمنين الجنة.

[114]نعم ان الاستغفار يجوز للمشرك و ذلك بطلب الهداية له من الله سبحانه ، كما كان الرسول (ص) يكرر هذه الكلمة في المواقف الحرجة من حياته الرسالية (اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون) وكما كان إبراهيم (ع) وعد أباه ان يستغفر له قال : " سلام عليكسأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا و اعتزلكم وما تدعون من دون الله و أدعوا ربي عسى الا أكون بدعاء ربي شقيا."

ذلك لانه كان يسعى انئذ نحو هداية قومه و اخراجهم من ضلالتهم ، اما بعدئذ حينما تبين له ان أباه و قومه اعداء لله ، وان شركهم ليس لجهلهم بل للعناد و التحدي . هجرهم و تبرأ منهم.

]وما كان استغفار إبراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم

لاواه حليم [115][والله كذلك لا يأمرنا بمقاطعة المشركين فورا ومن دون سابق تبشير وانذار ، انما علينا ان ندعوهم الى ا لهدى بكل وسيلة ، ومنها الدعاء لهم بالهداية ، فاذاعاندوا تركناهم و تبرأنا منهم ، كما أنه سبحانه لن يضل الناس بعد ان هداهم . وكشف لهم تفاصيل الشريعة.

]وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم[

ان هدايته اما تكون بالفطرة حيث خلق الله الناس وأركز في أنفسهم معرفته و زودهم بالعقل ليعرفوا الحق ، أو تكون بالرسالة حيث بعث أنبياء ليهدوهم ، فلما أهتدوا وأنعم الله عليهم بالرخاء طغوا و نسوا ما ذكروا به . هنالك يضلهم الله و يسلب منهم نعمة الهداية التي سبق و أنعم بها عليهم فلم يراعوها حق الرعاية ، و أهملوا السنن التي بينها لهم ، و أهملوا المحرمات التي امرهم الله تعالى باتقائها واجتنابها.

]حتى يبين لهم ما يتقون[

أي الذنوب التي يجب اجتنابها.

]ان الله بكل شيء عليم[

فهو عليهم بأسباب شقاء الانسان ، و كيف يجب اتقائها ، و عليم بواقع ذلك القوم الذي لم يجتنب الذنوب و أرتكب أسباب الشقاء ، لذلك فلما يضلهم ، يضلهم بعلم سبحانه.

[116]كذلك يجب الا ينتمي الانسان الى قرابته بل الى الله ، فلا يستغفر للمشركين من أقاربه ، لأن الله له ملك السموات و الارض و أسرة الفرد لا تغني شيئا عن الله.

]ان الله له ملك السموات و الارض يحي و يميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير[

الطاعة في ساعة العسرة

هدى من الايات

ان الله تعالى يغفر الذنوب التي ارتكبها البشر تحت ضغط الظروف الصعبة مثل ساعة العسرة التي مر بها اصحاب الرسول (ص) وكادت قلوبهم تصاب بالزيغ و الانحراف بل الضلال ، فغفر الله لهم لأنه رؤوف رحيم بهم ، و يعرف مدى ضعفهم ، كما غفر الله لأولئك الذين تخلفوا عن المعركة ثم تابوا الى الله و عرفوا الا ملجأ من الله الا اليه ، فآنئذ تاب الله عليهم ، ليعودوا اليه والى مناهجه السماوية.

وهكذا ياتي هذا الدرس مكملا لآيات الدرس السابق التي تبين لنا أن الاستغفار انما هو قبل بلوغ الذنب مستوى الشرك بالله ، فاذا بلغه فان الله لا يغفره ابدا ، اما قبلئذ فان الله سبحانه يغفر بعض الذنوب.

بينات من الآيات

الشفاعة متى ولماذا ؟

[117]نعود - مرى اخرى - الى الشفاعة ، و متى و كيف يشفع الرسول في أمته ؟

لنؤكد على حقيقتين:

الاولى : ان الشفاعة من عمل الانسان و سعيه ، وليست من تمنياته وأحلامه.

الثانية : ان الهدف من الشفاعة تعميق الصلة بين الرسول (ص) و قومه ، و نستوحي من الاية التالية كلتا الفكريتين : ولكن كيف ؟

دعنا نتدبر في الاية الكريمة:

]لقد تاب الله على النبي و المهاجرين و الانصار[

توبة الله على ا لنبي تعني المزيد من بركاته عليه ، ولكن بالنسبة الى المهاجرين و الانصار قد تعني ايضا غفران ذنوبهم ولكن بماذا وكيف غفرت ذنوبهم ؟ بانهم ابتعوا الرسول في ساعات الشدة ، ولأن ذلك كان عملا كبيرا والله سبحانه يغفر بسبب الحسنات الكبيرة الذنوب الصغيرة لذلك أكدت الاية على هذه الحقيقة.

]الذين اتبعوه في ساعة العسرة[

فالصبر في ساعة العسرة عمل عظيم يغفر الله تعالى بسببه سائر الأعمال الصغيرة ، ولكن أهم نقطة هي اتباع الرسول ، وعدم الخلاف معه ، وعدم الاسترسال مع حالة الزيغ ، الذي يصيب البشر في مثل هذه الحالات الصعبة.

]من بعد ما كان يزيغ قلوب فريق منهم[

و زيغ القلب هو انحرافه عن الايمان بالله و الرسول ، واذا اتبع المؤمن قيادته ولم يتشكك فيها بسبب الظروف الصعبة فان ذلك يشفع له ذنوبه ، لأن الرسول او الولي الذي يمثل القيادة سوف يشفع له عند الله ، و يصلي له و يسغفر له ، وبهذا نعرف فلسفة الشفاعة فهي سبب لتمتين الارتباط بالرسول (ص (او بالقيادة السليمة.

]ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم[

حين تضيق بنا الحياة!

[118]وهناك حالة مفردة غفرها الله سبحانه وهي : أن ثلاثة من أصحاب الرسول)ص) تخلفوا عن الجهاد فغضب الله عليهم وأمر الرسول الا يكلمهم المسلمون ، فشعروا بضيق كبير حتى ضاقت عليهم الأرض بالرغم من سعتها و رحبها.

]وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم]ضيق الارض بسبب مقاطعة المجتمع لهم ، و ضيق أنفسهم بسبب شعورهم بالذنب لذلك توجهوا الى الله.

]وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه[

أي تصوروا هذه الحقيقة ماثلة أمامهم كانهم يرونها بالرغم من ايمانهم المسبق بهذه الحقيقة وهي ان الكهف الحقيقي لا يوائهم في زحمة المشاكل هو حصن الله الحصين.

]ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم[

خطوات المجاهدين عمل صالح

هدى من الآيات

من أجل تحريض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله ، أكد القرآن الحكيم على ضرورة التقوى و الانسجام مع المؤمنين الصادقين ، وفي طليعتهم رسول الله)ًص) الذي لا ينبغي التخلف عنه أو تفضيل حياتهم و راحتهم على حياته و راحته لأنه لا يصيب أحدا من الاعراب أو من أهل المدينة شيء من الأذى الا كتب له بقدره عمل صالح يجازي به سواء كان ذلك الأذى عطشا أو تعبا او مجاعة ، ولا يعملون عملا الا سجل بحسابهم سواء كان صغيرا او كبيرا ، و مقياس العمل هو التحرك في سبيل الله ، أو مقاومة اعدائه ، وان الله لا يضيع اجر المحسنين.

كما ان أية نقطة صغيرة أو كبيرة محسوبة عند الله ، وكذلك قطع المسافات هو الاخر محسوب بقدر الجهد و العناء الذي يصيبهم بذلك ، والله سبحانه سوف يجازيهم خيرا عليه.

وعلى المؤمنين المنتشرين في أقطار الأرض ان تختار كل فرقة منهم طائفة لينفرواالى (المدينة) مركز القيادة الاسلامية لكي يكونوا قريبين من الاحداث ، ويعرفوا تعاليم الدين ، و يتعمقوا في فهم الرسالة ليقوموا بعد عودتهم بواجب الانذار لقومهم بهدف تزكية و تعليم قومهم ، واعادتهم الى الصراط المستقيم .

بينات من الآيات

واجبات و أولويات المؤمن:

[119]ثلاث واجبات متكاملة ينبغي ان يعقد المسلم عزمه على تحقيقها:

اولا : الايمان المستقر في قلبه.

ثانيا : التقوى و تنفيذ سائر الواجبات الاسلامية.

ثالثا : ان يكون مع الصادقين وهم التجمع الرسالي.

]يا ايها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين]وأي واحد من هذه الواجبات الثلاث لا يكتمل من دون سائر الواجبات ، و بالذات الانتماء الى تجمع الصادقين ، و التفاعل معهم ثقافيا و اجتماعيا و اقتصاديا ، و مشاركتهم الهموم و الآمال . ذلك لأن هذا التجمع حصن الايمان و التقوى ولأن ضغط الحياة و تحدياتها كبيرة ولا يستطيع المؤمن أن يواجهها وحده.

صفات المجتمع الرسالي:

[120]المجتمع المستقر الراكد ليس مجتمعا رساليا ولا مسلما لأن الاسلام الحقيقي هو الاهتمام بشؤون الاخرين ، و الدفاع عن حقوق المستضعفين الى درجة الجهاد من أجلهم ، و المجتمع الاسلامي لا يجمد في حدود اقليمية ضيقة ، ولا يقول بناء الوطن اولا ، ثم الانطلاق لاصلاح الاخرين لأنه لا وطن للفضيلة و الخير ، ولاحدود للعدالة و الرفاه.

وهكذا كان الرسول)ًص) نذيرا للعالمين ، وهكذا كان يجب على أهل المدينة وهم أبناء المجتمع الاسلامي الاول ، ان يتبعوا الرسول في حمل رسالته بلاغا و تنفيذا ، قولا و عملا.

]ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله]فيقعدوا في بلدهم و يطبقوا الاسلام و يقولوا علينا باصلاح بلدنا وحده . كلا .. كان عليهم ان يسيروا في الارض كما كان يسير رسول الله)ص) ، و يحملوا على أكتافهم مشعل الرسالة الى كل مكان . أو كانت نفوسهم أعز من نفس رسول الله (ص) ، من يدعوا نفس رسول الله تتعرض للمصاعب و الأخطار بينما نفوسهم آمنة في المدينة ؟

]ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله]وبالتالي لا يصيبهم مكروه الا وهو مسجل عند الله تعالى و يوفيهم جزاءهم كاملا.

]ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار[

فسواء بقوا او اتبعوا العدو تضرروا او أضروا بالمخالفين.

]ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين]فهناك مقياسان للعمل الذي يجازيه ربنا الرحيم به:

المقياس الاول : ان تحسب مقدار عنائك و تعبك.

المقياس الثاني : ان تقيس مقدار تجسد عملك في الخارج و بالذات اثره في عدوك ، فان الله سبحانه حسب هذا المقياس او ذاك سوف يجزيك دون ان يضيع عنك اجرا.

ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره:

[121]كذلك الله يحسب حساب نفقاتك وحتى خطواتك.

]ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون]فالجزاء دقيق وافضل من العمل ، ولذلك لا تنظر الى عملك نظرة مطلقة وعامة ، بل انظر الى كل جزء من عملك ، واعلم بأن لكل جزء جزاء . مثلا : اعلم بأن كل تسبيحه تعني شجرة في الجنة فاشتل أكبر عدد ممكن من الاشجار في الجنان بأكبر قدر ممكن من التسبيح ، واعلم بأن كل خطوة تجازي بغرفة فابن لك غرفا أكثر بخطوات أكثر تخطوها للعمل الاسلامي.

الامة الاسلامية و واجب الطليعة:

[122]المجتمع الاسلامي مجتمع رسالي متحفز ابدا الى الامام ، وهو لذلك بحاجة الى طليعة رائدة همها الوحيد التفقه في الدين و التعمق في رسالته السماوية فهما و تطبيقا . وتكون هذه الطليعة شاهدة في الأحداث و قريبة من القيادة ، بينما يبقى الاخرون في أرضهم يقومون باعمالهم العادية.

]وما كان المؤمنون لينفروا كافة[

فيجتمعوا جميعا حول الرسول في المدينة او يخرجوا معه الى الغزوات.

]فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة [

أي نفر من كل فريق و مجموعة متماسكة بعض ليقوموا بالواجب نيابة عن الاخرين ، فمثلا من كل عشيرة ، ومن كل منطقة بعض أهل العشيرة ، وأهل المنطقة ليكون أقرب الى واقعهم و اعرف بمشاكلهم.

]ليتفقهوا في الدين[

أي ليعرفوا الدين أعمق و أفضل ، أما وظيفة هؤلاء بعد التفقه في الدين فليس الجلوس و اجترار الحسرات بل الانذار.

]و لينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون[

صفات الفقهاء:

الفقهاء في الاسلام يتصفون بثلاث صفات:

اولا : انهم ليسوا من طبقة أو عرق معين بل من صميم كل المجتمعات.

ثانيا :انهم يتعلمون الفقه داخل ساحة العمل الرسالي و ليس في زوايا المساجد او المدارس ، بل انهم

ينفرون مع الرسول او مع القيادة الرسالية ، و يتعلمون الدين عبر الصراع القائم بين الجاهلية و الاسلام.

ثالثا : انهم سوف لا يجمدون بعد التفقه ليأتي اليهم الناس ، بل ينطلقون الى مواقع قومهم و يقومون بواجب الانذار.

و الانذار بهدف ايجاد روح الحذر و التقوى عند الناس لذلك يجب الا يقتصرالانذار على مجرد اسقاط الواجب الشرعي ، بل يستمر الى تحقيق هدفه وهو تربية روح الحذر في الناس.

موقف المنافقين من القرآن

هدى من الآيات

وفي نهايات سورة التوبة المخصصة لبيان جوانب من شرائع الجهاد الاسلامي يبلغنا السياق الحكيم ضرورة البدء بقتال العدو الاقرب الينا بشدة و غلظة . مع المحافظة على حدود الله ، واتقاء تجاوزها حتى يكون الله معنا.

كما يبلغنا عن نفسية المنافقين و موقفهم السلبي تجاه الآيات القرآنية زاعميناانها لا تنفع شيئا و يتساءلون بسخرية وربما بغباء أي واحد من المؤمنين زادته هذه الآية ايمانا و يجيب القرآن : بأن المؤمنين استفادوا زيادة في الايمان و وجدوا في الايات نعمة يبشر بعضهم بها بعضا ، بينما الكفار و المنافقون توغلوا في العناد حيث اصروا على موقفهم السلبي ، فازدادوا رجسا بسبب كفرهم الجديد الذي استمر معهم الى النهاية.

وكما لا ينتفع المنافقون بالايات القرآنية النازلة وحيا ، كذلك لا ينتفعون بالآيات الكونية كالكوارث و المصائب التي عادة تنزل عليهم كل سنة ، أما مرة أومرتين ومع ذلك لا يتوبون الى الله ولا يتذكرون.

وهكذا موقفهم من الآيات اذا انزلت اية اخذ بعضهم ينظر الى بعض مشيرا الى عدم فهمه لمحتوى الاية ، ثم يلتفتون الى من حولهم خشية أن يراهم المؤمنون فيكتشفون موقفهم السلبي من الاية ، ثم ينصرفون و يذهبون ، و سبق ان ابعد الله تعالى قلوبهم عن الايمان بسبب جهلهم وعدم فهمهم.

بينات من الآيات

قرار الحرب لأقرب الاعداء:

[123]حينما تكون الأمة مستقلة في قرار الحرب و السلم ، و غير متأثرة بالأعلام المضلل الذي يقوم به الأعداء فانها تبدأ بقتال أقرب اعدائها خطرا عليها كما امر الله ، ثم اذا تفرغت منه توجه عداءها ضد العدو البعيد ، كما أمر الله في هذه الاية وقال:

]يا أيها الذين ءامنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار و ليجدوا فيكم غلظة]ومثل هذه الأمة لا تلين بسبب الاحساس بالخطر ، بل تتصلب أكثر فأكثر ضد مصدر الخطر القريب لأنها أمة مستقلة تعتز بكرامتها و أصالتها ، ولا تساوم على كرامتها احدا.

و الله تعالى يعد المؤمنين اذا كانوا كذلك ، واذا احترموا حدوده فلم يدفعهم الى القتال غرور أو طمع ، و بالتالي اذا اتقوا يعدهم ان يكون معهم.

]و اعلموا ان الله مع المتقين[

اما الامة المهزومة نفسيا ، و التابعة لتهديد الاخرين و اعلامهم فانها تعادي أبداالعدو الضعيف و البعيد الذي لا تحس منه الأمة بخطر مباشر عليها.

فالمسلمون حين كانوا أقوياء ناطحوا الروم الذي أحسوا بخطرهم المباشر ، و خاضوا معركة تبوك و مؤتة ، ولم يستسلموا للروم ليحاربوا معهم الفرس ، ولم يقولوا : ان الروم أقرب الينا دينا لأنهم نصارى و الفرس مجوس ، ولكن اليوم حيث يشعر المسلمون أولا اقل بعض الأنظمة الحاكمة عليهم بالضعف فانهم يستسلمون للعدو

الأقرب والأخطر و يتحالفون معه ضد العدو الأ بعد و الأقل خطرا ، فترى البلاد القريبة من الشرق تحارب الغرب بينما تتحالف مع العدو المجاورلها ، كما فعل نظام أفغانستان سابقا خضع لضغوط الروس ، وزعم بان عدوه الأصيل هو أميركا لا العدو القابع على بعد أمتار من أراضيه ، وانتهى بهذا العدو الى التحرك و القيام بانقلاب عسكري ، ثم التدخل العسكري المباشر . ومثلما يفعل اليوم النظام المصري حيث يتحالف مع النظام الاسرائيلي و يوجه أنظار شعبه الى خطر ليبيا الضعيف . أو مثلما تفعله بعض الحركات الاسلامية تهادن النظام الغربيالمتسلط على رقاب شعوبهم المستضعفة و تختلق الصراع مع الشيوعية ، وهكذا تتحالف مع العدو النازل في بيتها لتحارب السراق الاجانب الذين لا يعرف هل يأتون . أم هم مجرد بعبع يخوف به السارق الفعلي ضحاياه ؟

وهذا الضعف هو الذي خلق جيوب النفاق داخل الأمة الاسلامية ، فقد حاولت الأنظمة الطاغوتية ابدا ان تختلق اعداء وهميين ، وتغذي بعض ضعفاء النفوس بالحقد عليهم . يتخذ منهم أدوات طيعة لتحقيق تسلطهم السافر على الناس مثلما فعل نظام شاه ايراه السابق مع جيشه الذي رباه لمعاداة الشيوعية ، ومثلما يفعل اليوم نظام أفغانستان بجيشه المرتزق الذي يحاول اقناعه بأن العدو رقم واحد لأفغانستان هو (امريكا) لا المعتدي الروسي.

موقفنا و موقفهم:

[124]و المنافقون ابدا يشككون بقيمة الآيات القرآنية ، ولا يعرفون مدى انتفاع المؤمنين بها.

]واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايمانا فاما الذين ءامنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون]وهكذا كان موقف المنافقين سلبيا أمام السور القرآنية بسبب جهلهم بالحاجة الماسة اليها ، بينما المؤمنون فقد كانوا يشعرون بالحاجة لذلك كانوا يستبشرون كلما نزلت عليهم سورة و يتدبرون فيها و بذلك يزدادون ايمانا فوق ايمانهم.

متى يكون الهدى سببا في الضلال ؟

[125]ولأن المنافقين كانوا يكفرون بالسور الجديدة ، فان ذلك الكفر كان يكرس العناد في ذواتهم و يزيدهم رجسا الى رجسهم.

]واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون [قلب البشر مزود بجهاز رؤية يحدد مساره في شؤون الحياة ، فاذا وجد هذا الجهاز عقبة اجتماعية نبه القلب الى ضرورة التحدي . واذا واجه ازمة ذكر القلب بضرورة مضاعفة السعي ، واذا انذر حذر واذا بشر اندفع وهكذا .. فاذا أصيب القلب بمرض و تعطب الجهاز فان النتائجسوف تكون عكسية و خطيرة . فمثلا حين يواجه عقبة ليس لاينبه القلب الى وجودها فقط بل وايضا يقول انها طريق معبد ، واذا وجد ازمة يحسبها رفاها و يحتسب المشكلة رفاها وهكذا.

وهكذا تكون كل ظاهرة خارجية مفيدة لصاحب القلب السليم . بينما تكونمضرة بالنسبة الى القلب المريض ، وهكذا الكلمة الحق بالنسبة الى القلب السليم هدى و موعظة . بينما هي بالذات تتحول بالنسبة الى القلب المريض ضلالة و رجسا . كيف ؟

لنضرب مثلا : انك تنصح اخاك و تقول له : اقرأ كتاب نهج البلاغة ، وهو بدوره يرى فيك الاخ الناصح و يتقبل نصيحتك ولكن اذا قلت ذات الكلمة لعدوك فلأنه مصاب بعقدة تجاهك يفسر كل لكمة منك على انها اسلوب تستخدمه لتحطيمه . فانه سوف يترك قراءة نهج البلاغة لو كان يقرؤه سابقا ، وكذلك لو ألقيت هذه الكلمة الناصحة على شخص متكبر مغرور بنفسه فلا يكون رد فعله سوى الاستياء منك ومن الكتاب الذي تأمره بمطالعته ، وهكذا كانت بعض القبائل من قريش الذين كانوا يعتبرون بني هاشم منافسا تأريخيا لهم ، كانت مواقفهم من الرسالة نابعة من هذه العقدة . فعارضوا الرسالة ، وازدادوا معارضة لأفكارها و توجيهاتها الحقة لمجرد انها تجلت في بيت بني هاشم.

التفسير الخاطيء للاحداث و سببه:

[126]وكما موقف القلب المريض من الكلمة الحق ، موقف عكسي مضر كذلك موقف الانسان ذي الرؤية الفاسدة من الظاهرة الخارجية ، فبدل ان يفسرها تفسيرا مناسبا تراه يفسرها معكوسة و يعمل حسب ذلك التفسير . فاذا وجد تخلفا في حياته الاجتماعية فسره على انه نتيجة تمسكه بالتقاليد الاصيلة فتركها و ازداد تخلفا . بينما كان عليه ان يفسرها على انها نتيجة تبعيته للاخرين و تكاسله عن العمل.

وهكذا الفتنة التي هي ظاهرة صعبة في الحياة الاجتماعية مثلا : الفقر و المرض و الحرب و المجاعة ، كل ذلك اشارات خطر تدل على سلوك فاسد لذلك الانسان ، ولكنها بالنسبة الى المنافقين ذوي القلوب المريضة و الرؤوس الفاسدة ، ليست نافعةابدا . لأنهم يفسرونها تفسيرا شاذا.

]اولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة او مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون]فلا هم يعودون من الاعمال السيئة التي تسببت في تلك المشاكل ولا هم يتعمقون في فهم الحياة بسبب تلك المشاكل.

ويبدو من هذه الاية ان المجتمعات تصاب عادة بفتن و مشاكل عامة . بين فترة واخرى وان عليها ان تعتبر منها و تدرسها دراسة معمقة.

[127]وكان موقف المنافقين من سور القرآن الحكيم الجديدة ليس الملاحظة النظيفة و الدراسة السليمة من العقد ، بل تجاهلها و العودة الى عصبياتهم و افكارهم الجاهلية و تقييم السور الجديدة على اساسها.

]واذا ما انزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من احد]ربما كان ينظر بعضهم الى بعض ليرى كل واحد موقف رفاقه من السورة دون ان يكون لديه ثقة بعقله هو و الاستفادة منه في دراسة السورة.

]ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون]لا يفقهون ان فوائد السورة لهم اذا نظروا اليها بتجرد ودون اتخاذها وسيلة لنفاقهم ، و الانصراف عنها الى قيمهم الفاسدة.

صفات الرسول (ص(

هدى من الآيات

في الايتين الاخيرتين لسورة التوبة يذكرنا السياق بأن الرسول قادم من صميم قومه الذين أرسل اليهم فهو من انفسهم ، وانه يتأثر و يحزن اذا وجد مكروها يصيب قومه ، وانه يحرص على سلامتهم ، وانه رؤوف رحيم بالمؤمنين.

ولكن لا يعني ذلك ان الرسول (ص) يعتمد على قومه و يتأثر بسلبياتهم . كلا .. بل يصمد أمامها اعتمادا على الله تعالى فان تولوا فان حسبه الله يتوكل عليه ، وهو رب العرش العظيم.

بينات من الآيات

سيرة الرسول (ص: (

[128]المواقف الخاطئة للمنافقين من الرسالة ربما كانت بسبب سوء فهمهم لواقع الرسول (ص) وأنه جاء منقذا لهم من الآلام التي يعانون منها.

]لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم[

فهو يتحسس بالعناء الذي يعيشونه و يحزن لهم و يسعى من أجل تخفيف الالم عنهم.

]حريص عليكم[

يحرص على راحتهم ، و يسعى من اجل حصولهم على الراحة.

[بالمؤمنين رؤوف رحيم]

يوفر لهم أسباب الخير و الرفاه ، و يغض عن نواقصهم ، والأذى الذي يصيبه منهم .

لو لم يؤمنوا برسالته ؟

[129]ولكن رحمة الرسول (ص) ليست بعاطفة قومية أو اقليمية بل لأنه رسول الله ، و الله يامره بذلك ، لذلك لا يوقفه توليهم عن متابعة مسيرته.

[فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم [ولأنه رب العرش فهو الذي يدبر شؤون العباد و عرشه عظيم ، فهو أكبر من سلطان ذوي السلطان.

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

احاديث في فضل السورة

عن النبي محمد (ص: (

"قال من قرأها اعطي عشر حسنات بعدد من صدق بيونس و كذب به و بعدد من غرق مع فرعون "(مجمع البيان / ص ٨٧ / ج ٥(

وعن الامام الحسين (ع) قال:

"من قراها في كل شهرين او ثلاثة لم يخف عليه ان يكون من الجاهلين وكان يوم القيامة من المقربين "(مجمع البيان / ص ٨٧ / ج ٦ - ٥(

الاطار العام

لكي يتحدى الانسان ضغوط الطبيعة ، و ارهاب الطغاة ، كما فعل شيخ المرسلين نوح عليه السلام ، وكما امر موسى قومه بان يفعلوا . فلابد ان يؤمن بالله و بسلطانه على خلقه و تدبيره له ، و يؤمن بان جزاءه حق ، وانه يعاقب الكفارين بيوم الجزاء كما يثيب الصالحين بافضل الجزاء.

ومتى يعي البشر حقيقته وانه عبد لله ، وانه لا اله الا الله ؟

يعي ذلك عند الضراء ، حين تتساقط حجب الغفلة و الشرك و تتجلى قدرة الله سبحانه.

وتتأكد الذكرى بهذه الحقيقة في سورة يونس ثلاث مرات ، و تتناسب مع قصة قوم يونس حيث سمى القرآن السورة باسمه ، لانه قد رفع الله عنه العذاب بعد ان احاط بهم.

نقرأ في اي السورة ، عن جدل الكفار حول القرآن ، وكيف يفنده الذكر ، و لعل ذلك ، كجزء من التحدي الذي أمر به القرآن في هذه السورة (١٥ / ١٧. (

ولكي يتم عند النفس حالة التحدي في مواجهة الطغاة و القوى الطبيعية ، لابد ان يستهين المؤمن بالشركاء ، الذين لا يضرون ولا ينفعون (١٨) و تأخير العذاب عنهم ليس الا لكلمة سبقت من الرب (19) و الغيب عند الله (٢٠) و الله اسرع مكرا و رسله يكتبون ما يمكر المجرمون (٢١. (

وبعد ان يذكر القرآن الناس مرة اخرى بحالتهم عند إماطة الخطر ، و كيف انهم ينسون المشركين (٢٢/ ٢٣) يضرب مثل الحياة الدنيا ، و المثل مقتبس من دورة حياتية ، يميز بها النيات (٢٤) و السلام عند الله ، وهو الذي يهدي الى الصراط المستقيم (٢٥) و سلام الله انما هو للذين احسنوا ، اما المجرمون فلهم النار (٢٧/٢٦. (

وهكذا يامرنا بالكفر بالشركاء ، لانهم يتبرأون من اتباعهم ، وعند الله الجزاء (٢٨ / ٣٠) و يستمر السياق القرآني في بيان حقيقة الشركاء وانهم تافهون وان اتباعهم ليس الا اتباعا للظن (٣٦. (

ويعود الى بيان : ان القرآن لا ريب فيه وان جهلهم به هو الذي دعاهم الى التكذيب به (٤٠) و يامرنا بتحدي المشركين و البراءة منهم و يبين ضلالة الذين يكفرون بالقرآن ، وانهم هم عمي وان عماهم و صممهم منهم لان الله لا يظلمهم (٤٤. (

ثم يعود و يبين ان الله هو الذي يملك الضر و النفع فلابد ان نتوكل عليه ، ونترك الشركاء (٥٢) و يؤكد ان القرآن وما فيه حق ، وان الجزاء واقع ، وان وعد الله حق ، وان الله يحي و يميت وان القرآن موعظة وشفاء (٥٨. (

كل ذلك يثبت فؤاد المؤمنين تمهيدا للبراءة من الشركاء.

ويبين القرآن ان التشريع انما هو لله وحده وليس للشركاء ، و ينذر الذين يفترون على الله الكذب وان الله شاهد على كل كلام ، وانه مسجل عنده صغيرا و كبيرا . (61)

و اولياء الله لا خوف عليهم (بعكس اولياء الشركاء) وان لهم البشرى ، وان لله العزة (وليس للمشركين) وان له مافي السموات و الارض (وليس للطغاة) وانه هو الذي جعل الليل ليسكن و النهار مبصرا) وليس الشركاء) (٦٢/ ٦٧. (

اما قولهم بان الله قد ولد (وهو احد سخافات المشركين) فانه ضلال لان الله غني فلماذا الولد ، وانه ليس الافتراء لا يفلح صاحبه وان هدف الافتراء ، متاع الدنيا ، وهو قليل و نهاية المشركين العذاب الشديد بكفرهم (٧٠. (

كل تلك الايات تمهد لاعلان البراءة من المشركين ، كما فعل نوح شيخ المرسلين (عليه السلام (فاغرق الله قومه و خسر المشركون (٧٣. (

ولعل هذه الايات (٧٠ (93 / هي غرر هذه السورة الكريمة ، حيث تفصل القول عن تحدي الرسل لطغاة عصرهم و كفار الناس من قومهم و كيف انهم امروا اتباعهم بالتوكل على الله ، و بالتالي كيف نصرهم الله سبحانه.

ثم بعد بيان قصص الانبياء عليهم السلام ، يأمر الله بطرد الشك ، في القرآن ، و الابتعاد عن التكذيب بايات الله ، وان الكفار لا يؤمنون حتى يروا العذاب الاليم (٩٧) ولكن هل ينفع الايمان ذلك اليوم ، لا ، انما قرية واحدة نفعها ايمانها حين آمنت بالله ، وهيقرية يونس (٩٨. (

ولكن هل الايمان من العبد او من الرب ؟

لا ريب ان الله لا يكره الناس على الايمان و هكذا على كل نفس تحدي أمواجالكفر للوصول الى شاطىء الايمان ، حيث يأذن من الله له بالايمان (١٠٠. (

ويعود القرآن ليسفه حالة الانتظار في النفس بل على الانسان ان يبادر للايمان ، حتى يكون من الذين ينجيهم الله عند العذاب (١٠٣. (

ويعلن القرآن على لسان النبي (ص (البراءة من الشركاء ، وانه يخلص العبودية لله (وبذلك يتحدى المشركين) (١٠٤. (

و يأمره باقامة وجهه لله حنيفا و رفض الشركاء ، لأنه سيصبح ظالما لنفسه (106)و الاعتقاد بأن الذي يرفع الضر هو الله وأنه اذا تفضل على عبده بخير فلا راد لفضله الا هو.

وهكذا على المؤمن أن يتحدى الشركاء و الشمركين و التمسك بهدى الله لأنه انئذ ينفعه كما أن ضلالته عن القرآن تضره هو و ليس غيره . وان على المؤمن اتباع ما يوحى الى الرسول و الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (١٠٩. (

وبهذا نستطيع ان نستفيد من ســورة يونس روح التوكل على الله ، و تحدي الطبيعة ، و الطغاة ، و مقاومة ضعف النفس أمام المشاكل و الاخطار.

لماذا كذبوا برسل الله ؟

هدى من الآيات

تلك ايات القرآن الحكيم ، التي ركبــت من الفاظ و اصــوات معروفة كالألف ، و اللام ، و الراء ، و لكنها اتسمت بالحكمة البالغة ، فهي تكشف الحق و تهدي البشر اليه و الناس لا يصدقون بهذه الحقيقة ، ان يكون رجل منهم يوحى اليه القرآن ، بينما لا عجب في ذلك خاصة وان هدف نزول الوحي انذار الناس جميعا ، و تبشير المؤمنين بأن لهم قدم صدق عند الله ، فمقامهم عند ربهم ثابت لا يتزلزل ، و بالتالي فالله ينصرهم و يجزيهم الحسنى.

ولكن الكافرين قالوا : ان هذا لساحر مبين ، فهو ساحر لأنه جاء بشيء غريب لا يقدر عليه الاخرون ، وهو واضح الحجة ، قوي البينة.

وقد لخصت هاتان الآيتان كثيرا من توجهات السياق القرآني في هذه السورة ، والتي سوف يفصلها فيما يلي تفصيلا.

بينات من الآيات

معنى الحروف القرآنية المقطعة:

" [1]الر " تلك هي المقاطع الحرفية التي نجدها في كثير من سور القرآن ، و الرأي الذي ذكرناه عدة مرات حولها هو : انها إشارة الى ذات الحروف ، وهي بالتالي تشبه كلمة " هذا " و الجملة التالية هي خبر لها ، وهناك تفسيرات اخرى لهذه المقاطع و الله أعلم . (١(

وهذه الاحرف هي آيات و علامات تشير الى مجموعة متكاملة و ثابتة من العلوم التي تنفع الانسان في حياته ، فهي آيات الكتاب الثابت و المثتمل على الحكمة.

]الر تلك ايات الكتاب الحكيم[

إن كتاب الله ثابت يكشف الحق ، فهو متين لا تجد فيه عوجا ولا أمتا ، كما لا تجد فيه تناقضا ولا اختلافا فهو محكم الأطراف.

[2]و مشكلة البشر مع القرآن مشكلة نفسية ، حيث أنهم لم يرتفعوا الى مستوى الكتاب ، بل تراهم يستغربون منه و يقولون : كيف يصبح رجل منا حاملا لرسالة الله العظيم التي تحمل الانذار و البشارة ؟!

]أكان للناس عجبا ان اوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس]ولكن بما ان الهدف من القرآن هو انذار الناس ، فلذلك كان من الحكمة ان يكون واحد منهم حاملا للرسالة فلماذا التعجب و الاستغراب ؟!

(1)سبق الحديث في سورة البقرة عن مثل هذه الحروف المقطعة / و كذلك في أوائل كثير من سور القرآن.

]و بشر الذين ءامنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم[

القدم الصادقة التي وضعت في مقامها الصحيح و بوعي ، ذلك لأن المؤمن يعرف أين يذهب ، وهو حين يسعى لتحقيق هدفه هذا وهو الوصول الى مرضاة الله يبلغه ، فقدمه عند الله قدم صادقة ، هذا هو محتوى الكتاب الحكيم ، ولكن.

]قال الكافرون ان هذا لساحر مبين [

تفسير الكافرين بالرسالة لها أنها سحر ، دليل على أنهم لم يستوعبوا واقعها بسبب مشكلة فيهم لا مشكلة مستوى الرسالة ، و الاهتداء الى ما فيها من خير و منافع ولو ان الانسان اجتاز حاجزه النفسي لوجد أن الرسالة حق لا ريب فيه ، ولكن ذلك الحاجز النفسي يجعله يفتش عن تفسيرات بعيدة لظاهرة الرسالة ، حتى أنه يفسرها بأنها سحر مبين ، و بتعبير آخر لا يفسرها بشيء اذ السحر هو كل ظاهرة غريبة لا تفسير لها.

آيات لقوم يتقون
هدى من الآيات
بينات من الآيات
الربوبية صفة ذاتية:

[3]الله هو الرب العظيم ، و الربوبية ليست صفة اعتبارية طارئة على ربنا سبحانه ، بل هي صفة ذاتية تتجلى في الحاجة الدائمة للكون اليه ، إنه خلق السماوات و الارض في ستة أيام ، وهكذا اركز فيها الحاجة الماسة الى تقديره و قيمومته ، ذلك لأنه أعطاها في كل يوم شيئا جديدا في الخلق ، و بعدئذ لم يتركها لشأنها ، بل استوى على عرش القدرة مهيمنا على أمور الحياة ، مدبرا لها بلا منازع ولا شريك ، الا من يأذن له و بقدر القدرة المخولة له.

]إن ربكم الله الذي خلق السموات و الارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يدبر الامر]فأمور الخلق بيده المقتدرة يدبرها بها ، و يخطط لكل مرحلة من مراحلها ، و يجري خطته سبحانه ، اما الخلق فهم مخولون للقيام ببعض التدبير في حدود سماحه لهم بذلك ، ولأمد معدود.

فالبشر مثلا قد زوده الله بالارادة ، و سخر له الاشياء ، و خوله بعضا من سلطاته سبحانه ، و سمح له بالاستفادة منها ، دون أن يفقد هو شيئا من سلطاته الذاتية.

]ما من شفيع الا من بعد اذنه[

فليس له شفيع أو منافس أو منازع لقدرته ، بل قد يكون غيره قادر ضمن قدرته وفي مجرى قدرته تعالى ، وبعد اذنه سبحانه.

]ذلكم الله ربكم فاعبدوه افلا تذكرون[

ذلك لأن قليلا من التذكر و العودة الى المقاييس العقلية يكفينا معرفة بأن الرب الحقيقي هو الله ،

وليست السلطات الجائرة التي تفرض نفسها على الشعوب بالقوة.

[4]ومن مظاهر ربوبيته و آياته الواضحة : أن الله سبحانه هو مرجعنا الأخير ، وغدا سوف نجد أنفسنا أمامه ليحاسبنا حسابا دقيقا.

]إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا انه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين ءامنوا و عملوا الصالحات بالقسط]أي بالدقة دون أن ينقصهم من عملهم شيئا.

]والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون]من اهداف الخلق:

[5]ومن آيات تدبير الله للكون ، و هيمنته المطلقة عليه ، ذلك التقدير الحكيم ، الذي نجده في كل أرجاء العالم الرحيب ، الا تجد الشمس كيف جعلها الله سبحانه ضياء ؟ و ضياؤها بقدر محدد صيفا و شتاء ، ضحى و ظهرا ، لو زادت اشعاعاتها لاحترقت الأرض ، ولو نقصتلتجمدت بردا وماتت الحياة فيها ؟ و القمر بدوره يسيل منه ذلك النور الهادىء ، وهو يتحول عبر منازل ، ابتداء من المحاق ، فالهلال ثم البدر ، ثم يتناقص حتى يعرف كل واحد من الناس ان الزمن يمر عنه ، وأن عليه ان ينظم أوقاته و يعمل بجد ليوم حاجته ، انك تجد كل يوم يشبه اليوم

الماضي تقريبا ، لأن الشمس هي الشمس كل يوم ، أما القمر فيتحول عبر منازل ليهديك الى التحولات اليومية التي تحصل في ذاتك ربما دون ان تشعر بها.

]هو الذي جعل الشمس ضياء و القمر نورا و قدره منازل لتعلموا عدد السنين و الحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق [ولأجل تحقيق هدف محدد.

]يفصل الايات لقوم يعلمون[

[6]واختلاف الليل و النهار دليل آخر على ربوبية الله سبحانه ، ذلك لأن الاختلاف دليل الهدفية و التدبير .

]ان في اختلاف الليل و النهار وما خلق الله في السموات و الارض]من مختلف أنواع الخلق مما لا تحصى كثرة و تنوعا ، وكل واحد منها يحقق هدفا خاصا.

]لآيات لقوم يتقون[

ولأنهم يتقون الله و يخشونه ، فان حجب الغفلة و الجهالة لا تؤثر على قلوبهم ، فتكتشف هدفية الحياة ، وان كل شيء قدر لهدف محدد سلفا.

العلاقة بين هدفية الحياة و التقوى :

ان هدفية الحياة التي تتجلى في النظام المتين في كل أبعاد الكون ، إنها تدعونا الى التقوى لماذا ؟ و كيف ؟

والى هذه الحقيقة يشير الامام الصادق (عليه السلام) حين يوضح للمفضلبن عمر كيف ان التدبير في الكون يدلنا على ربنا العزيز فيقول:

)يا مفـضل أول العبر و الأدلة على الباري جل قدره تهيئة هذا العالم و تأليف أجزائه ، و نظمها على ما هي عليه ، فانك اذا تأملت العالم بفكرك و ميزته بعقلك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج اليه عباده ، فالسماء مرفوعة كالسقف ، و الأرض ممدودة كالبساط ، و النجوم منضودة كالمصابيح ، و الجواهر مخزونة كالذخائر ، وكل شيء فيها شأنه معد ، و الأنسان كالمملك ذلك البيت و المخول جميع

ما فيه ، و ضروب النبات مهيأة لمآربه ، و صنوف الحيوان مصروفة في مصالحه و منافعة ، ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير و حكمة ، و نظام و ملاءمة ، وإن الخالق لهو واحد ، وهو الذي ألفه و نظمه بعضا الى بعض جل قدسه ، و تعالى جده و كرم وجهه ولا اله غيره تعالى عما يقول الجاحدون وجل و عظم عما ينتحله الملحدون . (١)ذلك لانك حين ترى كل شيء في الدنيا يحقق هدفا ، و يسعى في سبيل بلوغ غاية محددة ، فتتذكر حقيقة هامة في ذاتك ، هي أنك بدورك خلقت لهدف ومن أجل بلوغ غاية ، وهذا التذكرة تصبح حجر الزاوية في بناء كيانك الفكري ، اذا تتساءل ما هو الهدف ؟ وكيف أحققه ؟ وما هي الغاية و كيف الوصول اليها ؟ و عبر سلسلة من التساؤلات التي تؤدي بك الى التدبر العميق في نفسك ، وفي آفاق الكون حولك ، تصل الى الهدف الأساسي من خلقك ، ذلك هو العروج الى مقامك الاسمى عند الله ، وتبحث عن الوسيلة التي تساعدك على الوصول الى مقامك المنشود عند الله ، الى مرضاة ربك العزيز المقتدر ، فلا تجدها الا في التقوى ، لذلك جاء فيما بعد الاية " ان في اختلاف الليل و النهار ..... لآيات لقوم يتقون "و جاء في آية اخرى : " و يتفكرون(١) بح / ج ٣ / ص ٦٠

في خلق السموات و الارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار "(آل عمران / ١٩١(

حيــن نجد كيف يتدرج المتفكر في خلق السموات و الأرض من معرفة هدفية الخلق ، وأنه لم يخلق باطلا ، حتى يصل الى التقوى من الله و الحذر من عذابه.

الكفر و الايمان الاسباب و النتائج

هدى من الآيات

مع هذه الآيات الواضحة المبثوثة في آفاق الارض ، والتي نبهت اليها آيات الدرس السابق ، لماذا يكفر فريق من الناس ؟؟

باختصار :لأنهم لا يحبون لقاء الله ، و رضوا بالحياة الدنيا ، و اطمأنت نفوسهم بما فيها من زخرفة و متع زائلة ، و زعموا بانها باقية لهم ابدا ، ولأنهم بالتالي غفلوا عن آيات الله التي تدلهم على ان للدنيا نهاية ، وأنهم خلقوا للبقاء في عالم آخر.

وما هي عاقبة هذا الفريق الكافر ؟

أولئك مأواهم النار ، ذلك لأن هذه النظرة الضيقة الى حياتهم ، تجعلهم يقترفون ذنوبا و يحترفون آثاما تستوجب لهم النار.

بينما الذين ءامنوا بالله ، وبأن وراء حياتهم هذه حياة أخرى يهديهم الله ، لذلك عملوا صالحا لحصول مرضاة الله و نعيم الاخرة ، لذلك تراهم مهتدين لأن الله يجعلمن ايمانهم ضياء يهديهم به الى حقائق الأشياء ، وعند الله يجزون بجنات النعيم التي تجري من تحتها الانهار.

إنهم يزدادون ايمانا بالله لذلك فدعاؤهم عند الله " سبحانك اللهم " و تحيتهم فيما بينهم " السلام " ، فعلاقتهم بالله و هكذا باخوانهم تزداد متانة ، و نفوسهم راضية مرضية ولذلك يقولون " الحمد لله رب العالمين. "

بينات من الآيات

هل ترجو لقاء الله ؟

[7]اللقاء مع الله خالق السموات و الارض ، الرحمن الرحيم ، هدف سام يرجى بلوغه لما فيه من مصالح هامة ، ولكن بعض الناس لا يرجون لقاء الله ، فهم غير مرتبطين بهدف اسمى في حياتهم ، لذلك تجدهم يهتمون بعاجل الدنيا ، يحسبون ما فيها من لذائذ و متع هي كل شيء.

]ان الذين لا يرجون لقاءنا و رضوا بالحياة الدنيا]بينما هم غافلون عما حولهم من الآيات بينات ، تدل على أن الانسان أرفع درجة من سائر الاحياء ، وأنه قادر على بلوغ مراتب عالية ، لذلك لا يعيشون قلق المؤمنين النفسي الذي يبعثهم الى النشاط من أجل بلوغ تلك المراتب ، بل تجدهم يطمئنون بالحياة

الدنيا ، يرضونبما فيها من متع و لذات ، كالبهيمة السائبة همها علفها!!

]و اطمأنوا بها والذين هم عن اياتنا غافلون[

و قليل من التفكر في آيات الله ، يبعث الفرد الى الايمان بأن الدنيا هذه الحلقة الفارغة التي لا تعني شيئا ، انها أتفه من أن تكون هدف البشر ، عمل وأكل و نوم ،ثم تكرار ذات الاسطوانة ، أعمل لتأكل ، و كل لتنام ، ونم لتعمل غدا .. وهكذا!!

[8]لأن هؤلاء الناس اطمأنوا بالدنيا ، فأن الدنيا سلمتهم الى النار ، لأن الذي يحسب الدنيا نهاية مطافه ، يجترح السيئات و يكتسب شرا ، و ذلك الشر يتحول في القيامة الى عذاب اليم.

]أولئك ماواهم النار بما كانوا يكسبون[

فاكتسابهم الشر هو الذي سبب لهم النار ، ولكن هذا الكسب كان بسبب سوءعقائدهم ..

النموذج المعاكس:

[9]وفي مقابل هذا الفريق نجد الذين آمنوا بالله و باليوم الاخر ، فاصبح ايمانهم هذا سببا لتطلعهم الأسمى نحو مرضاة الله ، فكانت حياتهم ذات مغزى و هدف ، فلم ياكلوا ليعملوا ، ثم ليأكلوا ثم ليعملوا وهكذا بل أكلوا للعمل و عملوا لله ، وليس للأكل المجرد ،وهكذا عملوا الصالحات ، فلم يعملوا لكي يصلوا الى الشهوات العاجلة ، بل فقط العمل الصالح ذا النهج السليم الذي لم يضر بهم.

]ان الذين ءامنوا و عملوا الصالحات[

ان انتــزاع واقع الهدفية من الحياة ، كما فعل الكفار يخرب المعادلة في فهم اهداف الكون ، و يحــدث الحلقــة المفقودة التي تجعل فهمنا لسائر القضايا فهما محدودا ، بل ناقصا ، بل متناقضا ، ما هذه الدنيا ولماذا خلق فيها الشقاء و العذاب ؟ ولماذا اعطي الجبابرة و الطغاة فرصــة الاعتداء على الناس وهل الموت تلك النهاية الباردة لحرارة الحياة ؟

وهذا ما يجعلنا نرى ظواهر الكون بعين واحدة ، ومن بعد واحد ، وحين يؤمنالانسان بالغيب و بالاخرة يجد تلك الحلقة المفقودة و يكتشف السر الخفي ، و بالتالي تكتمل عنده أجزاء المعادلة ، فيفهم كل شيء لذلك قال ربنا:

]يهديهم ربهم بايمانهم[

هذا في الدنيا .. أما في الاخرة فهم في جنات.

]تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم[

متعة المؤمنين:

[10]كل ما في الجنة بعد الموت يمكن ان نوجد منها صورة مصغرة في الدنيا قبل الموت ، بل هو انعكاس لما في الدنيا ، و المؤمنون في الاخرة يتمتعون بما يلي:

الف : انهم ينزهون الله عما يتصل بخلق الله ، وكلما وجدوا جمالا وقوة ونظاما نسبوه الى مصدره ، وهو جمال الله و قوته و حكمته ، وكلما وجدوا ضعفا عرفوا بأن رب الخلق منزه عنه ، ولذلك فيمكن ان يرفع بعض النقص عن خلقه مستقبلا ، لذلك فهم يتحركون في سلم التكامل ، لذلك تجد الكلمة المفضلة ، عندهم هي

"سبحان الله " و تلك دعواهم.

]دعواهم فيها سبحانك اللهم[

باء : ان علاقتهم ببعضهم علاقة سليمة.

]و تحيتهم فيها سلام[

جيم : و علاقتهم بالأشياء حسنة ،فهم ابدا راضون عما انعم الله عليهم.

]و آخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين[

الإمتحان الإلهي

هدى من الآيات

لكي يستفيق البشر من غفوتهم ، يذكرهم القرآن الحكيم بما ينتظرهم من العذاب بسبب أعمالهم ، الذي لو عجله الله لهم لما بقوا أحياء ، إذ أن الأعمال السيئة كثيرة و عظيمة العقاب ، ولكن البشر يطالب أبدا بالجزاء العاجل ، دون أن يعرف أن جزاء الخير خير و جزاءالشر شر ، بيد أن الله يؤخر جزاء الشر ، لامهالهم في طغيانهم.

فطرة الانسان تدعوه الى نسيان كل عاداته و أفكاره و ثقافته الباطلة ، و العودة الى فطرته النقية ، فاذا مس الانسان الضر ، دعا ربه في أية حالة كان ، نائما على جنبيه أو قاعدا أو قائما ، ولكن لما كشف الله عنه الضر مشى في حياته دون أن يتذكر أن هناك ضرا مسه، وذلك بسبب زينة الدنيا في نفسه ، خصوصا فيما أسرف فيه ، و تعود عليه.

و الله يستجيب للانسان الذي يدعو لدفع الضر عنه ، الى فترة محدودة ، فاذا انقضت مهلته أخذه كما أخذ القرون الماضية لما ظلموا ، وأتم الله حجته عليهمبارسال الرسل ، ولكن لم يستغلوا فرصة الايمان و كانوا مجرمين.

ثم جعل الله الاخرين مكانهم ، لا لأنه ملكهم ما في الأرض ، بل لمجرد امتحانهم.

بينات من الآيات

العجلة من الشيطان:

[11]لقد فطر البشر عن البحث عن الخير العاجل ، و اذا قام بعمل حسن انتظر جزاءه فورا ، و قليل من الناس أولئك الذين يعملون الان ليحققوا مكاسب في المستقبل البعيد.

ولكن الحياة ليست بأماني الاحياء ، لذلك تجد الجزاء قد يتأخر سنين عديدة ، ولو ان ربنا سبحانه خلق الحياة بحيث يجازي العاملين فيها فورا ، اذا انتهت فرصة اختبار الانسان في هذه الحياة الدنيا .

ان جزاء من يرتكب المعاصي الكبيرة أن يهلك هلاكا ، فهل ترضى ان يحيط بك جزاء معاصيك فور ما تقوم بها ، ودون إعطائك فرصة للمراجعة و الأصلاح ؟! كلا .. وهكذا عليك ان ترضى بهذا الوضع عموما ، وهو تأخر الجزاء خيرا كان أو شرا ، و ليس من الصحيح أن تطالب بتـأخير جزاء الشر ، و تستعجل الله في جزاء الخير ، فالحياة واحدة ، و السنن الحاكمة عليها واحدة ، في حقلي الخير و الشر معا.

]ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم اجلهم]لقد أعطى الله للناس فرصا محدودة ، ولهم أن يختاروا خلالها طريقهم ، وفي نهاية المطاف سوف يأخذون جزاءهم الاوفى.

]فنذر الذين لا يرجون لقالأنا في طغيانهم يعمهون]أي يترك الله الذين لا يؤمنون به و باليوم الآخر حيث

يلاقون فيه ربهم ليجازيهم بتركهم فاقدي الرؤية بسبب ظلام الطغيان الذي يحيط بهم.

الطغيان عمى البصيرة:

[12]الطغيان يفقد الرؤية ، و الاسراف ينسي النعم و يبطر أصحابها ، ان المسرف يزعم أن النعم ملك مورث له ، ولذلك فهو لا ينتبه الى حقيقة عبوديته و ضعفه و صغاره الا بعد أن يفقد النعم ، فتراه يتضرع الى الله حتى يعيدها عليه ، فاذا انتهت محنته يعود الى سابق غروره ، كل ذلك بسبب الاسراف ، و بسبب الاعمال السيئة التي كان يقوم بها بدافع الاسراف ، فتطبع بها و اعتاد عليها.

]واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعدا او قائما]أي دعا ربه في كل الحالات ، او في مختلف حالاته الصعبة.

]فلما كشفنا عنه ضره مر كان لم يدعنا الى ضر مسه]فبدل الوقوف للشكر تراه يمشي من دون اعتناء ، و كأنه لم يصب ابدا بمصاب و لم يدع دعاءا ؟!

]كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون[

وعلى الانسان ان يتحرر من سلبيات النعم التي ينزلها الله له ، ومن أخطرها حبه لنوع حياته ، و استئنافه بنمط معيشته ، اللذان قد يدفعانه الى الغرور والى ارتكاب معاصي كبيرة.

الهلاك مصير المجرمين و سنة الحياة:

[13]الجزاء يتأخر وقد تطول المسافة بين العمل و الجزاء ، بيد أن ذلك لا يعني ابدا ان الجزاء لا ياتي ، وعلى البشر أن يفهم هذه الحقيقة جيدا : ان الجزاء حق لا ريب فيه ، وان يذكر نفسه بمصير الهالكين من قبله ، الذين أخذهم الله بشدة بعد أن توافرت عوامل هلاكهم والتي تتلخص في ثلاث فلقد ظلموا ، فبعث الله لهم رسلا بالبينات فما ءامنوا هنا لك أهلكهم الله.

]ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا و جاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين]إنها سنة عامة تختص بالقرون السابقة ، فعلينا جميعا انتظار ذات المصير اذا اجرمنا.

[14]وبالذات على المجتمعات ان تدرك هذه الحقيقة الهامة ان وجود نسبة عالية من الفساد الخلقي أو الاقتصادي أو السياسي ، سوف تقضي عليها قضاء تاما ولو بعد حين ، لذلك ينبغي ان ينشط الجميع من أجل تقليل هذه النسبة حتى لا تنطبق عليهم صفة القوم المجرمين.
لذلك ترى القرآن يذكرنا بأننا خلائف أولئك الهالكين ، و تنطبق علينا ذات القوانين الفطرية.

]ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون]فنحن خلفاء أولئك ، و الهدف من اعطاء الفرصة لنا دونهم ان الله يريد ان يبتلينا ، فهل نعقل تجاربهم ولا نكرر اخطاءهم أم ماذا ؟!

الكافر بالاخرة لا يفقه بآيات الله

هدى من الآيات

حين يعيش البشر في حدود لحظته الحاضرة ، ولا ينظر بعيدا في مستقبله ، ولا يرجو لقاء الله في الآخرة ، فسوف يتخذ من آيات الله موقفا خاطئا ، حيث تراه حين تتلى عليه آيات الله الواضحة يطالب الرسول بتغيير القرآن ، أو تبديل آياته ، وكأن الرسول هو صاحب القرآن، أو كان الحقيقة تتبدل و تتغير حسب أهواءه ، ولا يعلم أن الرسول نفسه يخشى ربه ، فلو عصى ربه ولم يبلغ رسالته ، أو لم يطبقها فيكون جزاؤه عذابا في يوم القيامة ذلك اليوم العظيم . ومن هنا لم تكن الرسالة من صنع الرسول ، بل لو لم يشأ الله ما تلاها على الناسولم يعلمهم ، و الشاهد على هذه الحقيقة ان الرسول كان يعيش بين

أظهرهم فترة طويلة ولم يبلغهم شيئا من الرسالة ، و الرسول يعرف أن افتراء الرسالة على الله جريمة كبيرة ، وانه لا يفلح المجرمون ، فهو لا يقوم على هذا العمل بدافع الغفلة أو التهاون ، أذا فرسالتهانما هي من الله سبحانه.

بينات من الآيات
وحدانية الله سبحانه
هدى من الآيات

عدم الايمان بالآخرة يجعل البشر يتخبط في مواقفه ، فتارة لا يؤمن بالرسالة كما رأينا في الدرس السابق ، و تارة يتخذ من دون الله شفعاء يزعم بأنهم شركاء لله في سلطانه ، ولا يفقه هذه الحقيقة البسيطة وهي ان مقام الألوهية لا يحتمل التعدد ، فهو أرفع و أقدس من أن ينازعه شيء ، وان الله لا يعلم لنفسه شريكا في عرض السموات و الارض ، وان هذه العبادة المزدوجة لا تجديهم نفعا ، وان هؤلاء الشركاء أو الشفعاء لا يقدرون على الحاق ضرر بهم لو تركوا عبادتهم.

و الله سبحانه لم يخلق بعض الناس كفارا و البعض مسلمين بل خلقهم أمة واحدة ، الا انهم كانوا مختارين ، فأختار طائفة منهم الهدى ، بينما ضل الآخرون . ولقد سبقت كلمة الله بتأجيل قضاء الحق بينهم الى أجل محدود ولولاها لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه.

و يطالب البعض بان ينزل الله آية على رسوله ، آية معينة حتى يضطروا للايمانبالرسالة ، بينما جعل الله الدنيا دار اختبار وهو يعلم بالحكمة ، و النهاية سوف تكون للرسالة باذنه.

بينات من الآيات
عند الخطر يجأر العبد الى الله
هدى من الآيات

وفي سياق الحديث عن الذين يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، و للدلالة الفطرية على واقع هذه العبادة ، يبين لنا الله سبحانه موقف الناس من آيات الله ، و كيف يتبدل حسب اختلاف حالاتهم النفسية ، فاذا كانوا في شدة و ضراء ثم أسبغ الله عليهم نعمه ،و جعلهم يتحسسون برحمته ، تجدهم يحتالون على آيات الله و يناقشون فيها حتى لا يؤمنوا بها بكل وسيلة ممكنة ، بينما الله سريع الجزاء لما يفعلون ، و قد أوكل سبحانه أمر كتابة أعمالهم و مكرهم الى الملائكة المرسلين اليهم.

و كمثل على هذه الحالة أن الله يوفر للانسان أسباب السير في البر و البحر ، و يركب الناس السفن الشراعية ، و يهب عليها نسيم هادىء يفرحون به لأنه يؤنسهم و يسير سفينتهم ، ولكن بعدئذ تأتيهم ريح عاصف يهيج بها أمواج البحر حتى تحيط بهم من كل جانب ، و يظنون ان الهلاك قد اقترب منهم هنالك ينسون الشركاء و يخلصون العبادة لله ، و يدعونه و يتعهدون انه لو انجاهم يصبحون منالشاكرين .

بيد أنه حين يخلصهم الله من ورطتهم تراهم يفسدون في الارض ، و يرتكبون المعاصي ، بينما تلك المعاصي موجهة ضدهم ، لأنها بالتالي متاع الحياة الدنيا المحدودة ، و بعدها ينتقل البشر الى ربه ليجازيه.

بينات من الآيات

المكر بعد الرحمة:

[21]الرحمة بعد الضراء ليست كالرحمة من دونها ، فحين تكون مريضا يستبد بك الالم و الخوف ، فتنزل عليك رحمة السلامة والعافية ، وحين تكون فقيرا يضيق بك رحب الدنيا و تلاحقك أعين الناس ازدراءا ، فتهبط عليك رحمة الغنى و العزة ، آنئذ تشعر عمق لذة النعمة ،بذات الحساسية التي شعرت بألم الضراء.

و الانسان الذي تذوق الرحمة و أحس بمس الضراء ، عليه ان يعترف بأن الله هو مدبر الخير و الشر ، وأنه ، يملك من ذاته شيئا ، ولكنه لا يفعل ذلك.

]واذا اذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر في اياتنا]يحاولون تفسير الايات بما يتناسب و غرورهم ، او يسعون في طمس معالم الحقيقة التي تخالف مصالحهم و أهواءهم ، أو حتى انهم يتصرفون في نعم الله ، بغير الوجه السليم الذي يضمن استمرارها ، وآنئذ ياخذهم الله بعملهم السيء.

]قل الله اسرع مكرا ان رسلنا يكتبون ما تمكرون[

ان مكر الله هو تقليب الأمور وفق السنن التي يجريها في الحياة ، والتي تقضي بزوال النعم التي لا يشكرها الناس ، ولا يحافظون على عواملها السلوكية و النفسية.

ان ملائكة الله يحصون على الانسان كل صغيرة و كبيرة حتى لا يقدر على التحايل عليهم ، و الأدعاء بأنه قد عمل صالحا.

و يبدو أن هذه الاية تصدق على الحضارات البشرية التي تبدء بصعوبات كبيرة حتى تبلغ مرحلة النضج و يعم الرخاء ، ثم يمكر البشر في آيات الله فتنحدر الى الحضيض ، كما تنطبق على حياة كل واحد من البشر ، تحمل الصعاب حتى بلغ منيته ، ولكنه اغتر بعدئذ بنعم الله عليه فكفر بها ، فأزالها الله عنه.

[22]وكمثل على هذه الحقيقة يبين ربنا سبحانه قصة راكبي البحر بالسفينة الشراعية التي وقفت في عرض البحر بسبب ركود الهواء ، ثم تهب عليها ريح طيبة فيستبشرون بها ، ولكنهم في ذات الوقت يفرحون بها مما ينسيهم شكر الله .

و بعد فترة من الوقت يحيط بهم الخطر بسبب تحول الريح الطيبة الى ريح عاصف تثير الامواج العاتية حول السفينة ، فلما رأوا ذلك تضرعوا الى الله سبحانه لينقذهم من الخطر ، فلما نجاهم اذا هم يكفرون.

]هو الذي يسيركم في البر و البحر حتى اذا كنتم في الفلك و جرين بهم بريح طيبة و فرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم أحيط بهم [أي أحاط بهم الخطر بحيث أصبحوا محاصرين من كل مكان دون قدرة على الفرار ، و ربما الظن هنا - كما في سائر الايات - بمعنى التصور فهو اشد وقعا في النفس و تأثيرا.

]دعوا الله مخلصين له الدين[

أي كان دعاؤهم مختلفا عن دعائهم السابق ، ففي السابق كانوا يدعون اللهو الشركاء معا ، وكانت قلوبهم منقسمة بين الله و الشركاء ، ولكن الان اخلصوا التزامهم بالله ، و صفوا قلوبهم من رجس الشرك .

]لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين[

ماذا كانوا يعنون بالشكر ؟ هل هو مجرد ترداد كلمة شكرا لله ؟ أم فوق ذلك الالتزام بكل ما أمر الله من واجبات ؟ من الواضح ان الشكر بالمفهوم الأول كان بسيطا وكانوا مستعدين له ابدا ، اما الذي لم يفعلوه فهو الشكر بالمعنى الثاني.

الكفر بعد الشكر:

[23]وهكذا مكروا في آيات الله ، واخذوا يظلمون بعضهم و يستغلون رحمة الله اداة للباطل ، و اخذوا يسرفون في نعم الله كما فعل قوم لوط ، وكانوا يفسدون فيالأرض كما فعل فرعون و قومه ، و اخذوا يستكبرون في الارض بالباطل كما فعل عاد و ثمود وهكذا.

]فلما انجاهم اذا هم يبغون في الارض بغير الحق يا أيها الناس انما بغيكم على انفسكم]أي ان هذا

الظلم ، وهذا التحويل في طريقة الانتفاع من آيات الله ، ان ذلك سوف ينعكس عليكم ، ذلك لانه[متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبؤكم بما كنتم تعملون[

دار الفناء أم دار السلام

هدى من الآيات

في الدرس السابق بين الله لنا أن الذين يمكرون في آيات الله بغيهم على أنفسهم ، لأن متاع الحياة الدنيا قليل.

وفي هذا الدرس يعطينا السياق رؤية عامة تجاه الحياة الدنيا ، و يضرب لنا مثلا ببعض ما نراه ظاهرا من تحولات طبيعية ، كالماء ينزل من السماء و يختلط به نبات الأرض من فواكه تأكلها الناس ، واعشاب تأكلها الانعام ، و تزدهر الأرض و تصبح بهيجة و مزينة ، حتى تصور أهل الأرض انها أصبحت محكومة لهم ، وأنهم قادرون عليها ، وعلى أنواع التصرف فيها ، ولكن لا تبقى هذه الحالة اذ سرعان ما ياتيها أمر الله ليلا أو نهارا بعاصفة ثلجية ، أو سيول هادرة ، فاذا بها تحصد حصدا و كأنها لم تقم هكذا سابقا . هكذا يضرب الله لنا مثلا، من ظواهر الدنيا التي هي آيات الله التي ينبغي ان نتفكر فيها.

ومادامت الحياة غير مأمونة العواقب ، فعلينا ان نفتش عن أمان ، و الله يدعو البذلك و يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ، يبلغهم دار السلامة و الأمن في الدنيا ، وفي الاخرة حيث يضمن للذين أحسنوا الفكر و العمل الحياة الحسنى و زيادة على فعلهم الحسن ، تلك الزيادة قد تكون في غناهم الروحي و المادي ، وأنهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

بينما الذين عملوا السيئات يجازيهم الله بمثل ما فعلوا ، و تحلق بهم الذلة ، و لا يستطيع شيء ان يمنع عنهم عذاب الله ، و وجوههم مسودة كأنما قد أحاط بها الظلام ، وهم أصحاب النار فيها خالدون.

بينات من لآايات

وحدانية الخلق و التدبير:

[24]الذي خلق الطبيعة خلق الانسان ، والذي يقلب ظواهر الطبيعة من حال لحال ، هو الذي يقلب حياة البشر ، ولو تفكر الانسان في خلق الطبيعة لعرف الكثير من خلق البشر.

و المنهج القرآني الفريد يذكرنا بهذه الحقيقة من خلال الأمثال التي يضربها من واقع الطبيعة و يطبقها على واقع الانسان ، فمثل حياتك في الدنيا وما فيها من طفولة و شباب و كهولة ، انما هو مثل الأرض شتاء و ربيعا ثم خريفا فصيفا.

انك ترى الأرض هامدة فينزل الله عليها ماء من السماء ، و يكون الماء عاملا مساعدا لتفاعل ذرات الأرض مع بعضها ، فالأملاح تدخل في قلب البذرة الحية ، فتنمو هذه الاخيرة و تصبح فاكهة لذيذة يتمتع بها الناس ، و عشبا غنيا ياكله الانعام ، و تفترش الأرض بساطا مزروعا فيه منافع الأرض و زينتها ، و يتصور الناس ان هذه الحالة دائمة لهم وأنه المسيطرون على خيرات الارض ، ولكن سرعان ما يعصفبالزرع أمر الله في صورة عاصفة ثلجية فتصبح الأرض بلقعا ، وكأنه لم يكن عليهاشيء قائم بالأمس.

وهكذا حياتك تبدء بالنشاط و الزهو ، و يبارك الله فيها بالغنى و القدرة حتى تغتر بنفسك ، و تزعم انك قادر على ما تشاء ، فاذا بك تحاصر من حولك بالمرض ، و العجز و الفقر ، و لا تقدر على شيء ، ان علينا ان نتفكر مليا في آيات الله في الحياة.

]انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما ياكل الناس و الأنعام]أي اختلط بسبب الماء نبات الأرض ببعضه ، و انتج ما ياكله الناس وما يستفيد منه الأنعام.

]حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت[

يبدو ان الزخرف هي منافع الأرض ، و تزيين الأرض مباهجها الظاهرة.

]وظن أهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون]فالايات الالهية سواء تلك التي يراها الانسان على شاشة الطبيعة ، او التي يسمعها من فم الرسالة ، انها واضحة المعالم لمن تفكر فيها واعتبر بها.

إلى دار السلام:

[25]وهكذا الحياة تتقلب حتى تبلغ نهايتها الصاعقة ، و الله يدعو عباده الى دار السلام التي تصونهم من العواقب الوخيمة ، وذلك عن طريق هدايتهم الى صراط مستقيم يصلون عبرة الى أهدافهم الصالحة.

]و الله يدعو الى دار السلام و يهدي من يشاء الى صراط مستقيم][٢٦] كيف يكون عند الله دار السلام التي يدعوا اليها ربنا عبر صراط مستقيم ؟

إن دار السلام تعني في الدنيا تلك المناهج الالهية للآعمال الحسنة ، و التي تؤدي الى الحياة الحسنى .

]للذين احسنوا الحسنى وزيادة[

الله يضاعف لمن يفعل الحسنات ، لأن ربنا سبقت رحمته غضبه ، وهو أرحم الراحمين قبل أن يكون شديد العقاب ، ومن مظاهر الحياة الحسنى أن ظلام الشهوات والأهواء لا يحجب عقولهم ، وأن ذلة السيئات لا تحيط بشخصياتهم ، فرؤيتهم واضحة ، و نفوسهم عزيزة.

]ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة[

أي لا يلحق وجوههم غبار ولا صغار.

]اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون[

و الشهوات في الدنيا ظلام في الاخرة ، كما ان الغرور و الأستكبار ذلة و صغار في الاخرة ، ولذلك جاء في الحديث المروي عن رسول الله:

"ما من عين ترقرقت بمائها الا حرم الله ذلك الجسد على النار ، فان فاضتمن خشية الله لم يرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلة " (١)(١) مجمع البيان / ج ٥ / ١٠٤

جزاء السيئات:

[27]أما الذين عملوا السيئات فأصبحت ثقلا على ظهورهم ، فان جزاء كل سيئة تكون بقدرها تماما دون ان ينقص منها شيء ، و تلحقهم ذلة و صغار بسبب تلك السيئة ، و تحيط بهم ظلمات السيئات فتحجب عنهم الرؤية السليمة و كأنها قطع من الليل.

]والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها و ترهقهـم ذلة مالهم من الله من عاصم]فلا يفكر أحدهم أنه قادر على الخلاص من جزاء سيئاته من دون الله و عن طريق الشركاء كلا..

]كأنما اغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما[

أي كأن الله قد أغشى و ستر وجوههم بقطع من الليل المظلم ، هكذا يحيط بهم السواد ، و هكذا تسبب الشهوات افتقاد النور و الرؤية.

]أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون[

ان كل واحد منا معرض لان يكون من مصاديق هذه الاية ، الا ان يوفقه الله للتوبة من سيئاته و العمل بمناهج الله سبحانه.

هل ينفع الشركاء في اليوم الاخر ؟

هدى من الآيات

في الدروس السابقة ذكرنا القرآن بان الشركاء مــن دون الله لا يضرون ولا ينفعون ، ثم أعطانا رؤية متكاملة تجاه الحياة الدنيا ، والتي ينبغي ان تكون كافية للانسان في توحيد الله و نبذ الشركاء.

وعاد السياق ليحدثنا عن قضية الشركاء بتصوير مشهد من مشاهد يوم الحشر ، حيث يجمع الله الشركاء و المشركين جميعا ، و يفرز بينهما و ينكر الشركاء أساسا انهم كانوا يعبدون من دون الله ، و يشهدون الله أنهم كانهوا غافليــن عــن عبادة المشركين لهم ، فماذا ينتفع البشر من عبادة من هو غافل عن عبادته ؟!

وهنالك تكشف لكل نفس ما اسلفت في الدنيا ، و يردون الى الله قائدهم و مولاهم الحقيقي ، بينما يتلاشى الشركاء الذين كانوا يجعلونهم شفعاء عند الله افتراءا على الله و الحق.

بينات من الآيات

وكشف الحجاب:

[28]وفي يوم القيامة تتوضح الحقائق بحيث لا يقدر أحد على انكارها ، و حين نتصور - و نحن في الدنيا - مشاهد ذلك اليوم ، يكفينا هذا التصور ، توضيحاللحقيقة ، و كشفا لمعالمها ، لماذا ؟

لأن الذي يحول بيننا و بين فهم الحقيقة هو الغفلة ، أو الغرور والاستكبار ، و تصور مشاهد يوم الحشر يذوب حجب الغفلة و الغرور عن أنفسنا ، و يجعلنا نرى الحقيقة بلا حجاب ، و لذلك يرفع القرآن الستار لنرى مشهد الحوار بين المشركين و بين آلهتهم التي عبدوها دهرا زاعمين بانها تنفعهم يوم القيامة.

]و يوم نحشرهم جميعا[

الشركاء المزعومين ومن عبدوهم.

]ثم نقول للذين اشركوا مكانكم انتم و شركاؤكم[

أي انتظروا جميعا لكي تسألوا ، ثم فرق الله بين الفريقين.

]فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون]لقد انكر الشركاء أنهم كانوا يعبدونهم انكارا كاملا ، كما انكرت الملائكة ذلك في آية اخرى ، وفي الواقع انهم انكروا علمهم بهذه العبادة بدليل ما جاء في الاية القادمة.

التبرىء من المسؤولية:

[29]و اشهد الشركاء الله سبحانه على أنهم كانوا غافلين عن هذه العبادة.

[فكفى بالله شهيدا بيننا و بينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين]و سواء كان الشركاء الأصنام الحجرية ، أو الجن و الملائكة ، أو حتى الأصنام البشرية ، فهي غافلة عن طاعة المشركين لها وغير مهتمة بذلك ، لأنها مشغولة عنها بقضاياها الخاصة.

[30]وعند الله في يوم القيامة تظهر حقائق كل نفس و أعمالها التي اسلفتها في الدنيا ، و تقف أمام الله المولى الحق البشرية لتجيب عن تلك الأعمال.

[هنالك تبلوا كل نفس ما اسلفت و ردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون] لقد افتروا على الله بأنه تعالى يخضع لضغط الشركاء ، وافتروا على الله بانه سبحانه يسمع كلامهم ، اما الان فليس بشيء من ذلك موجودا امامهم ، لقد ابتعد عنهم و تلاشى كما يتلاشى السراب.

لتدبير آية الرب و الفسق حجاب البصيرة

هدى من الآيات

من أجل اقتلاع جذر الشرك من قلب الانسان الذي خلق ضعيفا ، يتابع السياق لحديث عن التوحيد ، و يتساءل عن الرزاق الذي ينزل الرزق من السماء ماءا و أشعة ، و يفجر الأرض رزقا و رحمة ، أوليس الله ؟

ومن يعطينا اداة الرؤية و السماع أوليس الله ؟ ومن يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي و بالتالي من يدبر أمر الكون ، و يستوي على عرش السموات و الأرض و بيده ملكوتها ؟ إذا سألتهم فسوف يقولون جميعا أنه الله ، وهنا يبرز السؤال التالي : إذا لماذا لا تتقون ربكم ؟ ولماذا لا تخشونه ؟

انه الله ربنا جميعا الحق الذي ليس بعده الا الضلال ، فأين مكان الشركاء ؟ و أين تصرفون أيها المشركون في أي واد واي سبيل منحرف ؟!

و سؤال أخير : لماذا لا يؤمن هؤلاء جميعا برغم وضوح الايات والجواب : هو أن هؤلاء قد فسقوا و الفسق يحجب البصيرة.

بينات من الآيات

رزق الأرض و السماء:

[31]يهبط من السماء الماء ، ولكن ليس بطريقة عشوائية ، بل بحكمة بالغة ، فالماء لا يسيل كما تنفتح القربة ، حتى يفسد الأرض و يخرب البيوت ، و يأتي مشفوعا بالمواد الضرورية للزرع ، و ينزل معه فراتا سائغا ، و يأتي بقدر نافع لا يزيد ولا ينقص و بالتالي فهورزق للانسان متناسب مع حاجات البشر حجما و نوعا ، مما يدلنا على أن خالق الانسان هو رازقه الماء من السماء ، و الشمس تشع على الارض ، فتغنى التربة موادا نافعة لرزق الانسان كمية و كيفية ، مما يدلنا ايضا ان خالق الشمس هو خالق البشر و هكذا يرزق الله عباده من السماء.

و مخازن الرزق متواجدة في الأرض ، فالأحواض الطبيعية الضخمة داخل الأرض تستقبل مياه المطر لتخرجها في صورة ينابيع ، و قمم الجبال تجمد الماء من الشتاء الى الصيف ، و التربة تختزن المواد المفيدة ، و هكذا يرزق الله عباده من الأرض.

]قل من يرزقكم من السماء و الأرض [

أوليس هو ذلك القادر الحكيم الرحيم بالناس ، أو ليس هو الله ؟!

من الخالق ؟

و نتساءل : من الذي يوفر للانسان فرصة الاتصال بالحياة رؤية أو سماعا ، بما يستلزم من أنظمة معقدة في مخ البشر و أعصابه ، و ألياف عينه ، و عظام أذنه ، و بما يحتاج من ضياء وهواء يحمل الى عيوننا و

اسماعنا تموجات النور على الاشياءو ذبذبات الصوت على الهواء ؟ أوليس هو ذلك الخبير اللطيف ، أو ليس هو الله ؟!ّ[أمن يملك السمع و الابصار[

وأكثر من هذه جميعا هو التطور الهائل الذي يحدث في الاشياء صعودا من الموت الى الحياة ، و نزولا من الحياة الى الموت ، من الذي يدبر هذا التطور أوليس مالك الموت و الحياة ؟!

]ومن يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي[

ويبدو من هذه الكلمة ان الحياة هبة الهية تعطى لشيء فيصبح حيا ، و ينفصل من واقع الاشياء الميتة بعد أن يكتسب منها مواد ميتة ، فالبشر - مثلا - كان نطفة اعطاها الله الحياة ، ثم تتغذى النطفة من المواد الميتة ، فتضاف اليها و تصبح تلك الميتة بدورها ذات حياة ، و العكس يحدث هكذا!!

]ومن يدبر الأمر[

ان قيادة الكون منظمة ، وهي توحي الينا بضرورة من يشرف عليها و يدبرها ، لا يكون غير الله ، وهذه الأسئلة لو وجهتها الى أي واحد من المشركين..

]فسيقولون الله فقل افلا تتقون[

لماذا الانحراف ؟

فمادام الله هو فاعل كل ذلك فلماذا لا نخشاه ونتقه ؟ و نعمل بمناهجه ؟ ان القرآن الحكيم يربط بين النظرة الشاملة الى الكون و بين البصيرة السلوكية الخاصة ، و هذا الربط هو الذي ينقص كثيرا من الناس ، حيث يجهلون ان سلوكهم يجب ان يكون منسجما مع مسيرة الكونكلها ، و مع الحقائق التي يهتدي اليها الانسان من

خلال تفكره في هذه المسيرة.

[32]واذا شذ البشر عن المسيرة العامة للوجود فالى أين يشذ ؟ أوليس الى الضلال ؟ هل هناك حقائق في هذه الحياة ؟ هناك حق واحد يجب ان نفتش عنه ، و نطبقه على واقعنا .

[فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فانى تصرفون [أي الى أي جهة تعدلون بعبادتكم ، الى الباطل أم انكم تعملون من دون تفكر ؟!

[33]و يبقى تساؤل اذا كانت القضية بهذا الوضوح ، فلماذا يتعمد البعض بتجاهلها و اهلاك انفسهم ؟

ويجيب القرآن الحكيم : ان السبب هو فسق هؤلاء الذي يمنعهم من الايمان ، هذه سنة الله في الحياة : ان الفاسق لا يؤمن.

[كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون]ولا يدل ذلك على ان الله يمنعهم عن الايمان منعا ، بل على انهم عادة لا يؤمنون ، ذلك بسبب تكاثف حجب الفسق على أعينهم و بصائرهم.

البشر بين الظن و الحق

هدى من الآيات

يتسائل السياق القرآني : هل بمقدور أحد الشركاء ان يبدء الخلق ، ثم يفنيه ثم يعيده ، كما يفعل الله ؟ و يعلم المشركون ان الخلق بيد الله وحده ، فلماذا يصرفون الى الافك ؟

ويتساءل مرة أخرى من الذي يهدي الأحياء بعد أن يعطيهم خلقهم الى ما فيه صلاحهم و دوام حياتهم ؟

الله أم الشركاء ؟

ويجيب :ان الله هو الذي يهدينا ، فهو الذي وفر لنا العقل و السمع و الأبصار ، و زود الأحياء بالغرائز التي اهتدوا بها الى صلاحهم ، اذا فهل من الصحيح التسليم لله أم للشركاء الذين لا يهتدون الا بقدر ما يهديهم الله ؟ فكيف يحكم المشركون باتباع من لا يهدي ، بل ولا يهتدي الا بصعوبة ؟!

نعم ..إن سبب ضلالة هؤلاء و حكمهم الفاسد هو أنهم يتبعون الظنو التصورات النابعة من خيالهم ، و الظن لا يغني عن الحق شيئا ، و الله عليم بما يفعلون ، نتيجة اتباعهم للظن من الأعمال السيئة.

بينات من الآيات

الكفر بعد المعرفة:

[34]الذي يتبع السلطان الجائر ، والذي يخضع للغني المستغل ، أو لصاحب الشهرة و النفوذ ، يعلم أن قائده لا يستطيع ان يهب الحياة ، أو يعيدها بعد أن يسلبها الله ، و هو يعلم يقينا ان موهب الخلق و معيده بعد الفناء هو الله ، الواسع القدرة و العلم ، وهنا يتساءل القرآن اذا لماذا الخضوع للشركاء من دون الله ؟!

]قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده[

و يأتي الجواب : كلا..

]قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده[

انه يبدء الخلق من غير مثال سبقه اليه أحد ، ولا معالجة ولا لغوب ، فليس ربنا كما البشر يحتاج الى تجربة حتى يخلق الخلق بهذه الدقة المتناهية ، ولو احتاج الى التجربة لأحتاج الى بلايين التجارب من أجل خلق خلية حية واحدة ، كما يؤكد على ذلك العلم الحديث و الله يعيد الخلق حتى يسوي بنان الانسان بذلك الشكل الذي لا يتشابه مع بنان احد في العالم!!

]فانى تؤفكون[

أي أين تصرف بكم الأهواء ، و تتحرك بكم الشهوات ؟ ولماذا تتركون الخالقالعظيم الى بعض المخلوقين الضعفاء ؟!

الصلاح من الله

[35]و الله يعطي كل شيء خلقه و يهديه الى ما فيه صلاحه ، إنك تجد النملة كيف تفتش عن رزقها حتى تلتقطه و تحافظ عليه من الصيف للشتاء ، و تبني بيتها بطريقة هندسية غريبة ، و كما النملة تفعل النحلة ببيتها ، و تفتش عن رحيق الزهور ، و تنظم نفسها في خلاياهابأفضل تنظيم ، ثم تصنع عسلا و تحافظ عليه لرزقها أيام السنة ، فمن الذي أوحى اليها بذلك و هداها لصلاحها غير الله ؟ ؟

وكما النمل و النحل فكذلك سائر الأحياء ، و النباتات تنشط باتجاه مصالحها في سبل متعددة و باساليب شتى ، أو ليس الله الذي هداها الى ذلك ، كما هدى الانسان طبيعيا و حضاريا ؟!

]قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي للحق]فهو الذي خلق البشر و الطبيعة وفق الأنظمة الفطرية ، وهو الذي علم الانسان كيف يستفيد من الطبيعة و فق تلك الأنظمة دون ان يصطدم بها.

]افمن يهدي الى الحق احق ان يتبع امن لا يهدي الا ان يهدى]الشركاء لا يهتدون الا اذا هداهم الله ، فهذا الطاغوت الذي يعبد من دون الله لو سلب الله منه هداه ، و سلب منه عقله و علمه ، اولا يصبح

مجنونا يطرده أهله ؟! وهذا الثري الموغل في الفخر و الغرور ، لو سلب الله منه عقله و علمه ، اولا يصبح مثارا للسخرية ؟!
وهذا الصنم الحجري الذي يعبده الجاهلون هل يهدي أحدا ؟!

]فما لكم كيف تحكمون[

ولماذا تقيسون الشركاء برب العالمين ؟ و يبدو لي ان الآية الكريمة تشير الى أولئكالشركاء الذين يتخذهــم الناس أربابا فكريين ، و يأخذون منهم علومهم و ثقافتهم من دون الله ، ومن دون تمحيص ، فقد جاء في حديث شريف:

"من استمع الى ناطق فقد عبده فان كان الناطق عن الله فقد عبد الله ، وان كان الناطق ينطق عن ابليس فقد عبد ابليس " (١)وجاء في حديث آخر في تفسير الآية الكريمة:

"اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله " قال : " و الله ما صلوا لهم ولا صاموا ولكن اطاعوهم في معصية الله(2) " وجاء في حديث ثالث:

"من دان الله بغير سماع من عالم صادق ألزمه الله التيه الى الفناء ، ومن ادعى سماعا من غير الباب الذي فتحه الله لخلقه فهو مشرك ، و ذلك الباب هو الأمين المأمون على سر الله المكنون (3) "و في حديث آخر:

"من دان الله بغير سماع عن صادق ألزمه الله التيه الى يوم القيامة " (٤)و جاء في تفسير قول الله عز وجل:

"ومن أضل ممن اتبع هواءه بغير هدى من الله قال : عنى الله بها من اتخذ دينه(١) بحار الانوار للعلامة المجلسي / ص ٩٤ / الجزء الثاني.

(2)المصدر / ص ٩٧

(3)المصدر / ص ١٠٠

(4)المصدر / ص ٩٣د

رأيه من غير امام من أئمة الهدى " (١(

ان اتباع احد بصورة مطلقة ومن دون الانتفاع بعقولنا ، إنه نوع ظاهر من أنواع الشرك بالله ، لأن أهم اضرار الشرك هو اضلال الانسان في الحياة.

بين الظن و الحق:

[36]ولان الشرك و الطاعة العمياء للأصنام و كهنتها ، و رموز السلطة و الثروة و الرجعية - لأنه يسلب العقل ويلغي دوره - فان المشركين يتبعون التصورات و الظنون وهي لا تجديهم شيئا ، ذلك لأن الظن يعكس حالة صاحبه النفسية ، و لا يعكس الحقيقة الخارجية ، و الانسان زود بالعقل من أجل ان ينسق بين واقعه و بين الحقائق الخارجية ، و يدرء عن نفسه أخطار هذا الواقع ، و مثل هؤلاء كمن يرسم خريطة وهمية عن منطقة ثم يسير عليها دون أن يعتمد على عينه و أحاسيسه.

]وما يتبع اكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئا]والسؤال : لماذا يتبع هؤلاء الظن بينما زودوا بالعقل و البصيرة ؟

الجواب :إن المشركين يتبعون أهواءهم ، و يجعلون هوى الذات و حب النفس محورا لتحركهم ، فهم لا يهدفون ابدا الوصول الى الحق حتى يبحثون عن السبيل الذي يوصلهم اليه ، و هو العلم ولذلك فهم يرتكبون الجرائم بوعي و اصرار.

]ان الله عليم بما يفعلون[

(1)المصدر / ص ٩٣

و الله يجازيهـم على افعالهم ، ولكن يذكرها ايضا بأن اتباع الظن هو طريق الخطايا ، لكي يتجنب المؤمنون ذلك ، و يبحثوا ابدا عن المعرفة التي توصل الى الحقيقة.

القرآن يتحدى بنفسه الكفار

هدى من الآيات

وفي سياق الحديث عن الظن الذي يتبعه الجاهليون المشركون ، يذكرنا القرآن الحكيم ، بالطريق المؤدي الى الحق وهو العلم ، واحد مصدري المعرفة هو القرآن الذي لا يكون افتراءا لوضوح آياته و تطابقه مع العقل ، ولأنه جاء مصدقا لرسالات السماء السابقة ، و موضحا الكثير مما كان غامضا في تلك الرسالات ، و بذلك لا يرقى شك الى أنه نازل من رب العالمين الذي وسعت رحمته كل شيء ، فربى كل شيء و أعطاه التكامل ، و اعطى الانسان تكامله بالقرآن.

وهم يزعمون ان الرسول قد افتراه ، إذا ليأتوا بسورة واحدة مثل القرآن ، و ليستعينوا بمن شاؤوا لصنع هذه السورة المفتراة إن كانوا صادقين ؟!

كلا .. إن السبب في كفرهم أنهم لم يبلغوا علم القرآن ، ولم يحيطوا بكل أبعاده ، فكذبوا به لنقص فيهم ، ولأن الحقائق التي بشر بها القرآن لم تتحول البواقيعات أمامهم ، وحين تصبح الحقيقة واقعا خارجيا لا تنفع التوبة كما كانت عاقبة الظالمين من قبل ، والذي لا يؤمن بالقرآن مفسد في الأرض ، و الله عليم به ، أما المصلحون فان قلوبهم نظيفة و أعينهم مفتوحة ولذلك يؤمنون به.

بينات من الآيات

استحالة افتراء القرآن:

[37]ان لكل حق حقيقة ، وعلى كل صواب نورا ، ومن يرى الحقائق بعين بصيرة و قلب نظيف بعيدا عن الحجب و النظارات السوداء ، و بعيدا عن العقد النفسية فانه لا يخطأ ، و القرآن ذاته دليل صحته وأنه من الله ، فهو لا يمكن افتراءه اذ هو أسمى من أن يقدر أحد على صنعه ، انه صنع الله الذي لا يقدر على مثله البشر ، هل يستطيع أحد ان يخلق طيرا كما خلق الله ؟ كلا .. كذلك لا يقدر أحد على افتراء القرآن .

]وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله[

ولكن القرآن حلقة في سلسلة رسالات سماوية تصدق بعضها بعضا ، وهو خط ممتد يؤمن الناس به مجملا ، بالرغم من ان شهواتهم تدعوهم الى الكفر بالرسالة الجديدة لنقص في ذاتهم.

]ولكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين]فالقرآن يصدق الرسالات السابقة ، مما يدل على ٍأنه في خطها، ومن يؤمن بها لا بد ان يؤمن به ايضا ، وهو لا يرقى اليه ريب ، لأنه من وحي الله الذي لا يرقى اليه ريب أو نقص سبحانه . والله رب العالمين الذي أعطى كل شيء خلقه و تصاعده ،فخلق السمـوات و الأرض في ستة أيام ، وفي كل يوم يضيف خلقا جديدا و نعمة جديدة اليها ، وهو رب الانسان الذي يعطيه تكامله بطرق شتى و منها الوحي ، فواهب العقل هو منزل القرآن ، و الانسان غير المعقد يفهم هذه الحقيقة بوضوح.

[38]ولكنهم يصرون على اتهام الرسول بأنه قد افترى القرآن كله ، إذا قل لهم ليفتروا هم بدورهم قرآنا ، و ليأتوا ولو بسورة واحدة مثل القرآن في علمه و بلاغته ، و ليستعينوا بمن شاؤا من الجن و الأنس من أجل صنع سورة واحدة]أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله و ادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين]وكما لا يستطيع احد أن يخلق نملة واحدة فهو لا يقدر على أن يأتي بجزء بسيط من القرآن ، لأن خالق النملة هو موحي القرآن ، و القرآن بذلك المستوى الأرفع الذي لا يحيط به علم البشر و قدراته.

دوافع الفكر:

[39] وأحد العوامل النفسية التي تقف أمام ايمان هؤلاء هو جهلهم ، و ضيق صدورهم ، و قلة استعدادهم ، لذلك تراهم يكذبون بأي شيء لا يعرفون كل أبعاده و خصائصه ، ولا يفكرون أن الحقيقة التي يرونها و يعرفون صحتها جديرة بالايمان ، ولا يجوز لهم انكارها بمجرد انهم لا يعرفون كل أبعادها.

[بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه]

وهذه صفة عامة للبشر ، وقد عبر عنها الامام علي (ع) بقوله:

"الناس اعداء ما جهلوا "

وهــذه من أسوأ الصفات الجاهلية و المتخلفة التي تقف عقبة في طريق تقدم البشرية ، وعلى الانسان ان يربي نفسه و مجتمعه على استقبال كل جديد بروح إيجابية ، ولا يرفض أي شيء جديد بمجرد انه لا يعرف عنه شيئا.

ومن الصفات الجاهلية هي انتظار تحول الحقيقة الى واقع ، فاذا أنذر الجاهلي و المتخلف حضاريا بالمجاعة بسبب التكامل او الاختلاف لم يؤمن بالحقيقة ، و انتظر قدوم المجاعة فعلا حتى يؤمن بها ، ولكن ما فائدة الايمان آنئذ.

إننا نريد العلم لنستبق به الأحداث ، و نمنع عن أنفسنا الاخطار ، اما بعد مجيئه فان الايمان لا يجدي شيئا ، بل سوف يحيط الواقع السيء بالانسان و يقضي عليه كما دلت على ذلك أحداث التأريخ.

[ولما يأتيهم تاويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظــالمين][٤٠] ومرة أخرى يؤكد القرآن ان احد العوامل الأساسية للكفر بالقرآن الحكيم هو العمل السيء الذي ران على قلوب الكافرين ، فلم يدعهم يؤمنون بالرسالة ، ذلك العمل هو الفساد في الارض.

[ومنهم من يؤمن به]

في المستقبل اذا كان مصلحا طيب القلب ، ينتظر المزيد من الآيات ، أو بعض الحالات النفسية التي يتغلب بها على ضغوط المجتمع الفاسد او الشهوات العاجلة.

[ومنهم من لا يؤمن به]

وهذا الفريق لا يؤمن بالرسالة بسبب توغله في الفساد ، و بناء حياته على اساسمنحرف وشاذ.

[و ربك اعلم بالمفسدين]

البراءة من اصحاب القلوب المريضة

هدى من الآيات

وفي سياق البيان الالهي للقرآن ، و كيف انه معجز لا يقدر على مثله بشر ، يبين ربنا سبحانه الحل الحاسم الأخير ، والذي يتسم بصرامة الحق و صراحته ، فان كذبوا الرسول برغم وضوح رسالته ، فليقل أنه منفصل عنهم بريىء من عملهم ، كما هم بريؤون من عمله ، فكل يتحمل مسؤولية عمله ، ولذلك فهو و المؤمنون به أمة ، وهم أمة.

ومنهم من يزعم أن تقربه الى الرسول ومن دون الايمان برسالته تنفعه شيئا ، ولكن هل يقدر الرسول اسماع من به صمم ؟ كلا ..لأن النقص فيه و في قدرته على الاستجابة للرسالة.

كما أن بعضهم ينظر الى الرسول عسى أن يريه سبيل الهدى دون أن يؤمن برسالته التي هي الضياء و الهدى ، ولكن حين تكون العين عمياء هل تنفعه أشعة الشمس القوية شيئا ؟! ان الصمم و العمى ليسا من الله بل من ارادة الناسأنفسهم ، لأن الله لا يظلم أحدا فيخلقه - سبحانه - أعمى أو أصم ، كلا بل الناس يظلمون أنفسهم بعدم محاولة الرؤية و الاستماع.

وهكذا يعطي هذا الدرس رؤية واضحة تجاه كفر الناس و ايمانهم ، وانه من انفسهم و بسبب سوء اختيارهم.

بينات من الآيات

مبدئية العلاقات:

[41]يبدو ان بعض الناس يريدون الابقاء على علاقتهم مع رسل الله بعد قطع علاقتهم مع رسالاتهم ، فيكذبون الرسول و لكنهم يريدون ان يكونوا هم و الرسول من قوم واحد ، وهكذا الأمر بالنسبة الى علاقة الناس بأصحاب المابدىء ، بيد ان الله يأمر رسوله بقطع العلاقةمع من يكذب بالرسالة.

]وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم انتم بريؤن مما اعمل وانا بريء مما تعملون]فالكل يعمل حسب وجهته و يتحمل وحده مسؤولية عمله ، و المبدأ هو الذي يفصل هذه الجماعة عن تلك ، وليس أي شيء آخر ، وحين يفصل المبدأ بين قوم و اخرين لا ينفع وحدة الأرض و اللغة ، أو حتى القرابة في ربط بعضهم ببعض.

الذات منطلق الاهتداء:

[42]ومن الناس من يزعم ان الرسول هو الذي يعطيهم الرؤية من دون أن يسعى هو من أجل ذلك ، وهذا غلط فظيع ، ذلك لأن الهداية او الضلالة بقدر من الانسان نفسه ، والذي لا يبدأ الخطوة الأولى في هذا الطريق لا يجديه شيء آخر ، و يكون مثله كمثل أصم يطلب من الآخرين أن يسمعوه شيئا بينما النقص من

ذاته ، وانه مهما كانت قوة الصوت فانه لا يسمع!!

]ومنهم من يستمعون اليك افانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون]فالأصم لا يستجيب عقله لحديث ، لأن سمعه مسدود ، وهؤلاء لا ينتفعون بسمعهم ولا يعقلون ما يدخل سمعهم من أحاديث ، و السمع أرفع جهاز إدراك عند البشر ، باعتباره الأداة الأوسع انتشارا و الأكثر فائدة في نقل التجارب و الخبرات من جيل لآخر ، وبالتالي فهو الواسطـة الفضلى للحضارة البشرية ، التي هي تراكمات الخبرات عبر العصور المتمادية ، و ربما لذلك عقب القرآن على الصمم بعدم العقل.

[43]وكذلك هناك بعض من لم يعرف هذه الحقيقة ، ان الهداية هي اولى مسؤوليات البشر ، وان من لا يعمل من أجلها لا يبلغها ابدا.

]ومنهم من ينظر اليك[

و كأن الرسول هو المسؤول عن هدايته وعن توجيهه.

]افانت تهدي العمى و لو كانوا لا يبصرون[

فالأعمى لا يرى ، لا لأن الضوء قليل ، بل لأن جهاز الاستقبال معطب ، و التحرك يجب ان يكون ابتداءا من الفرد نفسه .

[44]ولا يجوز ان يزعم الانسان أن الله هو الذي سلب الفرد سمعه و بصره ، بل الانسان هو نفسه الذي لاينفع بسمعه و بصره.

]ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يضلمون]فالناس هم الذين لا يستفيدون من ادوات التوجيه عندهم ، و ربما عبر القرآنبكلمة الناس لسبب هو أن بعض الناس يضلل بعضهم بعضا ، وأنهم مسؤولون عن هداية بعضهم ، كما أن التعبير القرآني في السمع جاء بصفة جماعية ، بينما جاء عند التعبير عن البصر بصفة فردية ، ربما لأن السمع عملية حضارية يكلف بها الناس جميعا ، بينما البصر يغلب عليه الجانب الفردي.

[45] للانسان الجاهلي غلطتان كبيرتان.

الغلطة الاولى:

عدم فهم طبيعة الجزاء وانه ليس من الضروري ان يكون بعد العمل مباشرة . الجزاء يأتي وكل آت قريب لذلك لا يجوز للانسان من ان يكفر بالجزاء لانه قد تأخر قليلا عنه ثم الجزاء الموعــود في القرآن ليس جزاء بسيطا لانه يتسم بصفتين أساسيتين:

الاولى : انه جزاء خالد.

الثاني : انه لا يمكن للانسان ان يهرب منه او يطلب الاذن من ربه في العودة الى الدنيا لتجربة ارادته مرة اخرى.

و بالقياس الى الخلود الذي يتسم به الجزاء الالهي على الاعمال فإن الفترة التي يقضيها الانسان في الدنيا بسيطة و بسيطة جدا.

[ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار]

الفترة التي كانوا خلالها في الدنيا تعتبر بالقياس الى زمن الآخرة ساعة واحدة و يكفيك للقياس ان تعلم بأنك قصارى ما تعيش في الدنيا سبعين عاما او ثمانين أو اكثر او اقل بينما تعيش في يوم القيامة في يوم واحد فقط خمسين ألف عام .هل بإمكانك ان تقيس هذه الفترة المحدودة بذلك الزمن الممتد إلا ان تقول أن هذه ساعة من ذاك.

[يتعارفون بينهم]

يعرف بعضهم بعضا و يتذكر بعضهم بعضا وكأنهم في هذه الدنيا و هنالك تكون الخسارة لمن ؟ لأولئك الذين كذبوا بذلك اليوم أما الرابحون فهم الذين ءامنوا بذلك اليوم و استعدوا له سلفا.

[قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين][٤٦] أما الغلطة الثانية:

فهو الاعتقاد بأن الجزاء الذي يعدهم الرسول ناطقا عبر الله إن هذا الجزاء انما هو من الرسول نفسه .

فمثلا ينتظر بعضهم وفاة الرسول او يدبرون المؤامرات ضده زاعمين ان تصفية الرسول يعني خلاصهم مما ينذرهم به.

الرسول مجرد منذر و مبشر أما العذاب فهو من الله فسواء كان الرسول أو لم يكن بين أظهرهم فإن جزاء أعمالهم لابد ان يلحقهم.

[واما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون] الله قبل الرسول هو شهيد على أعمالهم فأين يهربون.

لكل امة اجل

هدى من الآيات

في سياق الدرس السابق حدثنا القرآن الحكيم عن مسؤولية الانسان المباشرة عن الهداية ، حيث تنتهي عاقبة الضلالة بالخسارة الكبرى التي تلحق المكذبين بآيات الله و لقائه ، وحين يحشرهم الله للجزاء في ذلك اليوم الرهيب يعرف الناس بعضهم بعضا ، و يزعمون أنهم لم يلبثوا في الدنيا الا برهة قصيرة من الوقت ، وليس المهم ان يرى صاحب الرسالة ما يعدهم الله من العذاب في الدنيا ، او يتوفاه الله ولكنهم بالتالي يعودون الى ربهم ، و الله شهيد على مواقفهم و افعالهم.

ولكل أمة رسول ، فاذا جاء الرسول وبلغ الرسالة وأتم الحجة عليهم ، قضى الله بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ، بل يجازون بما فعلوا.

و يستعجل الناس العذاب ، ويقولون متى هذا الوعد ؟! ويجيب ربنا قائلا : ان هناك اجلا محددا لكل أمة يستنفذون قبله كل فرصة لهم في الدنيا ، فاذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وإذا وافاهم أجلهم سواء بالليل او بالنهار ، فهل يسبقوه ، أو هل هو مما يستعجله البشر ، وهل يطالب المجرم بسرعة الجزاء ؟!

بل أنهم سوف يؤمنون بعد انتهاء الفرصة ، ذلك لأنه أصبح حقيقة واقعية أمامهم ، و يعرفون ان استعجالهم كان خاطئا.

بينات من الآيات

القرآن يحطم حواجز الأيمان

هدى من الآيات

في سياق الدروس السابقة التي كانت آيات القرآن تهدينا الى انها وحي من عند الله ، تحطم هذه الآيات الحواجز النفسية التي تمنع الايمان ، ثم تذكر بأن القرآن شفاء و موعظة ، وانه فضل و رحمة و خير مما يجمع الناس ، فتبدء الآية الأولى بالسؤال الذي يوجهه الكفارالى الرسول عن أن القرآن حق ؟ و يجيب الرسول و يحلف بربه الكريم أنه لحق ، اما حاجز الغرور و العزة بالأثم فانه وهم باطل ، اذ ان الكفار ليسوا بقادرين على تعجيز اقدار الله و تفشيل خطط الرسول ، ثم لا ينفع المال و البنون ، لأنه حين يأتي العذاب و يراه الظالمون يتمنون لو قبل الله منهم ان يفتدوا عن عذاب ذلك اليوم بكل ما في الارض لو كانوا يملكونها ، وقد بلغت الندامة اعمق اعماقهم وقضي بينهم بالقسط ، و جوزوا على اعمالهم وهم لا يظلمون . و الحاجز الاخر الذي يحول بين الانسان و الايمان بيوم الجزاء هو ترددد في قدرة الله او صدق وعده سبحانه ، ولكن ٍأليس لله مافي السموات و الارض ، وان وعده حق كما يدل عليه ما يجري في السموات و الارض ؟ ولكن جهل هؤلاء بالدنيا و سننها هو السبب المباشر لضلالتهم ،ثم أوليس الله يحيي و يميت ؟ أو ليس قادرا على بعث الناس من جديد ؟!

وهكذا ينادي القرآن الناس بأنه جاء موعظة من ربهم ، وانه يشفي صدورهم من عقد الجهل و العصبية و الانغلاق ، وانه يهدي الناس ، واذا آمن به الناس وطبقوه فهو رحمة لهم و رفاه ، وهذا الرفاه يجمعه الناس من وسائل مادية بحتة لا تعطيهم رفاه ولا رحمة.

بينات من الآيات
في رحاب الحقائق:

[53]و يتسائل الكفار هل يؤمن الرسول بما يقول و يقولون له : أحق هو ؟ فيجيب الرسول بحسم و بالضرورة : انه لحق[و يستنبؤنك احق هو قل اي و ربي انه لحق[

وبين السؤال و الجواب نستنبط عدة حقائق:

اولا : بالرغم من ان الحقائق الفلسفية العامة ليست قابلة للتقليد و الطاعة العمياء الا ان السؤال عنها مفيد ، اذ قد تحمل الاجابة اشارات هادية لك لو فكرت فيها لعرفت الحقيقة مباشرة ، فيكون السؤال مثل ان يسأل احد عن مكان الماء ، فحين يشير الآخر اليه و يلتفت السائل يرى الماء مباشرة.

ثانيا :ان احدى المشاكل الرئيسية التي تعترض طريق الناس عن الايمان هو تهيب الايمان ، و الاعتقاد بأن المؤمنين ليسوا في الواقع مؤمنين بصدق ، ولذلك اذا عرفوا صدق ايمان المؤمنين بالرسالة ، زال حاجز الهيبة و تشجعوا على الايمان ، ومن هنا كان تأكيد المؤمنين ايمانهم قوليا و عمليا أو بسبب تضحياتهم الرسالية كان ذلك ذا اثر فعال في روحية المترددين و الشاكين.

ثالثا :ان الرسول أجابهم بصورة مؤكدة ، و حلف بربه حلفا يؤثر في وجدان السامعين ، لأنه يتصل بمن رباه و انعم عليه ، وعموما القسم بالرب قسم وجدانيعميق الأثر.

و بعد الحوار أكد الرسول على ان حاجز الغرور هو الذي يفصلهم عن الايمان ، فيــزعمــون أنهم قادرون على مقاومة نفوذ الرسالة ، أو الأتيان بافضل منها حتى يسبقوها !! كلا.

]وما انتم بمعجزين[

التذكير بالاخرة نفطة الانطلاق:

[54]الانسان بفطرته مؤمن ، ولكن دواعي الشهوة و الطيش و الغرور ، و الجهل تمنعه عادة عن الارتفاع الى مستوى الايمان ، و يهدم القرآن جدار الغرور بتذكير البشر بيوم فاقته ، حين يحين ميعاد جزائه على ظلمه لنفسه ، عندما يتمنى لو كان يملك ما في الارض جميعاليفتدي بها عن نفسه ، فيخلصها من العذاب ، ولكن هيهات!!

وهنا لابد ان يتذكر الانسان بان المهم ليس ما يملك لأنه يزول عنه ، ولكن نفسه و عمله هما الباقيان.

]ولو ان لكل نفس ظلمت[

ظلما ذاتيا بارتكاب المعاصي ، او ظلما اجتماعيا باغتصاب حقوق الاخرين ، لو انها كانت تملك[مافي الارض لافتدت به و اسروا الندامة لما راوا العذاب]وربما كان معنى اسرار الندامة الشعور بها عميقا في سرهم ، و ليس بمعنى اخفائها ، لأنه لا احد يقدر على كتمان حالته يوم القيامة ، ولكن من المسؤول عن ندامتهم أوليست انفسهم!!

]وقضى بينهم بالقسط[

أي بالدقة التامة دون أي زيادة او نقيصة.

]وهم لا يظلمون[

الوعد الحق:

[55]ولو زعم الكفار أن اعادة بعث الناس مستحيل ، أو زعموا ان جزاءهم في الدنيا غير وارد ، فليعلموا ان الله هو مالك ما في السموات و الارض وان وعده حق.

]الا ان لله ما فـي السمـوات و الارض الا ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لا يعلمون]ولو كان لهؤلاء العلم بالكون بقوانينه و سنن الله الحاكمة فيه لعرفوا ان كل عمل يتحول الى جزاء عاجلا او آجلا . خيرا او شرا ، تلك هي أبسط قاعدة حياتية ، فكيف لا تنتهي حياة الناس بالجزاء الشامل يوم القيامة ؟

[56]و الله يحي و يميت ، فهو قادر على احياء الناس بعد موتهم ، ولذلك فنحن نرجع اليه للحساب.

]هو يحيي و يميت واليه ترجعون[

[57]و الله الذي يذكرنا بنفسه ينزل القرآن الذي يتفجر من خلاله التذكرةبالله ، وهو موعظة من رب العالمين ، فالذي وفر للعاملين أسباب معيشتهم ، و هداهم اليها بالغريزة و العقل ، هو الذي أنزل القرآن ليكون جسرا بين الحقيقة و السلوك ، و يوجه البشر الى الاصلاح و يحذرهم من الفساد ، و السبيل الذي يتبعه الذكر لبلوغ هذا الهدف هو:
تزكية النفوس و تهيئتها لقبول الحقائق فهو شفاء لما في الصدور ، و النتيجة التي يحصل عليها الناس بعدئذ هي:

اولا : الهداية و معرفة ما ينبغي عمله وما يجب تركه.

ثانيا : الرحمة التي هي الرخاء و الرفاه و السعادة ، وهي خاصة بالمؤمنين المنفذين لتعاليم القرآن.

]يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم و شفاء لما في الصدور و هدى و رحمة للمؤمنين]السعادة الحقيقية:

[58]وعلى الناس ان يفرحوا عندما يطبقون مناهج الله ، و يحصلون من ورائها على السعادة و الفلاح ، لأنها سعادة حقيقية لكل الناس وفي كل زمان ، وحتى في الآخرة.

[قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا]

ربما يكون فضل الله هو القرآن و العترة و ائمة الهدى ، بينما رحمة الله ما ينتهي اليه العمل بالرسالة.

[هو خير مما يجمعون]

من حطام الدنيا الذي أمده قصير ، وخيره محدود في طائفة دون طائفة ، وهو بالتالي يختص بالدنيا فقط.

حرمة التشريع من دون اذن الله

هدى من الآيات

الهدف من الوحي الالهي هو موعظة الانسان ، و شفاء صدره و هدايته ، و بالتالي انزال الرحمة عليه ، و يتجسد هذا الهدف عمليا في الشتريعات الصائبة التي تتجاوز الهوى و الشهوات ، ومن لا يتبع هدى القرآن يبدء بتشريعات شاذة في رزق الله وفي نعمه السابغة ، فتراهيجعل بعض النعم حلالا و بعضها حراما افتراء على الله ، و بعيدا عن اذن الله ، وماذا ينتظر هؤلاء يوم القيامة ، بعد أن كفروا بنعم الله و حرموها على أنفسهم ؟ أوليس ذلك خلاف العقل و الفطرة أن يتفضل الله على الناس فلا يشكرونه ، بل و يفترون عليه الكذب و يحرمونرزق الله على انفسهم ؟؟

ان أعمال البشر كلها تجري بعلم الله و بشهادته ، ففي أية حالة يكون البشر ، وأي عقيدة ينتمي اليها ، واي عمل يقوم به ، فان الله شاهد عليه حين تحركه دون ان يغيب عنه شيء بوزن الذرة أو أكبر او اصغر

، وهو بالاضافة الى شهادة الله يسجل في كتاب مبين ، فعلى البشر أن يتبع في كل عمل من أعماله حدود الله وهداه ، ولايعمل حسب اهوائه.

بينات من الآيات

الوحي هدى الطريق:

[59]لقد جاء الوحي ليملأ فراغا حقيقيا في الحياة ، ذلك لأن الحياة نعمة واسعة من الله علينا فلا يحق لنا بل لا ينبغي أن نتحرك فيها من دون هدى الله الذي يرسم لنا خريطة التحرك ، ويحدد لنا معالم العمل .

]قل ارايتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما و حلالا]وهل يحق لنا أن نتصرف في رزق الله ، و نقول : هذا حرام وهذا حلال ؟ كلا .. بل علينا أن نتقيد وفق اذن الله.

]قل ءالله اذن لكم ام على الله تفترون[

انها قضية فطرية ، ان التصرف في نعم الله لا ينبغي ان يكون من دون اذنه ، وهل اذن الله للناس اذنا مطلقا بالتصرف في ملكوته ، من دون عقل كاف و علم ، ام انه كذب و افتراء ؟ أجل ان علينا أن نبحث عن وحي الله ليحدد لنا خريطة الحياة.

[60]وماذا يتصور الذين يفترون على الله الكذب ، و يشرعون من دون اذن الله ؟ و كيف يمكن ان يعاملهم الله هناك . وقد كفروا بانعم الله ، فحرموها على انفسهم وعلى الناس من دون اذن الله ، هل يعذبهم ام يغفر لهم ؟!

ان مجرد التفكير في ان المشرع سوف يسأل امام الله يوم القيامة يكفيه رادعا عن التشريع بالهوى.

]وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة]لقد من الله بمختلف النعم على البشر و سخر للانسان مافي السموات وما في الارض ، و زوده بقدرة الارادة و نور العقل و سلامة الجسد ، ولكن الناس ضيقوا على انفسهم و حددوا طاقاتهم بلا سبب ، فرسموا لبعضهم البعض الحدود الزائفة في الأرض ، قائلين هذه أرضك وهذه أرضي ، ثم وضعوا انظمة للتجارة و الصناعة ، ومن ثم صنعوا الأغلال الفكرية و الأثقال الثقافية و وضعوها حول نفسيات البشر ، من خوف الطبيعة الى خشية الابتكار الى المحرمات الكثيرة التي ما انزل الله بها من سلطان ، الى الرسوم و العادات الباطلة ، وكل ذلك منعهم منالانتفاع بنعم الله وكان بمثابة الكفر بتلك النعم.

]ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم لا يشكرون]وهل هذا شكر لفضل الله على الناس ، ان يحرموه على انفسهم ؟! من هنا ينبغي ان يسارع البشر الى وحي الله ، ويؤمن به و يتخذ منه تشريعاته دون ان يحيد عنه قيد شعرة ، لا زيادة ولا نقيصة ، حتى ينتفع بالنعم.

الرقابة الالهية:

[61]البشر محاط برقابة الله عليه ، فلا يكون في وضع ولا ينتمي الى فكرة ولا يعمل عملا الا و يشهد الله عليه ، لأنه حاضر عنده و ليس بغائب عنه ، اذا فعلى البشر ان يجعل اوضاعه و أفكاره في أطار الوحي ، و وفق تشريعات الله ، ولا يسترسل في قراراته حسب اهوائه.

]وما تكون في شأن[

أي في حالة من الاحوال.

]وما تتلوا منه من قرآن[

أي ما نقرأ من القرآن - حول ذلك الشأن - هذا عن الرسول و المؤمن الذي يتبع في شؤون هدى القرآن ، أما بالنسبة الى غيره فما يتلوه هو أفكاره النابعة من اهوائه ، و الله سبحانه شاهد عليها كما هو شاهد على شأنه و عمله.

]ولا تعملون من عمل[

تحول الخطاب الى الجماعة بعد أن كان فرديا ، و السبب قد يكون ان لكل انسان شأنه وفكره ، ولكن العمل عادة ما يكون جماعيا يقوم به أولا اقل يرضى به مجموعة من الناس فيشتركون في مسؤوليته ، ولو بقدر الرضا عنه و عدم ردع عامله.

]الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه[

أي حين تخوضون فيه وكأنكم منفلتون عن القيود ، أحرار في التصرف لكم مطلق القرار في العمل ، بينما الواقع غير ذلك وهو أنكم محدودون في أطار شهادة الله عليكم ، لذلك اتبعوا هدى الله.

]وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين [ان كل شيء له وزنه الخفيف او الثقيل ، ابتداء من وزن الذرة الصغيرة و حتى وزن المجرة الكبيرة ، انها جميعا محسوبة عند الله ، و مسجلة في كتاب واضح لا تختلط اوراقه ، او تضيع معلوماته ، من هنا ينبغي ان يتصرف البشر بعقل و بحذر ، يضع كل شيء موضعه المناسبولا يرفع قدما ولا يضع خطوة ولا يتحرك قليلا او كثيرا ، الا وفق برنامج معد سلفا ، مطابق للوحي ، حتى لا تسجل ضده نقطة في كتاب الله ، وفي الدرس القادم يبين القرآن كيف يتجنب الفرد هذه المشكلة ، مشكلة الاسترسال في الحياة.

أولياء الله البشرى و العزة

هدى من الآيات

مادامت حياة الفرد محاطة بشهادة الله و تسجل عليه كل حالة و فكرة و جولة ، فان البشر في خطر عظيم ، و يطرح السؤال :كيف الخلاص ؟

الجواب :عن طريق الايمان و التقوى ، الذي يجعل الفرد وليا لله ، قريبا منه ، و يبعد عنه الخوف و الحزن ، و يوفر له البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة ، و الله حكم بألا يبدل سنته و كلماته ، بل يعطي للمؤمن المتقي أفضل النعم في الدنيا و الاخرة ، ومن تلك النعم العزة ، لأن العزة لله جميعا ، وهو الذي يعطيها للمؤمنين المتقين ، وهو السميع العليم.

بينات من الآيات

هل نحن أولياء الله ؟

[62]من هو الولي الحقيقي لله ؟

إنه المؤمن المتقي الذي لا يجعل بينه و بين ربه حاجبا من غفلة أو شهوة أو ضلالة ، ولان هذا الفرد قريب من مصدر الأمن و البشرى ، فلا خوف عليه من المستقبل ، ولا حزن على الماضي.

]الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون][٦٢] وكيف يمكن ان يبلغ البشر درجة ولاية الله ؟

بالايمان بالله و برسالاته ، و بالتالي بالحق الذي قد يخالف أهواءه ، ثم التقوى بتطبيق برامج الرسالة في حياته عمليا بالتزام صارم و تعهد مسؤول.

]الذين ءامنوا وكانوا يتقون[

ويبدو من الآية ضرورة استمرار الايمان و التقوى في حياة الفرد ، بدلالة صيغة الماضي المؤكدة بكلمة "

كان " ذلك لأن اكثر الناس يؤمنون و يتقون ولكن قبل ان يتعرضوا لامتحانات عسيرة.

لمن البشرى ؟

[64]ولهؤلاء المؤمنين البشرى بحياة آمنة كريمة في الدنيا ، و أفضل منها في الاخرة.

]لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة[

و البشرى هي التطلع الى هذه الحياة الانية ، ذلك التطلع الذي يحققه الفرد بعمله و جهاده.

]لا تبديل لكلمات الله[

فالله قد اجرى في الكون سننا حكيمة ، وجعل منها اعطاء الحياة الآمنة السعيدة للمؤمن ، وانه لا يبدلها لأنه قوي عزيز ، والواقع ان الايمان بالله و برسالاته ، و التقوى بتطبيقها عمليا يعني تسخير أفضل ما في الكون من أجل سعادة البشر ، و الاجتناب عن كل شيء.

]ذلك هو الفوز العظيم[

لمن العزة ؟

[65]وبما ان عاقبة الأمر للتقوى ، فان الوصول الى هذه العاقبة يمر عبر صعوبات كبيرة ومنها الحرب الاعلامية التي تحاول بعث اليأس في قلوب المؤمنين عن طريق تسفيه آمالهم و طموحاتهم المستقبلية ، و توجيه نظرهم الى واقعهم الفاسد الذي يعيشونه ، والذي يتسم بتسلط الظالمين عليهم ، ولكن القرآن يؤكد مرة اخرى ان هذا الواقع سوف ينتهي و يأتي مكانه واقع أفضل ، حيث العزة و الكرامة.

]ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا هو السميع العليم]فربنا المهيمن على حياتنا لا يدع المؤمنين في هذه الحالة لا ستثنائية ، حتى يكرمهم بالنصر و الكرامة ، ولكن بعد ان يوفروا في انفسهم صفات اولياء الله التي جاءت في النصوص الاسلامية والتي تذكر بعضها فيما يلي:

- 1سئل أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) عن قوله تعالى " الا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " فقيل له : من هؤلاء الأولياء ؟ فقال أمير المؤمنين:

"قوم أخلصوا لله في عبادته ، ونظروا الى باطن الدنيا ، حين نظر الناس الى ظاهرها ، فعرفوا اجلها حين غرت الخلق - سواهم - بعاجلها ، فتركوا ما علموا انهسيتركهم ، و أماتوا منها ما علموا أنه سيميتهم " (١)٢ - وعــن أبي جعفر (عليه السلام) قال " : وجدنا في كتاب علي بن الحسين (ع) " " الا أن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " قال:

"اذا أدوا فرائض الله ، و أخذوا بسنن رسول الله ، و تورعوا عن محارم الله ، و زهدوا في عاجل زهرة الدنيا ، و رغبوا فيما عند الله ، و اكتسبوا الطيب من رزق الله ، ولا يريدون هذا التفاخر و التكاثر ، ثم انفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبه ، فأولئك الذينبارك الله لهم فيما اكتسبوا ، و يثابون على ما قدموا لآخرتهم " (٢)(١) ، (٢) تفسير الميزان / ص ٩٨ / لجزء الحادي عشر.

الشرك بين الظن و الخرص

هدى من الآيات

خلفية الخوف من الجبت و الطاغوت هو الشرك بالله . وفي هذا الدرس يذكر ربنا عباده بحقيقة الشرك الذي ليس هو سوى الظن و الوهم (تصورات و خيالات) بينما الله وحده مالك كل من في السموات و

الارض ، ومن بينها أولئك المعبودون من دون الله باسم الشركاء ، و أنظمةالحياة التي تساعد الاحياء على البقاء ، انها بدورها من الله ، فهو الذي جعل الليل ليسكــن فيه الأحياء ، و جعل النهار مضيئا ، كل ذلك آيات لمن يفتح أذنه للسماع.

وليس من قوة في الأرض وفي السماء الا وهي خاضعة لله ، و ليست اداة وآلة بيد الله ، لأن الله غني وهو أرفع من أن يتخذ مساعدا أو ولدا ، ان هذا الكلام نابع من الجهل الذي لا برهان عليه.

و الذين يفترون على الله الكذب ، و يدعون شركاء لله أو اولاد ، لا يفلحون ولا ينالون السعادة ، اذ أن بعض المتعة يصيبهم في الدنيا ، وبعدها يذوقون عذاب النار

الشديد بسبب كفرهم بالله.
بينات من الآيات
الملك لله:

[66]لا خوف على المؤمنين بل لهم النصر و العزة ، وأن أصحاب السلطة ، أنهم ليسوا في الواقع سوى مملوكين لله ، كما أن الملائكة و الجن من سكان السموات الذين يعبدون من دون الله ، و يزعم البسطاء ان لهم تأثيرا حاسما على أحداث الحياة و يعيشون الرعب من تأثيراتهم ، كل أولئك مملوكين لله!!

]الا ان لله من في السموات ومن في الارض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء]انهم ليسوا شركاء لله ، بل عباد مربوبون ، كأي شخص أو شيء آخر ، وفي الواقع اتباعهم لهؤلاء نابع من التصور و الوهم.

]ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون[

فخلفية الشرك بالله العظيم ، هي اتباع الخيال و الاحتمال ، فمن يتبع العقل يتخلص من التصورات النابعة من قوة الخيال ، أو من ضغوط الشهوات ، لأن العقل يميز بين الخيال النابع من الحب و الغضب (الهوى) وبين الرؤية الصافية للحقائق ، كما أن من يتبع العلم يتخلص من سلطان الاحتمالات التي لا مرجح لأحدها على الاخر ، أما الجاهلي فانه يتبع الظن و الخرص ، وهما يدعوانه الى الخضوع للشركاء.

تدبير الله:

[67]و الله هو المهيمن على الكائنات ، فهو الذي قدر الليل و النهار ، فجعل٤٢٠

الليل ساكنا هادئا يأوي فيه كل حي الى فراش النوم ، والراحة ، اما النهار فانه جعله مضيــئا يساعد الأحياء على الأبصار و رؤية الاشياء ، مما يدفعهم الى النشاط و الحركة.

]هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه و النهار مبصرا]فهو الذي يملك أمر الناس ، و يدبر شؤونهم وعلينا الا نخضع للناس من دون الله مالك شؤونهم ، ولكن هذه الحقيقة البسيطة قد يغفل عنها بعض الناس بسبب افتقادهم لأبسط شروط القيم وهو السماع.

]ان في ذلك لايات لقوم يسمعون[

أما الذين يتبعون الظن و الخرص فلا يدعوهم احساسهم بالحاجة الى العلم ، ولا يدعوهم الى السماع ، و بالتالي الفهم.

لا والد ولا ولد!!

[68]ليس هناك ما يوازي سلطان الله لا في العرض ولا في الطول ، أي لا يوجد هناك شريك لله يكون

بمستوى علمه و قدرته سبحانه ، كما لا يوجد هناك ولد لله يستمد منه صفاته الألوهية سبحانه.

]قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني[

ولماذا يتخذ الله ولدا ؟ هل لأنه سوف يموت فيستخلفه الولد ؟ أم لأنه عاجز عن ادارة اموره فيساعده الولد ؟ أم لأنه فقير فيعطيه الولد شيئا ؟ كلا .. إن ربنا غني بذاته .. و سبب غناه انه يملك كلما يوجد في السموات و الارض من قوة و امكانية.

] =9له مافي السموات وما في الارض[

اما الذين يزعمون ان لربنا ولدا فهم لا يعلمون شيئا من مقام الألوهية المقدسعن النقص ، و يشبهون خالق السموات و الارض بالمخلوقات العاجزة ، دون ان يكون لهم دليل الا جهلهم بالحقيقة.

ولو سألتهم كيف تتصوروا بأن لله ولدا ؟! لأجابوا اذا كيف يدبر السموات و الارض ؟! أولا يعلموا ان تدبير الله ليس كتدبير البشر بالاداة و الوسيلة و الوسائط ، بل انما أمره ان يقول : " كن " فيكون.

[ان عندكم من سلطان بهذا اتقولون على الله مالا تعلمون]عاقبة الافتراء:

[69] واذا عرف البشر ان الكلام من مسؤوليته ، وأنه لو قال كلاما من دون دليل خصوصا فيما يرتبط برب العالمين فانه مسؤول عنه ، وانه يسبب له الشقاء اذا ما بادر بالافتراء على ربه العظيم.

[قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون]

و السبب ان الكذب على الله يسبب انحرافا عقائديا و سلوكيا كبيرا . يجره الى انحرفات لا تحصى ، وتجعل حياته جحيما لا يطاق.

[70]ثم ان الاخرة تنتظرهم بعذاب شديد.

[متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون [ولا يسع البشر ان يقول لم أعرف ، اذ يقال له لماذا اتبعت جهلك وهواك ، ولم تسمع كلام الحق ؟ّ! اولم تبحث عنه بصدق ! من هنا نعرف ان الهدى و الضلالة من مسؤوليات الانسان ، ولو عرف البشر هذه الحقيقة ، إذا ما ضل كثير منهم بالاسترسال و اللامبالاة . و القول بغير الحق ، و القرآن الحكيم في هذا الدرس وفي دروس اخرى يذكر البشر بهذه الحقيقة لأن ذلك طريق قريب لهداية الانسان.

نوح يتحدى بالرسالة الكافرين

هدى من الآيات

تلك كانت محتويات الرسالة الالهية : التذكرة بالعقل ، و التوجيه الى الله و مقاومة الجاهلة التي هي اتباع الظن و الخرص ، وهناك محتوى آخر للرسالة الالهية يشهد على أنها حق من رب العالمين وهو توكل المؤمنين بها على الله ، و استقامتهم امام كل الضغوط ، إعتمادا على الغيب كما فعل شيخ المرسلين نوح (ع) ، حيث تحدى قومه بكل وضوح فقال : ان كان تذكيري بالله صعبا عليكم فاني قد توكلت على الله ، فاجمعوا أمركم و لملموا قواكم أنتم و شركاؤكم ، ثم لا يكن أِمركم بينكم غمة ، تحزنون على تفريطكم في الاستعداد للمواجهة . ثمطالبهم نوح بالمواجهة الفعلية دون تعطيل.

أما اذا توليتم فلن أطالبكم بأجر ، وهذا دليل آخر على صدق الرسالة ، ولن أطالبكم بأن تصبحوا مسلمين لي بل لله . بيد ان قوم نوح كذبوه ، فتدخل الغيب الذي اعتمد عليه ونجاه الله ومن معه في الفلك ، وجعلهم الله ورثة لمن هلكوابالغرق ، وهكذا كانت عاقبة الذين كذبوا - الهلاك.

بينات من الآيات

التوكل سلاح المؤمن:

[71]حين نتلو قصة الرسالات السماوية في صراعها مع الجاهلية ، نزداد وعيا بحقيقة هذه الرسالات و ايمانا بصدقها ، ولهذا يكرر القرآن بيان هذه القصة الواحدة في جوهرها ، و المختلفة في صورها ، فهذا نوح شيخ المرسلين يتحدى قومه بسلاح الرسالة وحدها ، متوكلا على الله.

]واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي و تذكيري بآيات الله]فان كان صعبا عليكم قيامي ضد أفكاركم و تقاليدكم ، و خروجي عن أطار الرسوم و العادات ، بالرغم من اني واحد منكم ، فانتم قومي دون غيركم ، و الأصعب من ذلك عليكم انني اذكركم بآيات الله ، و أحاول ردعكم عن الأفكار و التقاليد التي آمنتم بها ، فان كان كل ذلكعظيما عندكم ولا يمكنكم احتماله.

]فعلى الله توكلت[

دون خوف منكم ، ودون اعتماد على قوة مادية دونكم ، بيد ان الله الذي أتوكل عليه قوي عزيز ، لذلك لا أخشى منكم بل انني اتحداكم بصلابة.

]فاجمعوا امركم و شركاءكم[

أي اجمعوا كل ما تملكون من قوة مادية و معنوية ، و اضيفوا اليها قوة شركائكم ، دون ان تتركوا شيئا من الاستعداد حتى لا تحزنوا غدا.

]ثم لا يكن امركم عليكم غمة[

باعثا للغم و الأسى.

]ثم اقضوا الي ولا تنظرون[

من حقائق الرسالة:

أي رتبوا أمركم فيما يخصني ، وضعوا خططكم في مقاومة رسالتي ، و تفاصيل مكركم ضدي بمتانة و إحكام ، ولا تعطوني مهلة ابدا.

إنه تحداهم بقوة الرسالة ، ونابذهم العداء اعتمادا على الله ، مما دل على الحقائق التالية:

اولا : ان الرسالة ليست ناشئة الوسط الثقافي و الاجتماعي حتى تكون متأثرة به سلبيا ، بل ثورة مباركة ضد سلبيات هذا الوسط.

ثانيا :ان الرســول مؤمن قبل أي احد برسالته و يضحي من أجلها بكل ما يملك ، ولو كان - حاشا لله - كاذبا او ساحرا لما اقدم على التهلكة من اجلها.

ثالثا : ان الرسالة ظاهرة غيبية تتحدى كل العوامل المادية و تنتصر عليها ، و الرسول عارف بذلك.

رابعا :انها لا تداهن السلبيات القائمة ، ولا تجري لاصلاحها سبيل التدرج المرحلي ، او الطرق السلمية ، بل تتحداها جذريا ، لأنها جاءت من عند الله خالق الناس و مالك السموات و الارض ، ولذلك لا معنى للمهادنة ، او تقديم التنازلات المرحلية ، او السكوت عن السلبيات.

صدق الرسالة و الرسول:

[72]واخذ نوح (ع) ينصح قومه بأسلوب آخر ، حيث أوضح لهم ان هدفه من تبليغ الرسالة ليس ابدا

الحصول على مكاسب مادية ، بل رضوان الله وأنه هو أول من يعمل بما يقول.

[فان توليتم فما سألتكم من اجر ان اجري الا على الله و أمرت ان اكون من المسلمين] وهكذا سائر الرسالات السماوية لا يهدف العاملون عليها و المبشرون بها بلوغ مطامح مادية مما يشهد على صدقهم فيما يخبرون.

[73]والذي حدث في نهاية المطاف دل على صدق الرسالة ايضا ، حيث أهلك الله و بطريقة غيبية قوم نوح و نجاه هو و المؤمنين برسالة الله .

[فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف و اغرقنا الذين كذبوا باياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين]الذين انذرهم الله عن طريق رسوله نوح " عليه السلام " لقد انتهت عاقبتهم بالغرق بسبب تحديهم للرسالة و استكبارهم ، أو ليس ذلك شاهد على صدق الرسالة الالهية ؟!

هكذا يطبع الله على قلوب المعتدين

هدى من الآيات

و مضت رسالات الله على ذات السنة ، حيث بعث الله انبياءه الكرام الــى قومهم ، فجاء الرسل بالبينات لهداية قومهم ، ولكنهم رفضوا الايمان كما رفضه الاسبقون ، وذلك لتمرسهم بالاعتداء و الظلم.

وهكذا استمرت سلسلة الرسالات حتى جاء دور موسى حيث بعثه الله تعالى و هارون الى فرعون و ملأه بآيات الله ، فاستكبر فرعون و كبار المفسدين ممن حوله ، و رفضوا الهداية و مارسوا عمليا الجرائم بحق المستضعفين ، و اتهموا موسى بأنه ساحر ، كما أتهموا رسالته الحقة بأنها سحر واضح ، و تميز موسى غضبا كيف يقولون للحق انه سحر بينما الساحر لا يفلح ولا ينتصر ، ولكنهم عاندوا بالرغم من دحض باطلهم ، و قالوا المهم عندنا البقاء على دين آبائنا ، واننا لا نتنازل عنه ، ولان هدفكم هو السلطة ، واننا لا نؤمن لكم ابدا.

وهكذا تكررت سيرة نوح عند موسى و هارون باختلاف بعض التفاصيل ، ولكن بذات المحتوى.

بينات من الآيات

خط الرسالة:

[74]رسالات الله تشكل خطا مستمرا عبر العصور ، كما ان الجاهلية التي تقف امام الرسالات تشكل خطا ثابتا في جوهره ، و علينا البحث عن خط الرسالات الذي يجسد اليوم واقع الرسالات السابقة بجوهرها فننتمي اليه.

]ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل]كما الرسالات خط ، فالجاهلية خط مستمر معها ، فان قوم نوح كذبوا رسالته ، و كذب قوم ابراهيم برسالته لماذا ؟

لأشتراكهم جميعا في دوافع التكذيب ومنها الاعتداء الذي هو تجاوز الحقوق ، و الاسراف في النعم ، والذي جاءت رسالات الله من اجل انقاذ البشر منه ، و كما جاء في آية قرآنية اخرى حيث قال سبحانه : " لقد ارسلنا رسلنا بالبينات * و انزلنا معهم الكتاب ليقومالناس بالقسط " (الحديد / ٢٦. (

فاقامة القسط و العدالة في الأرض هدف الرسالات الالهية ، كما ان منع الاسراف في الشهوات و توجيه الغرائز ، و بالتالي مقاومة ما يسمى بالظلم الذاتي هدف آخر للرسالات ، و طبيعي في هذه الحالة ان يقف المعتدون الظالمون للناس أو لأنفسهم أمام الرسالة ، ذلك لأنالظلم ظلمان فظلم في القلب ، و ظلم في السلوك السيء ينعكس سلبيا على النفس ، و يحجب عنها نور العقل.

]كذلك نطبع على قلوب المعتدين[

فالمعتدون تنغلق قلوبهم عن الاهتداء ، و هذه سنة من سنن الله سبحانه.

موسى و فرعون النموذج البارز:

[75]وكمثل على هذه الحقيقة يستشهد به القرآن الحكيم ، ليعطينا رؤية واضحة تجاه ما يمكن ان يكرر يوميا في حياة الناس ، كمثل عليها قصة موسى و هارون)ع) الذين بعثهما الله برسالاته الى فرعون الطاغوت و ملأه ، أي كبار معاونيه المفسدين في الأرض ، ولكن بسبب ممارستهم الجريمة ، و الظلم و الاعتداء ، و بسبب انعكاس سلوكهم الفاسد على فكرهم ، استكبروا عن قبول الرسالة.

]ثم بعثنا من بعدهم موسى و هارون الى فرعون و ملائه باياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين][٧٦] كيف أستكبروا ؟ وهل اعترفوا بالحقيقة وهي إن ظلمهم للناس ، هو سبب استكبارهم وضلالتهم ؟ كلا .. بل برروا رفضهم للرسالة بتبريرات باطلة ، مما يمكن ان يتكرر في كل عصر.

]فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين]انهم رفضوا التسليم للحق الذي هو من عند الله خالقهم ، والذي كان واضحا لا ريب فيه ، ونسبوا الحق الى السحر ، و الناس البسطاء لا يميزون بين السحر و الرسالة ، إذ كلاهما خارق لعاداتهم ولا يعرف الناس مغزاهما ، لذلك تلبس الامر على الناس ، وهكذا اضلوا الناس، وكذلك يمكن ان يتكرر الأمر مع الناس في كل عصر ، فالطاغوت و ملأه حين يخالفون الحق لا يعترفون بالدوافع الحقيقة لمخالفتهم من استكبارهم ، و تمرسهم بالجريمة و الظلم ، بل يتهمون الحق ببعض التهم التي تضلل الناس البسطاء و تفتنهم ، و تلبس الحق بالباطل و تشبهالرسالة بالسحر ، و الثورة

بالفوضى ، و الاصلاح بتعكير صفو الأمن ، و المطالبة بالحرية و المساواة بالهرطقة و التمرد على القيم هكذا.

فعلى الناس ان يتسلحوا بالوعي الكافي للتميز بين الاقوال التي ينطق بها أصحاب الرسالة ، او انصار الطاغوت ، ولا يرفضوا الرسالة ابالتأثر بالشبهات التي تثيرها اجهزة الطغاة ضدها ، وهذا من عبر القصص القرآنية حول الرسل.

الرد الرسالي:

[77]وكما كانت شبهة الطغاة حول الرسالة متناسبة مع بساطة الجماهير ، فان رد هذه الشبهة من طرف الرسل كان بلغة مفهومة لدى الجماهير الساذجة ايضا ، مما كشف زيف الشبهة لهم.

]قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم اسحر هذا[

فلقد نفى موسى ان يكون كلامه سحرا ، و أوضح انه حق ، والحق واضح المعالم بعيدا عمن ينطق به ، فاذا جاءكم الحق سواء عن طريقي او بطريق اخر ، لابد لكم ان تقبلوه و تطيعون ، وربما تشير الاية الى ان الحق هذا كان مقبولا عندهم اذا بقي بعيدا عنهم ، فكل الناس حتى الطغاة منهم يتفوهون بالحق و يعتقدون به ، بل يطالبون الاخرين بتحقيقه ، فمن الذي لا ينطق بالعدالة ولا يطالب بالتقدم و التطوير ؟!

ولكن اذا جاءه الحق و عارض مصالحه ، رفضه و نسبه الى السحر ، بينما الحق نفسه لما كان عند غيره كان مقبولا ولا يسمى بالسحر ، اوليس هذا الدليل البسيط و المفهوم عند الناس كافيا لدحض شبهتهم ؟

ولم يكتف موسى بهذا الدليل بل تابع مضيفا:

]ولا يفلح الساحرون[

مؤكدا انه يرفض مهنة السحر ، بينما السحرة يفتخرون بها ، وهذا وحده كاف للدلالة على أنه غير ساحر ، ثم ان الساحر لا يبلغ اهدافه لأنه لا يتبع الحق ، بل يجري وراء مصالحه و تراه في صف الظالمين و الطغاة ، ولا يتسم سلوكه الشخصي بالقيم الانسانية ، بل تجده عادة متوغلا في الرذائل المنبوذة عند الناس ، و بالتالي تجد الساحر بسبب مواقفه السياسية و سلوكه الشخصي مكروها عند الناس ، ولا يقدر على تحقيق أهدافه من أمامة الناس ، و قيادة المجتمع ، بينما الرسول يدعو الى فطرة الحق ، و يقف الى جانب المستضعفين ، و يطبق تعاليم السماء في توجيه الناس الى الخير ، و سلوكه الشخصي سلوك مثالي ، مما يجعله قريبا الى قلوب الناس ، قريبا الى تحقيق اهدافه منتصرا سعيدا ، وهذا واضح للناس جميعا ، فالناس انى كانوا راوا أو سمعوا المصلحين وفي طليعتهم الرسل ، وعرفوا السحرة انئذ يمكنهم انيعرفوا الفرق بين هذين الطرازين من الناس ، بأدنى توجيه و تذكرة.

النخوة الجاهلية:

[78] و حـين زهق باطل الطغاة ، عاند القوم و اثاروا في الناس نخوة الجاهلية ، و الخوف من الاصلاح.

[قالوا اجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه اباءنا]

فنحن قوم متحضرون ذوو تقاليد قديمة كيف نؤمن بكم وانتم ضدها ؟!

[وتكون لكما الكبرياء في الارض]

فانتما لستما من رسل الحق بل من طلاب المنصب ، وهذه تهمة مباشرة للشخص ، بينما موسى كان يوجه الحديث الى محتوى الرسالة ، وهذا التغيير هو منعادة الطغاة ، حيث يحولون الصراع بينهم و بين أصحاب الدعوة الى صراع شخصي بينما هو صراع فكري لذلك.

[وما نحن لكما بمؤمنين]

وكأن موسى و هارون دعوا قومهما بالايمان بهما دون الرسالة.

وهكذا انتهت مرحلة البلاغ ، و جاء دور الصراع السياسي الذي نقرؤه في الدرس القادم بأذن الله تعالى.

الفشل عقبى المستكبرين

هدى من الآيات

و جاء دور الصراع الثقافي و الاجتماعي ، و جمع فرعون سحرته الماهرين في السحر و طلب منهم موسى ان يلقوا سحرهم ، فلما ألقوا قال موسى متحديا و متوكلا على الله ان الله سيبطل سحركم ، لأن الله لا ينصر المفسدين ، وهم السحرة الذين يبتغون الفساد من سحرهم ، واناالله يحق الحق بكلماته ، الغيبية الحقة ، ولو كره فرعون و أمثاله من المجرمين.

وآمن لموسى و رسالته ذرية منقومه من بني إسرائيل ، خائفين من فرعون و المفسدين من أعوانه لكي لا يكرههم على الكفر مرة أخرى ، لأن فرعون كان عاليا متجبرا و متسلـطا على الناس ، وكان من المسرفين الذين يستخدمون كل امكاناتهم في لحظة واحدة.

ولكن موسى الذي تحدى السحرة بعزة الله ، أمر قومه المؤمنين بتحدي فرعون بقوة الايمان ، و سلاح التوكل على الله و التسليم لأوامره ، ولما يستوجب أوامره منتضحيات ، و استجاب قومه لهذا الأمر فتوكلواعلى الله سبحانه وقالوا " ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين " تمتحنهم بنا ، فيقتلوننا و يعذبوننا دون أن تردعهم غيبيا لكي تبتليهم ، و دعوا الله أن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين.

بينات من الآيات
و دقت ساعة الصفر:

[79]وحانت لحظة المواجهة ، التي كشفت الخلفية الغيبية للرسالات السماوية والتي تميزها كليا عن الدعوات الاصلاحية أو الثورات الاجتماعية أو الصراعات السياسية ، تلك اللحظة التي وقف فيها موسى (رسول الله) يتحدى كل أسلحته الطاغوت بايمان راسخ و عزم شديد.

]وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم [

] [80]فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما انتم ملقون]لقد تحداهم موسى لأنه لا يرهب قوة سحرهم ، لا لأنه كان يعرف ماذا سيحدث إذا ألقوا سحرهم تفصيليا ، بل دون ان يعرف ما هو سحرهم بالضبط ، ولكنه كان عالما بالنيجة عن طريق ايمانه بالله.

] [81]فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله]و علمه بأن الله سيبطل سحر السحرة كان بدوره نابعا من معرفته بسنة الله في الحياة التي تقضي بابطال الفساد.

]ان الله لا يصلح عمل المفسدين[

و السحــرة مفســدون ، لا يهدفون اصلاح المجتمع بعلمهم ، و الفساد شذوذ ينتهي ،و انحراف يزهق ، و باطل لا يدوم ، و الله لا يصلحه ، بعكس الرسول المصلح الذي ينشد اقامة الحق و العدل.

نصر الله:

] [82]و يحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون]فالحق ينصره الله ، مرة بكلماته الرسالية التي تفضح الباطل ، و تعطي للمؤمنين بالحق سلاحا ايدلوجيا و برنامجا ثوريا متكاملا ، و مرة بكلماته الغيبية التي اذا قال لشيء " كن " فيكون ، أما الطاغوت فانه مجرم بحق الناس ، و المجرم لا سلطة له على الحياة برغم التظاهر بذلك.

[83]وهكذا استمر الصراع حتى تبلور في ايمان طائفة من الناس بالرسالة و تجسيدها لمفاهيمها و برامجها.

]فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم]لماذا خشوا من فرعون ؟ إنهم خافوه على دينهم حتى لا يفتنهم عن الدين بالضبط الشديد.

]ان يفتنهم[

ولقد كان فرعون متسلطا على الناس ، مسرفا في استخدام موارد الطبيعة.

]وان فرعون لعال في الارض وانه لمن المسرفين[

التوكل سلاح الحسم:

[84]ولكن بالرغم من علو فرعون و اسرافه ، و بالرغم من قدرته و ثروته ، فانموسى أمر قومه بالتوكل على الله.

]وقال موسى يا قوم ان كنتم ءامنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين]وهكذا امرهم موسى بأن يكونوا مثله في التوكل على الله.

] [85]فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين]انما قالوا هذه الكلمة الحاسمة بعد أمر موسى لهم ، و تذكيرهم بأنها شرط الايمان بالله ، و شرط التسليم لقضائه و قدره ، ولكنهم بالرغم من توكلهم على الله ، كانوا يتطلعون الى النجاة من مأساتهم.

ولم يكونوا يهدفوا تعذيب انفسهم مثلما تفعله (السادية) أو توحي به بعض المذاهب الصوفية ، لذلك تراهم يدعون الله لكي لا يجعلهم مادة لأختبار الظالمين و ابتلائهم ، مما يدل على ان الله يقدر لبعض المؤمنين الشهادة ولا يمنع عنهم ظلم الظالمين امتحانا لأولئك الظالمين ، بالرغم من انه سبحانه ينصر عباده المؤمنين في عاقبة الأمر ، جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق (ع) ان معنى هذه الاية : " لا تسلطهم علينا فتفتنهم بنا " (١)الرؤية في الصراع:

[86]لذلك تضرع المؤمنون من قوم موسى الى ربهم لكي ينجيهم قائلين:

]ونجنا برحمتك من القوم الكافرين [

وهذه هي رؤية المؤمنين الى الصراع ، فليست عاقبة الصراع مجهولة ، ولا هي في(١) راجع مجمع البيان / ج ٣ / ص ٢٢٤

مصلحة الكفار ، ولكن لا يعني ذلك ان الصراع يكون سهلا وبلا تضحيات ، او بلا عمل واجتهاد ، و الدعاء الى الله هو نوع من العمل.

هكذا نصر الله رسوله

هدى من الآيات

و بعد أن آمنت ذرية من قوم موسى بالرسالة ، اتخذ الصراع شكلا اجتماعيا ، و أمر الله رسوله ان يتخذ لقومه المؤمنين بيوتا متقاربة و متقابلة ، وان يقيموا الصلاة ، و يبشر المؤمنين ، وهكذا انفصل المؤمنون عن الكفار ، بيد ان زينة الدنيا و مباهجها و ثروتها كانت بأيدي الكفار ، فدعى موسى ربه الا يدع فرعون و زبانيته و يضلون عن سبيل الحق بسبب تلك الزينة ، و الأموال ، بل يطمس على أموالهم ، و يشدد على قلوبهم فيسلبهم علمهم و عقلهم ، فلا يؤمنوا حتى يأتيهم العذاب ، فلا ينفع الايمان.

فاستجاب الله لدعوة موسى و هارون ، ولكنه أمرهما بالمقابل ان يستقيما والا يخضعا للضغوط فيتبعان سبيل الجاهلين ، ولكن كيف تحقق دعاء موسى وهارون ؟ و متى ؟

حينما هيأ الله لبني إسرائيل البحر بطريقة غيبية ، فعبروه الى صحراء سيناء ، فلحقهم فرعون و جنوده ليفتكوا بهم ولكنهم اغرقوا ، وحين احاط به الماء قال :آمنتانه لا اله الا الله ، بعد أن جاءه العذاب الأليم ، وناداه مناد هل تؤمن بعد ان عصيت الله و أفسدت في الأرض ؟ ان الايمان لا ينفع الان ، وان الله سوف ينجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية و عبرة ، بيد ان كثيرا من الناس عن آيات الله غافلون.

ولقد هيأ الله لبني اسرائيل مقاما آمنا ، و رزقهم من الطيبات ، وما اختلفوا الا من بعد ان جاءهم العلم ، فلم يقصر الله سبحانه بحقهم ، وان الله سوف يقضي بينهم يوم القيامة بالنسبة الى خلافاتهم.

بينات من الآيات

قوم يونس تابوا في الوقت المناسب

هدى من الآيات

بعد ان استعرض السياق قصص الرسالات السابقة ، و كيف كفر بها الناس ، فتوكل المؤمنون بها على ربهم ، حتى نصرهم ، بين هذا الدرس عبرة تلك القصص فيما يخص الرسالة الخاتمة ، و أمر رسوله ومن ورائه كل من يقرأ الكتاب بانه لو كان في شك من الرسالة أو من انتصارها، فليسأل العارفين بالتأريخ ، وان هذا هو الحق من الله ، ولا يكونن من الشاكين ، ولا من الذين كذبوا بآيات الله و خسروا ، فيكون مثلهم خاسرا.

بلى ان الذين ظلموا أنفسهم و انحرفوا سلوكيا ، انهم حكموا من قبل الله بالضلالة ، فحقت عليهم كلمة

ربك ، ولذلك فهم لا يؤمنون حتى ولو جاءتهم مختلف الآيات التي يطالبون بها ، والتي يعتقد انها لو جاءتهم آمنوا بها ، أجل انهم سوف يؤمنون في لحظة مشاهدة العذاب، حين لا ينفعهم ايمانهم ، كما لم ينفع أية قرية من هذه القرى الظالم أهلها الذين أهلكهم الله بكفرهم و بذنوبهم فلم يؤمنواالا في لحظة الهلاك ، إلأ قوم يونس لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا و أعطاهم مهلة الى فترة محددة.

بينات من الآيات:

بين الشك و اليقين:

[94]لم يشك الرسول في صحة رسالة الله التي أنزلت اليه ، ولكن خشية الرسول كانت من عدم تطبيق الرسالة بسبب جحود الكفار ، و بسبب حكمة الله البالغة التي قد تقتضي تأجيل نصر الله لرسالته ، كما كانت خشية موسى (ع) حين ألقى السحرة حبالهم فسحرت أعين الناس ، كانت خشيته آنئذ من ان تشاء حكمة الله الأ ينصر رسالته في تلك اللحظة فتنة للناس ، و ابتلاء للرسول.

بيد ان هذا الشك وهذا الخوف يقل حينما نراجع التأريخ ، و نسأل الذيــن يقرأونه ، حيث ينصر ربنا سبحانه رسالته في لحظة الحرج و ساعة العسرة.

]فان كنت في شك مما انزلنا اليك فسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك]ولا يعني السؤال هنا أن يذهب رسول الله أو المؤمنون به الى شخص مثل " عبد الله بن سلام " الذي آمن بالرسالة ، وكان عارفا بتأريخ الرسالات ، إنما جرى الحديث مجرى العموم ، أي مراجعة الخبراء و العارفين بالتأريخ من جميع الطوائف ، و طبيعي ان سؤالهميؤيد الحقائق القرآنية ، ولكن بشرط ان يكونوا ثقاة - و الثقة - شرط فطري و عقلي للعالم الذي يسأله الناس.

]لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين[

أي حين تراجع التأريخ و ترى كيف نصر الله رسالاته آنئذ ابتعد عن الشك الياليقين ، و هذه الآية توحي ببعض الحقائق التي نشير اليها فيما يلي- : الف : ان الخطابات القرآنية لا يجب ان تكون موجهة الى شخص الرسول ، لأن القرآن كتاب الله الى الناس جميعا ، وبذلك لا نحتاج الى التأويل كلما وجدنا خطابا في الآيــات ، و لذلك قال الزجــاج في هذه الآية كلاما نراه في كل الآيات المتشابهة تقريبا قال : بأن هذه الآية قد كثر سؤال الناس عنها و خوضهم فيها ، وفي السورة ما يدل علــى بيانهــا ، فان الله سبحانه يخاطب النبي و ذلك الخطاب شامل للخلق ، فالمعنى : " فان كنتم في شك فاسألوا " و الدليل على قوله في آخر السورة : " يا أيها الناس ان كنتم فيشك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم و أمــرت ان أكــون من المؤمنين " (١) فأعلم الله سبحانه ان نبيه ليس في شك.

ويبقى ان نذكر ان عدم شك الرسول و متانة يقينه انما جاء بسبب الوحي ، فلولا الوحي ولولا روح القدس الذي كان يأتيه بالوحي ، اذا كان الرسول بشرا كسائرالخلق ، ولذلك ينبغي الا نحاول فصل الرسول و عصمته و رفعه درجتة درجته عن القرآن و اثره فيه.

باء : ان الانتفاع بالعلم الحقيقي جزء من رسالة الدين ، ولا يقتصر هذا العلم بالفيزياء و الكيمياء مما يتعلق بالعلوم التجريبية ، بل وايضا التأريخ و الاجتماع و التي تسمى بالعلوم الانسانية ، ولكن بشرط فصل الرواية عن الدراية ، و فصل المعلومات الحقيقية عنالنظريات الاحتمالية.

جيم : ان الشك و اليقين عملان من عمل البشر الذي يختارهما اختيارا ، ذلك(١) يونس / ١٠٤

لأن الشك قد يكون بسبب انعدام العلم ، وهذا مفروض على البشر و موجود بسبب عجز البشر الطبيعي ، ولكن قد يكون الشك نابعا من الهوى و اتباع الشهوات ، فكثير أولئك الذين يشكون في الحقائق ، لأنهم

قرروا سلفا البقاء في شكهم ، ولأنهم لا يفكرون منطقيا ولا يبحثون عنالمصادر السليمة للمعرفة ولأنهم بالتالي يخافون من مسؤوليات العلم التي لابد ان يتحملها كل عالم ، لذلك نهى ربنا عن ان يكون الفرد من الشاكين ، لأن الشك من عمل الانسان.

كيف تخسر نفسك ؟

[95]كما أن الكفر و الأيمان من عمل الانسان ، لذلك نهى القرآن من أن يكون الفرد مكذبا بآيات الله ، بأن يتخذ موقفا سلبيا مسبقا من كل دليل علمي يدل على الحقيقة.

]ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين]ولماذا يكذب الفرد بالحق ، أوليس من أجل مصالحه و شهواته ؟ !ولكن عليه ان يعرف ان التكذيب بالحق يسبب له خسارة نفسه و مصيره.

[96]و السؤال الذي يفرض نفسه لماذا يسبب الفرد خسارة نفسه عن طريق تكذيبه بآيات الحقيقة ؟

الجواب :ان فريقا من الناس يكذبون بالحق بسبب سوء أعمالهم و سلوكهم ، فمن اعتاد الظلم ، و مارس الجرائم يطبع الله على قلبه حتى لا يؤمن ، الا في وقت لا ينفعه ايمانه.

]ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون[

[97]وعدم ايمان هذا الفريق من الناس ليس بسبب نقص في الآيات ، بل بسبب انغلاق انفسهم دون نور الايمان.

]ولو جاءتهم كل آية[

أجل انهم يؤمنون فقط حين يرون العذاب فلا ينفعهم ايمانهم.

]حتى يروا العذاب الاليم[

التكذيب سنة اجتماعية:

[98]يبقى ان نعرف ان ذلك ليس قدرا مقضيا عليهم بل سنة اجتماعية ، و الفرق بين القدر و السنة ، ان القدر كطلوع الشمس من مشرقها في وقتها لا يخضع ابدا لارادة البشر ، بينما السنة كما الثورة ضد الظلم ، و سقوط الطاغوت ، قد يتقدم او يتأخر ، أو حتى لا يقع إذا أراد الانسان ، فقد لا يقرر الشعب المضطهد الثورة ضد جلاديه ، وقد يغير الطاغوت عاداته الظالمة في الوقت المناسب فيمدد في أجله ، وهكذا جحود الظالمين و كفر المكذبين بآيات الله ليس قدرا ، بل سنة ، فمن الممكن عقلا ان يدور المرء مائة و ثمانين درجة باتجاه الصلاح كما فعل قوم يونس ، ولكن لا يقع ذلك عادة بسبب تكبر الفاسقين و تعاليهم عن التوبة الا بعد فوات الوقت.

]فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها[

أي لماذا لم يقدم هؤلاء إيمانهم في الوقت المناسب ؟ لماذا لم يتب الطاغوت حين رأى تململا اجتماعيا ، بل أخذته العزة بالاثم ، حتى أصبح التململ ثورة عارمة ؟ ولماذا لم يتب الشعب المتوغل في الفساد الخلقي ، وفي ظلم بعضهم لبعض ، حين رأوا نقصا في الثمرات ، وتدهورا في الاقتصاد ، وفي الصحة العامة ، بل استمروا في غيهم حتى انهار اقتصادهم و صحتهم تماما ؟!

أن هذا التحريض القرآني الشديد يدل أولا : على امكانية تحول الفرد و المجتمع تحولا جذريا قبل فوات

الاوان ، و ثانيا : أنه يدل على الصعوبة البالغة لهذا التحول ، مما يقتضي التحريض بكلمة عنيفة وهي (لولا. (

أجل ان قوم يونس ضربوا مثلا رائعا في هذا التحول ، الذي ينبغي ان يكون قدوة للمجتمعات الضالة التي يعبر عنها القرآن الحكيم عادة بكلمة (قرية. (

]الا قوم يونس لما ْءامنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا و متعناهم الى حين]الى ان انتهى اجلهم الطبيعي الذي حدده الله لهم ، فالأمم كما الأفراد ينتهون بطريقتين : اما بصورة طبيعية كحالة الشيخوخة ، وإما بسوء أعمالهم كحالة القتل في الفرد ، و الاضطراب في الأمة.

وقد سميت هذه السورة باسم يونس لأهمية التحول الاجتماعي الذي حدث عند قومه فليس من السهل ان يستيقظ مجتمع مسترسل في الفساد ، سادر في الميوعة و اللامبالاة مرة واحدة ، و يعود الى رشده الاولي.

وجاء في حديث الصادق (ع) عن قصة قوم يونس:

)انه كان فيهم رجل اسمه (مليخا) عابد ، واخر اسمه (روبيل) عالم ، وكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم ، وكان العالم ينهاه و يقول له لا تدع عليهم ، فان الله يستجيب لك ولا يحب هلاك عباده ، فقبل يونس قول العابد فدعا عليهم ، فأوحى الله اليه انه يأتيهم العذاب في شهر كذا .. في يوم كذا .. فلما قرب ذلك الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد ، وبقي العالم فيهم فلما كان اليوم الذي نزل بهم العذاب قال لهم العالم : افزعوا الى الله فلعله يرحمكم و يرد العذابعنكم فأخرجوا الى المغارة و فرقوا بين النساء و الاولاد ، و بين سائر الحيوان و اولادها ، ثم ابكوا و أدعوا ففعلوا فصرف عنهم العذاب ، وكان قد نزل بهم و قرب منهم)وجاء في بعض التفاسير ان قوم يونس قد تابوا بعدئذ توبة نصوحا ، حتى رد كل ظالم ، حق المظلوم اليه ، حتى ان الحجر كان في أساس البناء وكان غصبا ، كان الفرد يهدم بناءه و يرده الى صاحبه.

وفي هذا الحديث اشارة واضحة الى السبب في توبة قوم يونس وهو : تواجد العلماء بينهم ، و احترامهم لمقام العلم.

(1)نور الثقلين / ج ٢ / ص ٣٢٨.

بصائر الأختيار السليم

هدى من الآيات

يتسائل القارىء للآيات السابقة : لماذا وكيف يختار البشر طريق الايمان أو الكفر ؟! فيجيب هذا الدرس عن هذا السؤال باعطاء بصيرة ذات ابعاد أربع عن الايمان و الكفر وهي:

- 1لا يتحقق الايمان بالاكراه ، لا من قبل الله ، ولا من قبل الرسول ، فلو شاء الله لآمن من في الارض جميعا ، ولكنه لا يكره الناس على الايمان ، فهل يحق لبشر ان يكره الناس على الايمان و خالق البشر أحق بذلك ، لو كانت المصلحة تقتضيه ؟.

- 2ان الايمان نعمة كبيرة يتفضل بها الله على الانسان ، بعد توفير شرائطه من قبله وان الله يجعل الرجس وهو الكفر و مفاسده المترتبة عليه على أولئك الذين لا ينتفعون بنور عقولهم فلا يعقلون.

- 3اذا فتح الانسان عينه ، و نظر الى ما في السموات و الارض نظر اعتبار مندون حجاب ، فانه يوهب الايمان ، ولكن اذا قرر الفرد عدم الايمان سلفا فكل الآيات و النذر لا تغنيه ولا تنفعه شيئا.

- 4ان انتظار الكفار هو تحول الغيب الى شهود ، و الحقيقة المبشر بها الى واقع قائم أمامهم ، مثل ان ينزل عليهم فعلا العذاب الذي يتوعدهم به الرسل ، وآنئذ لا ينفعهم الايمان كما لم ينفع الذين كذبوا

بالرسالات السابقة ، وانما نفع المؤمنين من قومهم الذين نجاهم الله ، وهذا وعد حق يقطعه الله على نفسه للمؤمنين عبر العصور انه ينقذهم مما ينتظر الكفار من العذاب.

بينات من الآيات

الأيمان مادة الأختبار:

[99]لقد خلق الله الحياة ليختبر فيها الناس ، وجعل مادة الاختبار الايمان ، وقد منح ربنا للبشر حرية القرار فيما يخص الايمان ، وكان بامكان ربنا القدير ان يهب الانسان نعمة الايمان بمثل ما وهب له نعمة العين ، و أضاء له النهار ، ولكنه لم يفعل ، فعلينا الا نحاول اجبار الناس على الايمان.

]ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا آفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين]أي هل انت تضغط عليهم باستمرار حتى يصبحوا مؤمنين ، فهذا أمر يتنافى مع حكمة الاختبار في الدنيا ، وهو لا يمكن عمليا لأنه بعيد عن سنة الحرية التي قررها الله للبشرية.

الأيمان و مشيئة الله:

[100]ثم ان الايمان ليس كأي عمل اخر يقوم به البشر ، بل ان جانبا منهمتعلق بمشيئة الله ، فهو كالنصر في الحروب لا يمكن اليقين به مائة بالمائة.

]وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله[

فالله يأذن للنفس البشرية ان تقتبس شعلة من نور الايمان ، بعد ان توفر النفس في ذاتها كل العوامل الممكنة ، و تتصل بربها عن طريق الضراعة و التبتل ، واذا كانت النفس منطوية على غل او فساد ، فان الله العليم و المحيط بأبعاد النفس لا يأذن لها بالايمان ، وهذا الحقيقة تدعونا أولا الى اعتبار الايمان مستوى رفيعا لا يبلغه الفرد الا بعد جهاد صعب ، و بعدئذ فهو فضل من الله.

ثم ان الايمان حقيقة خارجية ، حيث انه رؤية واضحة ، و عرفان شامل ، و تطويع للشهوات ، و ترويض للنفس الجموحة ، فهو عموما رحمة من الله ، ان الكفر نقمة ينزلها الله على من لا يعمل جاهدا من أجل الحصول على الايمان.

]و يجعل الرجس على الذين لا يعقلون[

و الذين لا يبلغون مستوى الايمان هم الذين لا ينتفعون بنور العقل الذي زودوا به من قبل الله ، فوقعوا في رجس الجهل و الشهوات.

هل نتفكر ؟

[101]ان الفرد الذي ينتفع بعقله يكفيه ان ينظر الى ملكوت السموات و الأرض ، الى الجبال الراسية التي تحفظ الأرض من أن تميد ، و تترابط من داخلها بطبقات صخرية ، و تحتفظ في اجوافها بأحواض ماء عذب تتفجر عيونا و تجري انهارا ، كما تخزن المعادن الثمينة من الذي وضعها مواضعها ، و ثبت بها الأرض التي انبسطت امامها مهادا للناس ، يتخذون من ترابها اللين فراشا ، و مستقرا ، و يزرعونها لمعاشهم ؟

واذا نظرت الى السماء ، الى مواقع نجومها ، و نظام مجراتها و منظوماتها الشمسية ، الى تعادل الجاذبية فيها ، الى سعتها و امتدادها بحيث لا يستطيع علم البشر ان يلاحقها ، ولا تقدر الأجهزة التلسكوبية المتطورة ان تبصرنا أبعادها ، و تختفي المسافات العادية لنتحدث عن المسافات النورية فنقول : مليون عام ضوئي يفصل بيننا و بين المجرة الكذائية ، أي ان النور الذي خرج من مصدره و صلنا بعد مليون عام ، بينما يسير النور في كل ثانية مسافة مائة و ثمانين ألف ميل ، واذا اردنا ان نعد أجرامها

فسوف يتجاوز الحساب رقم الملايينالى البلايين ، علما بأن بعض اجرام السماء أكبر من ارضنا ملايين المرات ، حتى لتبدو ارضنا كحبــة رمــل في صحراء مترامية ، من الذي انشأها و دبر أمرها ، و حافظ على انظمتها الحكيمة ، هل انا وانت أم هذا الطاغوت وذلك الثري وذلك الكــاهــن ، أم الله خالــق السموات و الأرض سبحانه ؟!

ولكن حين لا يريد الفرد الايمان ، أو بتعبير آخر حين يصمم على الأ يؤمن بالله مهما كانت آياتــه واضحــة ، فماذا تغنيه الآيات ؟! وماذا تفيده كلمات التحذير و الانذار ؟!

]قل انظروا ماذا في السموات و الارض وما تغني الآيات و النذر عن قوم لا يؤمنون]عذاب الله متى ؟ وكيف ؟

[102]لماذا يصمــم البشر على عدم الايمان ؟ أوليس استجابة لشهواته العاجلة ، زاعما ان الكفر يوفر له المزيد من المتع المادية ؟ ولكن الحقيقة غير ذلك اذ ان الكفر يسلب منه نعم الله ، و يرديه في واد سحيق.

]فهل ينتظرون الامثل ايام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين]الجميع ينتظر ولكن الرسول ينتظر الفرج بينما الكفار ينتظرون عذاب الله ، الذي يحل بهم عاجلا ام اجلا.

[103]و عذاب الله ليس أعمى يصيب الجميع ، بل يبتعد عن رسول الله و المؤمنين ، لأن الله هو الذي يرسل عذابه وهو الحكيم العليم.

]ثم ننجي رسلنا والذين ءامنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين]و نجاة الرسول و المؤمنين دليل واضــح علــى ان العذاب ليس بسبب عوامل طبيعية ، كالشتاء و الصيف ، لأنه ان كان كذلك شمل الجميع ، بل بأرادة غيبية ، كما ان ذلك دليل على أن الناس لو ءامنوا لتجنبوا العذاب بايمانهم ، و ربما تشير نهاية الاية الى هذه الفكرة.

الرسول عامل برسالته شاهد على الناس

هدى من الايات

في الدرس الأخير من هذه السورة ، حدد الله مسؤولية الرسول لو لم يتبعه الناس شكا في رسالته ، تلك هي رفض عبادة الالهة ، و اخلاص العبودية لله ، و الايمان الصادق به ، و تطبيق أحكام الله ظاهرا و باطنا ، والا يدعو مع الله الالهة و الأصنام البشرية و الحجرية، فيكون آنئذ ظالما لنفسه لأنها لا تضر ولا تنفع ، ذلك لأن ما ينفع و يضر حقا هو الله سبحانه ، الذي لو أصاب الانسان ضر ما كشفه سوى رحمته الواسعة ، وان أصابه خير فبفضله سبحانه ، ولا احد يستطيع سلبه منه ، فمسؤولية الرسول هي اخلاص الطاعة لله ، ولكنه ليس مسؤولا عن الناس ، لأن الهدى في منفعة البشر نفسه ، كما ان الضلال يضره شخصيا ، اما الرسول فانه يتبع ما يوحى اليه ، و يصبر بانتظار حكم الله الذي هو خير الحاكمين.

بينات من الآيات

موقف الرسول:

[104]من أهم المكاسب الرسالية لبعثة الانبياء هو انشاء واقع اجتماعــي جديد ، يتجاوز دور التبليغ و الدعوة ، فاذا كان خط الكفر و الضلالة شاكا في ديــن الله ، فان النبي على يقين من هذا الدين نظريا ، و يعمل ببرامج الدين عمليا ، فيصنع بذلك واقعا اجتماعيا ثقيلا و متينا ، تمهيدا لتأسيس مجتمع مؤمن الى جانب المجتمع الكافر ، وخط ايماني نقي الى جانب خطوط الشرك و الشبهة.

]قل يا ايها الناس ان كنتم في شك من ديني[

و التردد مبعثه الشهوات و الأهواء ، و تهيب الواقع الجديد ، فان الرسول ليس في شك من دينه ، بل انه على يقين وهو قدوتكم جميعا في هذا الخط ، و عمله الخالص لله يفتح لكم الطريق الذي تجبنون من

السلوك فيه.

]فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله[

فأنا اول من تحمل الضغوط و مشاكل الكفر بالشركاء و التمرد على سلطانالالهة .

]ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم و أمرت ان اكون من المؤمنين]أي أني شخصيا أنتمي الى جماعة الايمان في مواجهة الجاهلية.

مسؤولية الرسول:

[105]وقد أكد القرآن الأمر الاخير ، الذي جاء في نهاية الآية السابقة ، وهو السبق الى الايمان و الاستقامة عليه ، لأهميته في زرع بذور الايمان في تلك النفوس٤ ٤٦٧

الشاكة و المترددة.

]وان اقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين]أي انفصل عن واقع الجاهلية نظريا بالحنفية ، و عمليا بالتوحيد.

[106]وجاءت الآية الثالثة تؤكد نهاية الآية الثانية وهي رفض الشرك و تعللها بقوله تعالى:

]ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك[

أي لا تطلب حاجة من الالهة الصماء أو الالهة البشرية الضعيفة التي تعبد من دون الله ، من دون ان تملك شيئا من قوة النفع و الضرر الا بأذن الله.

[فان فعلت فانك اذا من الظالمين]

ان التسليم للآلهة و الشركاء ظلم للنفس ، حين يفقد البشر هويته التي هي اغلى جوهرة يملكها ، وهو ظلم للناس بتشجيع الضلالة الفكرية ، و التسلط السياسي ، وهو ظلم للشركاء أنفسهم بتشجيعهم على امتهان حرفة الطغيان ، والزعم بانهم آلهة من دون الله.

[107] النافع الضار هو الله حقا ، لانه اذا ابتلى احدا بضراء لا يكشفها احد غيره ، وان منح خيرا لم يقدر احد على سلبه.

[وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم] الذي تسبق رحمته غضبه ، ولا يؤاخذ اهل الارض بألوان العذاب رحمة بهمو فضلا ، ولا يعجل على المذنبين بذنوبهم.

مسؤولية الجماهير:

[108]الرسول اول من أمر بالعمل برسالته ، وهو رائد المؤمنين الذي يخترق طريق الايمان بثقة و عزم و توكل على الله ، ولكنه ليس وكيلا عنهم فلا يجبر الناس على الايمان ، ولا يسلبهم مسؤولية قرارهم النهائي برفض أو قبول الرسالة ، بل من ضل فضلالته موجهة ضد نفسه ، ومن اهتدى فهدايته نافعة لنفسه.

[قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل][١٠٩] ولكن استقامة الرسول على طريق الحق تكلفه الكثير ، فان عدم اتباع

الضلال سوف يؤذونه بمختلف الوسائل ، وعليه ان يصبر و ينتظر حكم الله ، وهذا الصبر بدوره دليل اخر على صدق رسالته ، و يرفع حواجز الشك و التردد الموجودة في نفوس الناس ، حيث يتهمون الرسول بأنه يطلب السلطة او الثروة ، ولكن هل هذا طريق من يطلب الدنيا ، أن يخالف دين الناس ، و يثور ضد كل قوة ارضية ، و يصبر على الأذى في هذا الطريق ؟!!

[و اتبع ما يوحى اليك و اصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين]